كتاب

(البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية)

تأليف

حضرة الذكى الالمعى ذى القول السديد محمد بك فريد

وكيل قلم قضايا الدائرة السنية وأحد

أعضاء الجمعية الجغرافية

الخديوية

ليس بانسان ولا عالم * من لم يع التاريخ فى صدره

ومن درى أحوال من قد مضى * أضاف أعمارا الى عمره

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الاميرية ببولاق مصر المحمية

سنة ١٣٠٨

هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل فن التاريخ عبرة لمن اعتبر وتبصرة لمن تأمل وادكر والصلاة والسلام من الملك السلام على نبينا محمد سيد ولد عدنان القائل حب الوطن من الايمان صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وعترته وحزبه من خاضوا الفيافى والقفار حتى جاء تاريخهم من أحسن الآثار ﴿أما بعد﴾ فأقول وأنا المتوكل على مولاى المبدئ المعيد عبده محمد فريد غفر الله له ولوالديه ولأرباب الحقوق عليه لما كان لفن التاريخ فوائد جمة وثمرات مهمة تعرب عما مضى من كوارث الازمان والاوقات وتكشف عن وجوه الحوادث قناع الشبهات فلكثرة نفعه وعظم وقعه كان له فى الكتاب المبين أصل قوى متين قال الله تعالى يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون استدل على بطلان دعوى اليهود فى ابراهيم أنه يهودى وبطلان دعوى النصارى أنه نصرانى بأن التوراة والانجيل انما نزلا من بعده ولله الحجة البالغة والحكمة الدامغة اذ لولا التاريخ لجهلت الدول ومات فى الايام الآخر ذكر الاول عن لى مع قلة بضاعتى وكساد صناعتى أن أؤلف فى وطنى العزيز مختصر تاريخ وجيز يدل على فضل جنتمكان محمد على باشا الكبير على الشان من هو أكبر مؤسس لديارنا المصرية وأشهر مهندس لخططها النيلية على أحسن الوجوه كما يشهد له بذلك الوجوه برد الله مضجعه وجعل فى رياض النعيم مرتعه وحيث كنت ممن تربى فى المدارس الخديوية ذات الشهرة المرضية رأيت أن أعتنى بتأليف هذا الكتاب قياما

للوطن بواجب أداء الخدمة وشكر المالحضرة التوفيقية على جميع مامن النعمة حلى
على ذلك انتشار المعارف والعلوم التى أصبحنا نتسابق فى مضمار حلبتها يوما عن يوم وانتزع
ما كان اعترى همم مثامن الفتور وخروجنا من الظلمات الى النور بعناية خديو مصر الاعظم
وعزيزها الاكرم ذى العلم الآصفى والحلم الاحنفى والذكاء الاياسى والرأى الذى هو
لداء الاعداء الألداء وان أعضل أعظم آسى الشهم القوى الجنان والسهم النافذ
فى أكباد أهل العناد وان كان مجبولا على الرأفة والحنان من تغنت بلابل الافكار من
أمداحه بفنون وترنمت سواجع الاطيار من الثناء عليه بما أرقص معاطف الغصون
المتحلى بآداب السنة والكتاب المتخلى عن الميل مع الهوى وهو فى ريعان الشباب
ذى الفضل الجم والبيان الذى أفحم بلغاء عصره وألجم من سكنت هيبته ومحبته قلوب
الخاص والعام وأغدق على أرباب دولته بالتشاريف والانعام فكان قبولها دليل
اقبالها وتلقيها بحول الله وقوته أصل استقبالها فكانت على الدوام هى أولى له وهو
أولى بها ألا وهو سيد ولاة الامصار المعطر ذكره الذى ذاع فى سائر الاقطار الجدير
بالمدح على التحقيق أفندينا خديو مصر (محمد باشا توفيق) حفظ الله
دولته وأنجاله وحرس بعينه التى لا تنام نظاره الكرام ورجال دولته الفخام والله
المرجو لبلوغ كل مرام ومنه جلت قدرته الاعانة فى المبدا وعليه حسن الختام

(المقدمة)

ولد مدن مصر المغفور له محمد على باشا فى مدينة قوله (١) سنة ١١٨٢ هجرية الموافقة
سنة ١٨٦٩ ميلادية وتوفى والده وهو فى حداثة سنه وقام بتربيته بعده عمه طوسون أغا
كافل أمر ضبط هذه المدينة الى أن قضى نحبه فقيض الله له أحد أصدقاء والده للقيام

(١) هى بلدة فى بلاد مقدونية وطن اسكندر الاكبر واقعة على بحر الارخبيل وبها مينا متسع وتجارتها
عظيمة ويبلغ عدد سكانها ثمانية آلاف نسمة جلهم من المسلمين وتبعد ١٢٨ كيلومترا عن مدينة
سالونيك واسمها عند الرومانيين القدماء نيوبوليس أى البلدة الجديدة

بكفالتـه وكان ضابطا بجيش الانكشارية (١) ومقيما بفرقتـه فى مدينة (براوستا) بالقرب من قوله بصـفة حاكم وجاب الخراج فربا مع ولده الى أن بلغ أشـدّه وصار يجزئه على قضاء بعض مهـماته التى تتعلق بوظيفته فوجد منه عضدا ومعينا فيها فى بعض القرى التى لاتؤدى ما عليها الا بالتهديد الشديد أو استعمال القوى العسكرية فلم يزل كذلك حتى بلغ من العمر ثمان عشرة سنة وذلك يوافق سنة (١٧٨٧) فزوجه باحدى قريباته ليربطه بعائلته وكانت زوجتـه ذات يسار فاشـتغل بتجارة الدخان حيث كان يزرع فى هذه الجهة كثيرا وساعده على ذلك ما كان بينـه وبين أحد التجار الفرنساويين من العلائق الودية فبرع فيها حتى ربح منها كثيرا ونال شهرة جليلة بين تجار هذا الصنف

(مجئ محمد على باشا الى مصر) لما احتـل الفرنساويون مصر تحت قيادة بونابرت (٢) فى سنة ١٧٩٨ أرسـل البـاب العـالى الى الاقاليم والبلدان جميعها بتجهيز الجند لاخراجهم منها وطلب أيضا من حاكم (براوستا) ثلثمائة جندى فجمعهم وجعل ولده على أغا قائدا لهم والمرحوم محمد على باشا قائم مقامه

فسارت هـذه الكتيبة مع الدونانمة العثمـانيـة الى سواحل مصر حيث نزل الجيش بأبى قير فى يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٩٩ وكان الجيش العثمـانى مؤلفا من ثمـانية عشر ألف مقاتل

(١) كلمة محرفة من التركية كانت تطلق على فرقة من الجند أسسها السلطان أورخان سنة ١٣٨٩ مسيحية ثم طغت تلك الفرقة وتجبرت حتى صارت تولى السلاطين وتعزلهم تبعا لاهوائها مع أنها كانت أقوى أسـباب تقـدم فتوحات الدولة العلية واستمرت على هذا الفساد الى أن أمر السلطان محمود الثانى بابطالها فقتل أغلبها فى يوم ١٦ يونيه سنة ١٨٢٦

(٢) ولد هذا الرجل الشهير فى ١٥ أغسطس سـنة ١٧٦٩ بمدينة (اجاكسيو) بجزيرة (كورسيكا) من عائلة شريفة لكنها قليلة الثروة ثم دخل المدرسة الحربية بباريس سنة ١٧٨٤ وترقى الى رتبة ملازم ثانى طوبجى سنة ١٧٨٥ واشتهر فى استخلاص مدينة طولون من حوزة الانكليز ثم تعين قائدا للجيش المحارب فى ايطاليا سنة ١٧٩٦ وبعد أن قهر الجيوش النمساوية عاد الى باريس حيث كلف بفتح مصر فدخل الاسكندرية فى ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ وهزم المماليك فى واقعـة الاهرام (٢١ يوليو سنة ١٧٩٨) ثم رجع الى فرانسا فى أواخر سنة ١٧٩٩ وتولى قيادة الجيوش وصار بعد قليل رئيسا للحكومة (قنصل) وفى سنة ١٨٠٤ نودى به امبراطورا على فرانسا وقهر جيوش أوروبا التى تألبت علـيـه فى عدة وقعات شهيرة وكان منتهى أمره أن هزم فى واقعـة واترلو (١٨ يونيـه سنة ١٨١٥) وأرسل أسيرا الى جزيرة سانت هيلانة حيث توفى فى يوم ٥ مايو سنة ١٨٢١

ومعه

ومعهم مدافع كثيرة من الطراز الجديد يتولاها ضباط من الانكليز وبعد قليل انتشب الحرب بين بونابرت والجيوش العثمانية واستمر بينهم ماعدة أيام مع الاينهما الثبات العثمانيين بجوار ورقالدونا غفلهم ولعدم يأس الفرنساويين من الانتصار وبعد أن قتل عدد عظيم من الجانبين التجأ العثمانيون الى مراكبهم وكان ذلك فى ٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ ولبثوا فيها الى أن تمكن الباب العالى والانكليز من اخراج الفرنساويين من مصر بتقدم جيش تركى مركب من ثلاثين ألف مقاتل من جهة العريش فالصالحية فالقاهرة تحت قيادة الصدر الاعظم يوسف باشا ونزول الانكليز الى الاسكندرية (أول مارث سنة ١٨٠١) ورشيد وصعودهم النيل الى القاهرة على مراكب صغيرة أتوا بها من بلادهم لهذا الغرض

وفى أثناء ذلك عاد على أغا قائد الكتيبة المقدونية فخلفه محمد على باشا فى رياستها ثم بعد أن أخلى الفرنساويون القاهرة بمقتضى الاتفاق الذى أبرم بين الجنرال (منو) قائد الفرنساوية الذى ينسب مؤرخوهم خروجهم من مصر لسوء ادارته وعدم كفاءته وبين الصدر الاعظم والاميرال كيث الانكليزى فى ٢٥ يونيه سنة ١٨٠١ وسافروا الى بلادهم فى أوائل سبتمبر من هذه السنة وتبعهم الانكليز وعادت بذلك سلطة الباب العالى الى ما كانت عليه قبل دخول الفرنساوية عينت الدولة العلية خسرو باشا واليا من قبلها على الحكومة المصرية فى ثانى عشر جمادى الاولى سنة ١٢١٦ وكان بها اذ ذاك من الجنود أربعة آلاف من الارنؤد منهم فرقة تحت قيادة محمد على باشا فلما توسم فيه الاستعداد لمهمات الامور وجه اليه التفاته ورقاه تدريجا حتى وصل فى وقت قريب الى رتبة (سرششمه) أى رئيس فرقة مؤلفة من ثلاثة أو أربعة آلاف جندى ومن ذلك العهد أخذ فى استمالة الجند واستمالة قلوبهم اليه للاستعانة بهم عند سنوح الفرصة

أما المماليك فكانوا الى الآن يجادلون و يحاولون الاستقلال و يرغبون فى عدم رجوع مصر الى الباب العالى وصيرورتها كغيرها من الولايات فلما بلغ الدولة هذا الخبر أصدرت أوامرها الى خسرو باشا بأن يقاتلهم حتى يفنوا عن آخرهم وكانت قوتهم قد ضعفت لوقوع الشحناء بين رئيسيهم وهما عثمان بك البرديسى ومحمد بك الالفى اللذان كانا يتنازعان السلطة ويود كل منهما لو انفرد بها بدون مشارك أو منازع فوجه خسرو باشا

بجماعة من الارنؤد ومعهم فرقة محمد على باشا المحاربة المماليك بالقرب من الجيزة وكانت الدائرة فيها على الارنؤد قبل وصول محمد على مع فرقته

فلما حصل ذلك حنق قائد هذه الحملة غيظا وعزم على نسبة عدم انتصاره الى تأخر محمد على وأنه اتفق مع المماليك فسعى بذلك عند خسرو باشا فسر بهذه التهمة الباطلة ومع اعتقاده بطلانها أرسل للمرحوم محمد على يطلبه ليلا الى سرايه بالقلعة محتجا بأنه وردت اليه أوامر مهمة من دار الخلافة وأنه لابد أن يعلمه بها فى الحال وأصر على قتله وأمر خدمه بذلك حين دخوله من الباب فلما وصل الطلب الى محمد على جزم بداهة بان هذا الاستدعا لم يكن الا للايقاع به فتصير فى أمره وعلم أنه ان لم يجب طلب الوالى عد ذلك عصيانا وان امتثل وذهب كان فى ذهابه ذهاب حياته فبعد التروى فى ذلك ظهر له أرجحية عدم التوجه وآثر نسبة العصيان اليه على قتله وبات ليلته يترقب ما يبدو له وقت الصباح

فساعده الحظ الاوفر بقيام الجند على خسرو باشا وأمور ماليته (خزنه دار) لعدم صرف مرتباتهم وكان هذا ناشئا عن عدم تحصيل الخراج لاستيلاء المماليك على الوجه القبلى وجزء عظيم من الوجه البحرى بحيث لم يكن فى حوزة الوالى الا القاهرة وثغر الاسكندرية وما بينهما من القرى والبلدان

ثم ان خسرو باشا أمر باطلاق المدافع على الثائرين حتى خرب جزأ عظيما من القاهرة ولما علم أركان حرب الوالى المدعو طاهر باشا بذلك نزل من القلعة ليتوسط بين الفريقين فاتهمه الوالى بالاتحاد مع العصاة فاغتاظ طاهر باشا ومال مع الجند وحارب الوالى الى أن ألزمه بالفرار الى المنصورة ثم انتقل الى دمياط وتحصن بها فاتخذ طاهر باشا هربه فرصة للحصول على الولاية وجمع أعيان البلد وعلماءها وطلب منهم أن يختاروه واليا على مصر حتى يعين الباب العالى خلفا لخسرو باشا فأقره المجلس على ذلك لكنه لم يلبث الجند أن عصاه خصوصا الانكشارية لعدم صرفه مرتباتهم وصرف مرتبات الارنؤد ليس الا فحاصروه فى سرايه فى يوم ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ وأرسلوا اليه اثنين من أغواتهم ليرفعا اليه شكواهم فلم يستعمل السياسة معهما بل نهرهما على عصيانهما وطلب منهما أن

يكونا مطيعين لاوامره فلم يرضيا بذلك واشتد الامر بينهم وبينهما الى أن جرد أحدهما سيفه وحز رأسه وألقاها من النافذة وكانت مدة ولايته ستا وعشرين يوما

وبعد قتله رغب الانكشارية فى تولية أحمد باشا أحد أمراء الدولة وكان موجودا بمصر أثناء توجهه للمدينة المنورة حيث عين واليا فلم يقبل محمد على باشا هذا التعيين بل صعد الى القلعة ومعه أربعة آلاف من الارنؤد وأراد أن يقاوم الانكشارية ولكنه لما علم أنه لا يقدر على المقاومة كاتب عثمان بيك البرديسى المقيم بالصعيد وغيره من أمراء المماليك بأن يساعدوه على طرد الانكشارية ويرد مصر الى حكمهم المطلق كما كانت عليه فاغتروا بوعده وصاروا يأتون القاهرة أفواجا حتى اجتمع لمحمد على باشا من القوة ما يقاوم بها الانكشارية وزيادة فنزل من القلعة وانضم معهم ثم تفرقوا فى انحاء القاهرة وأحدقوا بمنزل أحمد باشا المذكور وهددوه وخيروه بين أمرين الخروج من مصر أو القتل فامتثل وخرج ثم نهبت العساكر داره

ثم حول محمد على فكرته الى القتك بالانكشارية خيفة أن يثوروا عليه كما فعلوا مع طاهر باشا فأوعز الى الارنؤد بذلك فانقضوا عليهم كالسيل المنهمر وسلبوا أموالهم وقتلوا أعيانهم فاجتمع الباقون منهم بمصر القديمة وعزموا على التوجه الى الشام من طريق الصحراء فهجم عليهم الارنؤد وأعملوا فيهم السيف حتى لم يبق الا من اختفى منهم فقتشوا عليهم البيوت وغيرها ثم أطالوا أيديهم الى الاهالى وتعدوا عليهم بالاذى وتفرقوا فى النواحى وأكثروا من النهب خصوصا فى الوجه البحرى

وكان اذ ذاك محمد خسرو باشا مقيما بثغر دمياط يقرر على أهلها ومن جاورهم الاموال الباهظة ويسومهم سوء العذاب ألوانا فتوجه محمد على باشا وعثمان بك البرديسى لمقاتلته فحاربوه وأسروه بعد أن هزم من معه فى ١٤ ربيع الاول سنة ١٢١٨ وأرسلاه الى مصر فسجن فى القلعة

أما الارنؤد فارتكبوا من أنواع السلب والنهب وغير ذلك ما يعجز عن وصفه الواصفون ويكل عن احاطته العالمون ثم عاد محمد على باشا الى مصر وتوجه البرديسى الى رشيد لمحاربة من فيها من العثمانيين فهزمهم وأسر على باشا القبطان وحصل برشيد مثل ما حصل بدمياط

وكان الارنؤد كلما مروا بقرية نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وآذوا صبيانها ولما وصل خبر هذه الفوضى الى دار الخلافة وعلم الباب العالى فوضوية مصر وأن لا والى لها يؤيد سلطته أرسل اليها على باشا الجزايرلى واليا عليها لاخماد هذه الثورة ومعاقبة أمراء المماليك وكل من كان سببا فى عزل خسرو باشا

فلما وصل الى الاسكندرية اشتغل بتدريب من أتى معه من الجند على النظام الاوروبى وأظهر له امراء المماليك الميل والطاعة والامتثال لاوامر الدولة ودعوه للحضور الى القاهرة فاغتر بذلك الوعد وخرج من الاسكندرية قاصدا العاصمة فخرج عليه الارنؤد فى الطريق وقتلوا من كان معه من الجنود العثمانية وأسروا الباشا وأتوا به الى مصر أسيرا الا أميرا وحكوما الاحاكما ثم أخرجه الامراء بقصد ارساله الى الشام من طريق الصحراء وأمروا من رافقه من الجند بقتله فى الطريق فقتلوه قبل أن يصلوا الى الصالحية

وفى اثناء هذه المدة عاد محمد بك الالفى من انكلترا التى كان قد ذهب اليها ليطلب منها مساعدته على الاستقلال بمصر وابادة الباقى من الامراء العاملين على معاكسته ويقال انه وعدها بتسليمها بعض الثغور لو نال مرغوبه بمساعدتها ولما علم محمد على باشا بقدوم الالفى خشى من اتحاده مع البرديسى فيضيع عمله سدى فعمد الى توغير صدر البرديسى على محمد بك الالفى فنجح فى مسعاه حتى هم بالفتك به غدرا ولولا هرب الالفى الى الصعيد لقتل بدسيسة البرديسى ومحمد على وبعد هرب الالفى الى مصر العليا هاج الارنؤد على البرديسى لطلب مرتباتهم (وربما كان ذلك بايعاز من محمد على) فأمر البرديسى بضرب الضرائب الشديدة على أهالى العاصمة وخصوصا الاغنياء من بينهم لارضاء الجند فتذمرت الاهالى من هذا الظلم الدائم وشكوا أمرهم الى محمد على باشا لما كانوا يرونه فيه من الميل اليهم والحنو عليهم فتلقاهم بالبشر والايناس ووعدهم بالمساعدة على دفع المظالم ثم بعد قليل اتحد الاهالى مع الارنؤد وهاج الكل على البرديسى وحاصروه بمنزله وأرادوا قتله لكنه تمكن من الفرار وحارب مماليكه الجند وقاوموهم مقاومة عنيفة فصعد محمد على باشا الى القلعة وأحكم مدافعه على الجهة التى بها منزل البرديسى فخرب أكثر منازلها

والمحلات

وانجلت هذه المعركة عن خروج كافة امراء المماليك من القاهرة فنهبت بيوتهم وسبيت نساؤهم ويتمت أطفالهم

فصفا الجو لمحمد على باشا لكن لحسن سياسته لم يرغب اظهار ما يكنه صدره من الانفراد بالحكم والاستقلال بولاية مصر بل تربص حتى تساعده الفرص فينال مرغوبه بلا عناء ولا نصب

(تعيين محمد على باشا واليا على مصر) لما خرج عثمان بك البرديسي وكافة الامراء من القاهرة دعا المرحوم محمد على باشا أعيان البلد وعلماءها وقال لهم انه لا يليق بقاء مصر بدون وال يواليها ولا سائس يسوسها ولا راع يراعيها وان الاولى اخراج خسرو باشا من سجنه بالقلعة وجعله واليا فأقر المجلس على ذلك وأخرج الباشا من السجن لكن بعد يوم ونصف ثار عليه رؤساء الارنؤد وطلبوا من محمد على اخراجه من مصر وطرده منها فأذعن لطلبهم وأرسله تحت الحفظ الى رشيد ومنها الى اسلامبول ثم طلب محمد على من الارنؤد أن يعين أحمد باشا خورشيد واليا على مصر فرضى الكل بذلك بشرط تولية محمد على قائم مقام له وبذلك انحسم النزاع وحرر بذلك محضر وأرسل للباب العالى للتصديق عليه فصدق على ما حصل وأرسل بذلك فرمانا مع مخصوص من طرفه فقام خورشيد باشا من الاسكندرية وانتقل الى القاهرة وحصل بعد ذلك وقائع لها وقع بين الجند والمماليك الذين كانت سلطتهم مبسوطة على الصعيد الى الجيزة وبينما محمد على مشتغل بمحاربتهم استحضر خورشيد باشا طائفة من الدولاة (١) ليجعلهم حرسا لنفسه وذلك لتوجسه خيفة من محمد على وجنوده الارنؤد وعدم ثقته بهم لاسيما وكان الاهالى يميلون كل الميل الى محمد على لاستعماله اللطف واللين معهم خصوصا مع العلماء والاعيان

فلما علم محمد على بحضور هؤلاء الدلاة عاد بسرعة الى القاهرة واشتغل بمقابلة علمائها وصار يشنع لهم على الدلاة وما ارتكبوه وكانوا قد انتشروا فى البلد كالجراد ينهبون ويف العالم

(١) قال الجبرتى ان الدلاة طائفة تنتسب الى طريقة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأكثرهم من نواحى الشام وجبال الدروز والمتاولة يركبون الاكاديش وعلى رؤسهم الطراطير السود مصنوعة من جلود الغنم الصغار طول الطرطور نحو ذراع وهذه الطائفة مشهورة فى دولة العثمانيين بالشجاعة والاقدام فى الحروب ويوجد فيهم من هم على طريقة حميدة ومنهم دون ذلك وقليل ماهم اهـ

يقتلون وفى النساء يهتكون ويأخذون أموال الناس ظلماً وبهتاناً وصار محمد على يحرض الناس على رفع شكواهم الى الوالى فاتبعوه وتظلموا لخورشيد باشا فكان يعدهم بالنظر فى شكواهم والتأمل فى بلواهم ولا يمكنه الوفاء بوعده مراعاة للجند حتى مل الاهالى من ازدياد الجور والتعدى وانتشر الهياج فى كافة أنحاء البلد وخاف كل فريق من الآخر وبينما هم على ذلك اذ ورد فرمان بتولية محمد على باشا على جدة فأظهر الامتثال وأخذ يتأهب للسفر فاضطرب العسكر والاهالى لعدم رضا الاهالى بمفارقته وفى اثناء ذلك صادف ان طلب الجند صرف مرتباتهم فأحالهم محمد على باشا على الوالى ولما لم يكن بيده مايسد به عوزهم صرح لهم بنهب القليوبية فتفرقوا فيها باشذر مذر ونهبوها وسبوا النساء وباعوا الاولاد فتغيرت قلوب الاهالى وأبغضوا الوالى ومالوا الى محمد على لما كانوا رأوه فيه من الحزم والمساعدة فألح العلماء والاعيان ولجوا على محمد على باشا بعدم السفر الى جدة وانتخبوه والياً عليهم ثم أرسلوا الى خورشيد باشا بذلك فقال لهم انى مولى من طرف السلطان فلا أعزل الا بأمره وتحصن فى القلعة أما جميع القوى العسكرية من أرنؤود ودلاة وغيرهم فانحازت الى محمد على الا القليل وكتبوا باشتراكهم مع العلماء الى الباب العالى يطلبون تولية محمد على على مصر فأجاب الباب العالى طلبهم أملا فى حسم النزاع وأصدر بذلك فرماناً وصل الى القاهرة فى ٩ يوليه سنة ١٨٠٥ لكن لم يقبله خورشيد باشا بل ظنها فكا افتراه أعداؤه فحاصره محمد على فى القلعة ورتب على أبوابها الخفر من الارنؤود الا أنهم لم يفعلوا ما أمروا به لعدم صرف مرتباتهم فتركوه وتفرقوا فى البلد ينهبون ويسلبون الا أن ذلك لم يؤثر فى عزيمته بل رتب بدلهم خفراً من الاهالى وقلدهم بالسلاح

وبعد قليل حضر قبطان باشا من قبل الدولة العلية ومعه أوامر مشددة باخراج خورشيد باشا فامتثل وخرج مع بعض الدلاة الى الجهات البحرية يعثو فى الارض فسادا فأرسل خلفهم محمد على بعضا من جنده فلحقوهم وأجلوهم عن مصر فذهبوا الى الشام واستقل محمد على بولاية مصر ولم يكن له فيها منازع الا من بقى من المماليك بعد هذه المناوشات والحروب

ثم ان الانكليز طلبت من الباب العالى عزل محمد على أونقله الى ولاية أخرى لا مرد لها

فى ذلك سنأتى على تفصيله قريب فسمع الباب العالى مقالها وأرسل الى مصر دونانمة تحت امرة قبطان باشا ومعه فرمان بتولية محمد على باشا سلانيك وتعيين من يدعى موسى باشا مكانه فأتى الاسكندرية ومعه فرقة من العساكر المنتظمة وأمر باعادة أمراء المماليك الى ولاية الاقاليم ولما بلغ هذا الفرمان الى محمد على باشا لم يظهر عدم الامتثال بل استعد للسفر فاجتمع عليه العلماء والقواد والجنود وأخبروه أنهم لا يرضون بخروجه وأنهم يحررون خطابا الى الباب العالى ويرسلونه مع ولده ابراهيم بك ويكون مضمونه اظهار رغبتهم فى بقائه عليهم واليا لما رأوه منه من مراعاة جانب الاهالى ومنع مظالم الجنود عنهم واتباعه مشورة العلماء فى الامور المهمة ولما وصل ابراهيم بك الى الاسكندرية رجع معه قبطان باشا بمراكبه ومعهما موسى باشا الذى أتى ليكون واليا فلما وصلوا الى اسلامبول وعرض الامر على الباب العالى قبل السلطان ما طلبه المصريون وأرسل الى مصر فرمانا بتثبيت محمد على باشا على ولايته فوصلها الفرمان فى أواخر شعبان سنة ١٢٢١ (٧ نوفمبر سنة ١٨٠٦)

لكن لم ينقطع أذى الجند عن الاهالى بل كان الخلاف عاما فى جميع الانحاء والشغب ضاربا أطنابه بين صنوف العساكر فالارنؤد تخالف الانكشارية وتقاتلها والدلاة تعادى كل فرقة وتنازعها وا لكل معاد للاهالى عاص للوالى يعيثون ويعربدون فى أنحاء القاهرة وينهبون الاهالى ويطردونهم من منازلهم ويسكنونها واستعملوا فى النهب والسلب أنواع الحيل فيما لم يجدوا اليه سبيلا فربما جلس العسكرى على حانوت رجل بدعوى الاستراحة أو اشترا شئ ثم يقوم ويعود ثانيا قائلا انى نسيت وتركت هنا كيسا ويجعل ذلك سبيلا لاهانة صاحب الحانوت ونهب ما عنده وربما زاد على ذلك مالا يخطر بالبال ولم يحصل مثله عند الامم الجائلة فى ظلمات التوحش وفيافى الهمجية فشاركوا الباعة فى عروضهم وساموهم فيما يربحون من أموالهم هذا والاهالى يتحملون كل هذه الشدائد ولا يرمون عنها بل يتجلدون بالصبر والتضرع الى الله فى أن يخلصهم مما نزل بهم من شرور هذه الفئة الباغية فكانوا متقلبين على جمرات البلايا سابحين فى بحار الرزايا تضيق صدورهم ولا تنطلق ألسنتهم

ولما أتى الى محمد على باشا الفرمان المؤذن بيقائه فى ولاية مصر أخذ فى استعمال الوسائط لاراحة البلاد من شر هؤلاء الطغاة تارة بالملاينة وأخرى بالمحاربة حتى اذعن له أمراء المماليك فأقطعهم البلدان والاقاليم وأعطى لشاهين بك اقليم الفيوم وثلاثين بلدا من أقاليم البهنسا وعشرة من الجيزة — ومما ساعد على استتباب الامن موت محمد بك الالفى الذى كان من أكبر أمرائهم جسارة واقداما وعقب موته مات عثمان بك البرديسى فكانت وفاة الاول فى دسمبر سنة ١٨٠٦ والثانى فى ينار سنة ١٨٠٧ ثم حضر اليه نعمان بك من أمرائهم فأكرمه وزوجه احدى جواريه وأعطاه بيت المهدى بدرب الدليل وهكذا صار يكرم كل من أتى اليه منهم كعمر بك وغيره ثم أتى اليه ابراهيم بك الكبير فولاه اقليم جرجا وبهذه الحالة لم يعد لمحمد على باشا شاغل من جهة الامر اولا أتباعهم ولكنه لم يزل يخشى غدرهم وخيانتهم عند حصول أقل أمر يغضبهم وتيقن أن لا راحة الا بعد استئصال جرثومتهم الخبيثة وتطهير القطر المصرى من دنس وجودهم ولقد ساعده الحظ على تتميم ذلك وتمكن من ابادتهم كما سيجىء

(دخول الانكليز مصر)

لما علم الانكليز بتثبيت محمد على باشا على ولاية مصر يئسوا من نوال مرغوبهم بالطرق السلمية وعمدوا الى استعمال القوة وأرسلوا الى الاسكندرية أسطولا بحريا مركبا من سبعة عشر مركبا حربيا يقل جيشا مؤلفا من خمسة آلاف جندى تحت قيادة الجنرال (فريزر) لاحتلالها فوصلت الى الثغر فى أول المحرم سنة ١٢٢٢ (١٠ مارث سنة ١٨٠٧) وأرسل قائد الجيش الى حاكم المدينة أن يأذن لهم بالنزول الى البر لأنهم يريدون احتلال الثغر محافظة على مصر من الفرنساويين خوفا من أن يعيدوا الكرة عليها فأجابهم الحاكم بانه لا يأذن لهم بذلك الا اذا كان معهم أمر من الدولة العلية فلما وجد الانكليز أنه لا بد من النزول الى البر عنوة تأهبوا للقتال وأمهلوا المدينة أربعا وعشرين ساعة وقبل انقضاء هذا الميعاد سلم حاكم المدينة المدعو أمين أغا من ضباط الاستانة المدينة بدون أن يتعرض لمنع خروج العساكر الى البر ولا لمنع تقدمهم نحو المدينة بل قبل العار وسلم نفسه ومن

معهم من العساكر من غير أن يرمى شيأ من المقذوفات عليهم وبهذه الكيفية تمكن الجنرال الانكليزى من أخذ هذه المدينة الشهيرة بدون أن يفقد أحدا من عساكره

(١) فاحتلها الانكليز فى صبيحة يوم الجمعة ١٠ محرم سنة ١٢٢٢

وذكر الجبرتى أنهم شرطوا مع الاهالى أنهم لايسكنون البيوت قهرا عن أصحابها بل بالمؤاجرة والتراضى ولا يمتهنون المساجد ولا يعطلون الشعائر الاسلامية وأعطوا أمين أغا ظبر خيانته أمانا على نفسه ومن معه من العساكر وأذنوا لهم بالذهاب الى أى محل أرادوه ومن كان له دين على الديوان يأخذ نصفه حالا والنصف الثانى مؤجلا ومن أراد السفر فى البحر من التجار وغيرهم يسافر فى خفارتهم الى أى جهة أراد ماعدا اسلامبول وأما الى الغرب والشام وتونس وطرابلس ونحوها فطلق السراح ذهابا وايابا وأن محكمة الاسلام تكون مفتحة الابواب للمتقاضين تحكم بشريعتها الاسلامية ولم يكلفوا أهل الاسلام باقامة عوة عند الانكليز بغير رضاهم اهـ بتصرف

(واقعة رشيد) أما الجنرال الانكليزى فمن بعد أن استراح بضعة أيام وجهز مايلزم أمر بتوجيه بعض عساكره الى رشيد ليكون له فى القطر موقع آخر وكان عدد من أرسل من الجند الى ثغر رشيد ألفى جندى منهم ماءتان من البحرية ولم تكن حامية رشيد مؤلفة الا من بضع مئين يرأسهم شخص ذو صداقة وشجاعة يسمى على بك فلم يقلد أمين أغا حاكم الاسكندرية فى تسليم المدينة بل صمم على المدافعة والمكافحة عن المدينة بكتيبته قليلة العدد والعدد على قدر الاستطاعة ثم أمر عسكره وشدد عليهم بأن لا يطلقوا بنادقهم مطلقا حتى يشير اليهم ولما شاهد عساكر الانكليز ماشاهدوه من هذه الحالة ظنوا أنهم لايجدون مدافعة بل يدخلون ثغر رشيد كما دخلوا الاسكندرية وكانوا فى تعب من السير فدخلوا البلد بدون احتراس وانتشروا فى أسواقها حيث وجدوها خالية خاوية ثم بحثوا عن أمكنة

(١) الاسكندرية مدينة بحرية واقعة على شاطئ البحر الابيض المتوسط وبعدها عن القاهرة مسافة ٢١٣ كيلومترا أسسها الاسكندر الاكبر سنة ٣٣٢ قبل المسيح واشتهرت بمكتبتها الشهيرة التى ينسب حرقها الى عمرو بن العاص بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وهو خطأ بين كما يشهد بذلك التاريخ ثم فتحها الرومانيون سنة ٣٠ قبل المسيح ودخلها المسلمون سنة ٦٤٠ مسيحية (سنة ١٨) هجرية ثم استولى عليها السلطان سليم الثانى العثمانى سنة ١٥١٧ ميلاديه

يلتجؤن اليها ويستريحون فيها وأغلبهم رموا أسلحتهم وناموا في الطرق فلما رأى ذلك علي بك وتحقق التمكن منهم خرج عليهم بقليل من العسكر وأطلق النار على كل جهة كانوا موجودين فيها فنالهم من ذلك دهشة عظيمة كأنما بعثوا من القبور وأخذ الفشل فيهم ومما زاد في ارتباكهم اطلاق العسكر بنادقهم عليهم من الابواب والشبابيك وأسطحة البيوت فبعد قليل من الزمن فرت الجنود الانكليزية هاربة بدون انتظام الى جهة الاسكندرية بعد أن هلك اللواء القائد لها وكثير أيضا من الضباط ومائة جندي وأخذ منهم مائة وعشرون أسيرا ومدفعان أما الهاربون فلم يزالوا يتحملون عناء السفر حتى وصلوا الى الاسكندرية

وذكر الجبرتي أنه في يوم الأحد السادس والعشرين من محرم سنة ١٢٢٢ أشيع بالقاهرة خبر وصول رؤس القتلى ومن معهم من الاسرى الى بولاق فهرع الناس بالذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم الى ساحل بولاق وركب أيضا كبار العسكر ومعهم طوائفهم الا قليلهم وطلعوا بهم الى البر ومعهم جماعة العسكر المتسفرين فأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا بهم من باب النصر وشقوا بهم من وسط المدينة وفيهم ضابطان وهما راكبان على حمارين والباقي مشاة في وسط العسكر ورؤس القتلى معهم على نبابيت وقد تغيرت وأنتنت رائحتها وكانت عدة الرؤس أربعة عشر والاحياء خمسة وعشرين ولم يزالوا سائرين بهم الى بركة الازبكية وضربوا عند وصولهم شنكا وطلعوا بهم الى القلعة وفي اليوم التالي وصل أيضا الى القاهرة عدة من الرؤس وثلاثة عشر أسيرا من الانكليز وساروا بهم الى القلعة بمثل ما حصل بهم في اليوم الذي قبله اهـ

ولما وصل الى محمد علي باشا خبر وصول الانكليز الى الاسكندرية وكان بالصعيد يحارب المماليك كتب اليهم بالصلح وأرسل اليهم المشايخ يحثونهم على الاتفاق معه لمحاربة الانكليز فلم يقبلوا الصلح بل قالوا لو تحققنا الامن والصدق من مرسلكم لما حصل منا خلاف ولا حاربناه ولا قاتلناه ولكنه كثيرا ما يعدنا بمثل هذه المواعيد عند الاحتياج الينا ثم لا يفي بما وعد وحيث انه قد تهدمت دورنا وتفرق شملنا ولم يبق لنا ما نأسف عليه ونتحمل المذلة من أجله وقد ماتت اخواننا ومماليكنا فنستمر على ما نحن عليه حتى نفنى عن آخرنا ونستريح

بالممن جهتنافلاطفهم المشايخ وأقنعوهـم بالصلح وقالوالهم انه أولى من تداخل الاجانب بينكم فقبل الكل وساروا الى القاهرة

وفى اليوم الثانى من شهر صفر سنة ١٢٢٢ عاد محمد على باشا من الصعيد وأخذ فى تحصين القاهرة بمساعدة قنصل فرانسا واستمر الاهالى فى قلق واضطراب والجند فى تأهب وسفر الى يوم ١٤ منه فوردت الاخبار بانتصار المصريين على الانكليز فى ضواحى رشيد وقد عادوا الى مهاجمتها بعد انهزامهم أول مرة وفى يوم ١٥ منه وصل الى القاهرة من أسر فى هذه الواقعة ورؤس بعض القتلى فأطلقت المدافع من الازبكية والقلعة استبشارا ثم أمر الباشا بارسال الاطباء الى القلعة لمعالجة الجرحى من أسراء الانكليز والاعتناء بهم وتمييز الضباط عنهم فى المأكل والمشرب ورتبت لهم المرتبات وقضوا مدة أسرهم فى مصر بغاية الاكرام

واليك تفصيل هجوم الانكليز على رشيد نقلا عن جريدة أركان حرب الجيش المصرى وذلك انه لما وصل الانكليز الى الاسكندرية وجرى ما أسلفناه اغتاظ الجنرال (فريزر) مما حصل لجنده فى رشيد فشكل سرية أخرى وأرسلها اليها وكانت مركبة من ثلاث آلاف نفر وستة مدافع وأربعة قطع من الهوان تحت رياسة الجنرال (استيورت) فلما وصلت تلك السرية الى رشيد فى ١٨ ابريل سنة ١٨٠٧ وضع الجنرال المذكور بطريتين فى القطعة المرتفعة من ناحية أبى مندور وتمكن من قرية الحماد ووضع فيها خمس بلوكات لاجل محافظة ووقاية الخلف ثم ابتدأ المحاصرون أى الانكليز فى ضرب النار فكلما تذكر المحصورون الظفر الذى نالوه فى الوقعة الاولى صبروا وتجلدوا وكانوا يرهبون المحاصرين فى غالب الاحيان بخروجهم الى خارج البلدة وهجومهم عليهم فمكث ضرب النار أسبوعين بلا ثمرة وفى آخر تلك المدة أى فى ٢١ أبريل تعجب الفريقان من الامدادية التى أتت على حين غفلة من طرف محمد على باشا فاستبشر المحصورون بذلك وكان مقدار الامدادية المذكورة ألفا وخمسمائة سوارى وأربعة آلاف بيادة وفى الحال انقسمت تلك العساكر الى فرقتين احداهما صغيرة واتخذت موقعها أمام الحماد والثانية كبيرة تحت رئاسة الكيخيا واتخذت موقعها فى برنبال (١)

(١) هى قرية بمديرية الغربية بمركز دسوق على الشاطئ الشرقى لفرع رشيد فى شمال قرية مطوبس بينها وبين رشيد نحو ساعتين ومنها الى فوة ٤ ساعات تقريبا وهى قرية مبنية بالآجر واللبن وبها جوامع ومنارات وأطيانها متصلة ببحيرة البرلس ويزرع فيها الارز كثيرا وسائر الاصناف المعتادة وكان لمحمد على باشا بها قصر ينزله وفيه توفى ولده الامير أحمد باشا الشهير بطوسون ليلة الاحد ٧ ذى القعدة سنة ١٢٣١ هجرية

وكان عساكر الفرقتين يشاهد بعضهم بعضا وعند فلق صباح اليوم التالى هجمت الفرقة الصغيرة على مدفع الانكليز الذى كان بالجهاد بعساكر البيادة والسوارى لكنها انقهقرت فتبعها أحد بلوكات الانكليز الى مسافة بعيدة حتى انفصل البلك المذكور عن بقية الجيش وحينئذ رجع سوارى المصريين بالهجوم على ذلك البلك ففرقته وقتلت منه عشرين نفرا وأسرت خمسة عشر وفى الليلة التالية اقتصم الكيضا بعساكره نيران الانكليز واجتمع مع قائد الفرقة الاخرى وفى هذه الليلة أخذ الجنرال (استيورت) عساكر قوله الجهاد بخمس بلوكات فصار جميع القول ٨٥٠ نفرا تحت قيادة الاميرالاى (مكليود) وكان الاميرالاى المذكور يظن حينئذ انه لم يكن أمامه خلاف الفرقة الصغيرة لكنه لما رأى فى الصباح أن جميع الجيش اجتمع أمامه وأخذ فى السير لمهاجمته أمر بالتقهقر الا أنه غلط فى تقهقره بسبب تجزئة قوته الى سريات فجعل أولاها مركبة من ثلاثة بلوكات تحت رئاسة البيكباشى (مور) وثانيتهما من بلوكين تحت رئاسته والثالثة من خمس بلوكات ومدفعين تحت رئاسة البيكباشى (وجلستر) ثم لم يسيرأيضا تلك السريات مع بعضها بل جعلها منفصلة عن بعضها بمسافات بعيدة فعند ذلك انتظرت السوارى المصرية سرية البيكباشى (مور) حتى انفصلت من السريتين الاخريين وأحاطت بها من كل جانب وكان حتى لم ينج من القتل الا من أسر وهو البيكباشى (مور) وقليل من الانفار ولما بعد الاميرالاى (مكليود) مسافة نصف ميل أراد الرجوع والاجتماع مع سرية البيكباشى (وجلستر) لكن كان ذلك صعب المنال لان السوارى المصرية لم تمهله بل أحاطت به فالتزم بأن يشكل سريته بهيئة قلعة وتمكن بذلك من صد السوارى المصرية الا أن عساكر البيادة أطلقت عليه نارا مدرارا وقتلته وكثيرا من الجند فأخذ اليوزباشى (ماكى) مكانه من الرئاسة وصمم على اقتحام وسط المصريين كى يلحق باخوانه لكن لم تزل نيران بنادق المصريين تنهال عليه كالسيل حتى لم يصل الى البيكباشى (وجلستر) الا بنفر قليل مقداره سبعة أشخاص وأما البيكباشى (وجلستر) فدافع بعد وصول الميرألاى (مكليود) بشجاعة واقدام لكنه التزم فى آخر أمره أن يسلم نفسه ومن معه

هذا وأما الجنرال (استيورت) فأسرع فى تسمير المدافع الكبيرة وحرق الذخيرة ثم قفل راجعا

الى

الى الاسكندرية مع ألفى نفر بقيت ممن كان معه من الجند بعد الهزيمة الثانية التى حصلت للانكليز أمام رشيد لم ير الجنرال (فريزر) من الحكمة أن يهاجم رشيد مرة أخرى حتى يحضر له امدادمن انكلترا وخاف من هجوم عساكر الوالى عليه فأخذ فى تحصين المدينة اه بتصرف

ولما رجع الانكليز الى الاسكندرية بعد هزيمتهم ثانى مرة أمام مدينة رشيد قطعوا جسر أبى قير الحائل بين مياه البحر المالح وأرض البحيرة لقطع المواصلات بين الاسكندرية وداخل القطر فعم الماء أغلب جهات البحيرة وخرب بلادها وأتلف أرضها ومزروعاتها وأعدم منها نحو مائة وأربعين بلدا بقى أغلبها الى الآن وهى ماتراه بين تكو وبحيرة للعدية الى المحمودية وما يجاورها بحيرة مربوط محتدا بالقرب من دمنهور

(خروج الانكليز من مصر) وفى وسط جمادى الثانية سنة ١٢٢٢ سافر الباشا بنفسه الى جهة دمنهور وتكررت بينه وبين الانكليز المكاتبات فى شأن اخلاء الاسكندرية وتم بينهما الاتفاق على اخلائها وتعهد محمد على باشا بتسليم ما أخذ من عساكرهم أسرى فى أثناء الحرب وفى ٥ رجب أتت أوامر الباشا الى العاصمة بارسال الاسرى فارسلوا الى الاسكندرية وبمجرد وصولهم نزل الانكليز مراكبهم ورجعوا الى بلادهم وكان ذلك فى ١٠ رجب سنة ١٢٢٢ (٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧) ولما وصل الى القاهرة خبر زوال الخطر من احتلال الانكليز الثغر الاسكندرى ودخول محمد على باشا بها أطلقت المدافع من القلعة ثلاثة أيام متوالية فى الاوقات الخمس

(حرب الحجاز)

وفى آخر شهر ديسمبر من السنة المذكورة أتى فرمان لمحمد على باشا من الدولة العلية يؤيده على ولاية مصر ويأمره فيه بارسال تجريدة من مصر الى العرب الوهابيين الذين تملكوا بلاد العرب ومدينتى مكة والمدينة المنورة وصاروا يؤذون حجاج بيت الله الحرام واتسع حكمهم وتفاقم أمرهم حتى خشيت الدولة العلية بأسهم وجردت الجيوش لهم فعادوا بالخيبة والوبال

ولقد أردت قبل تفصيل ماجرى بين المصريين وبينهم من الحروب أن أذكر نبذة من مذهبهم عثرت عليها بالمجلة الفرنساوية المسماة (جورنال آزياتيك) نشرت في هذه المجلة باللغة العربية وها هي بحروفها

إن الوهابيين قوم من العرب تمذهبوا بمذهب عبد الوهاب وهو رجل ولد بالدرعية مدينة بأرض العرب من بلاد الحجاز كان من وقت صغره تظهر عليه النجابة وعلو الهمة والكرم وشب على ذلك واشتهر بالمكارم عند كل من يلوذ به وبعد أن تعلم مذهب أبي حنيفة في مدارس بلاده سافر الى أصفهان ولاذ بعلمائها وأخذ عنهم حتى اتسعت معلوماته في فروع الشريعة وخصوصا في تفسير القرآن ثم عاد الى بلاده في سنة ١١٧١ هجرية فأخذ يقرر مذهب أبي حنيفة مدة ثم أدته ألمعيته الى الاجتهاد والاستقلال فأنشأ مذهبا مستقلا وقرره لتلامذته فأسرعوا وأكبوا عليه ودخل الناس فيه بكثرة وشاع في نجد والاحساء والقطيف وكثير من بلاد العرب مثل عمان وبني عتبة من أرض اليمن ولم يزل أمرهم شائعا ومذهبهم متزايدا الى أن قيض الله لهم عزيز مصر محمد علي باشا فاطفأ سراجهم في سنة ١٢٣٣ وكسر شوكتهم وأخفى ذكرهم وهذه الرسالة من كلامهم تدل على بعض مذهبهم ومعتقداتهم

اعلموا رحمكم الله أن الحنيفية ملة ابراهيم عليه السلام وهي أن تعبد الله مخلصا له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم له كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فاذا عرفت أن الله سبحانه وتعالى خلق العباد للعبادة فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة الا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمى صلاة الا مع الطهارة فاذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحدث اذا دخل في الطهارة كما قال تعالى ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون فمن دعا غير الله طالبا منه ما لا يقدر عليه الا الله سبحانه من جلب خير أو دفع ضر فقد أشرك في العبادة كما قال تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وقال تعالى والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير فأخبر تبارك وتعالى

ان

اندعاء غير الله شرك فمن قال يارسول الله أو ياابن عباس أو ياعبد القادر زاعماً أنه باب حاجته الى الله وشفيعه عنده و وسيلته اليه فهو المشرك الذى يهدر دمه وماله الا أن يتوب من ذلك وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذى يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلتجئ الى غير الله أو يستعين بغير الله فيما لا يقدر عليه الا الله فهو أيضا مشرك وماذكرنا من أنواع الشرك هو الذى قال الله فيه ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وهو الذى قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين وأمرهم باخلاص العبادة كلها لله سبحانه وتعالى

ويصح ذلك أى التشنيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله فى كتابه ❁ أولها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرون أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الامور والدليل على ذلك قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون وقوله تعالى قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون فاذا اعترفوا بذلك ثم توجهوا الى غير الله يدعونه من دونه وهو لا يملك كشف الضر عنهم ولا تحويله فلا بد أن يشركوا ❁ القاعدة الثانية أنهم يقولون مانرجوهم الا لطلب الشفاعة عند الله سبحانه ونحن نريد من الله لا منهم ولكن بواسطتهم وشفاعتهم وهذا شرك أيضا والدليل عليه قوله تعالى ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض سبحانه وتعالى عما يشركون وقال تعالى والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار ❁ فاذا عرفت هذه القاعدة أيضا فاعرف القاعدة الثالثة وهى أن منهم من طلب الشفاعة من الاصنام ومنهم من تبرأ من الاصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب

ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محظورا ورسول الله صلى الله عليه وسلم
لم يفرق بين من عبد الاصنام ومن عبد الصالحين بل حكم على الجميع بالكفر وقاتلهم حتى
يكون الدين كله لله ۞ واذا عرفت هذه القاعدة فعليك بالقاعدة الرابعة وهى أنهم
يخلصون لله فى الشدائد وينسون ما يشركون به والدليل على ذلك قوله فاذا ركبوا فى الفلك
دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون وأهل زماننا يخلصون الدعاء
فى الشدائد لغير الله سبحانه ۞ فاذا عرفت هذه القاعدة فتعلم القاعدة الخامسة وهى
أن المشركين فى زمن النبى أخف شركا من عقلاء مشركى زماننا لان أولئك يخلصون لله فى
الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم فى الشدة والرخاء ولم يعلموا قوله عليه السلام تعرف الى
الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة والله أعلم بالصواب اه

هذا ولما أتى ذلك الفرمان الى محمد على باشا بذل جهده فى تجريد العسكر وجمع لهم ما يلزم
من مؤن وذخائر مع صعوبة هذا الامر فى الوقت الذى كانت فيه المماليك متحزبة عليه
فضلا عن أن خزينته خالية اذ ذاك من النقود ولما كان على يقين من أن السفر بطريق البر
صعب يهلك فيه كثير من العساكر ويهم ثم النقل أيضا أصر على أن يتخذ طريقه البحر الاحمر
حيث كان سهلا لنقل جنوده الى فرضة جدة ولم يغيره عن هذا العزم عدم وجود مراكب
له لنقل الجند بل أصدر أوامره الى سائر جهات القطر المصرى بجمع الاخشاب وما يلزم
لانشاء خمس عشرة سفينة (١) فوردت ووضعت فى الترسانة ببولاق مصر القاهرة
وتجهزت للتركيب ثم نقلت على ظهور الجمال الى مينا السويس فركبت هناك وبينما هو
آخذ فى التجهيز اذ حضر رسول من قبل السلطان الى القاهرة ومعه سيف برسم طوسون
باشا ولد المرحوم محمد على باشا المعين لقيادة الحملة المزمع ارسالها الى الحجاز لمحاربة الوهابيين

---

(١) قال الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٢٤ ان محمد على باشا لما عزم على حرب الوهابيين شرع فى شهر الحجة
فى انشاء مراكب لبحر القلزم فطلب الاخشاب الصالحة لذلك وأرسل المعينين لقطع أشجار التوت والنبق
فجمعت من جهتى القطر القبلى والبحرى وجعل بساحل بولاق ترسخانة وورشات وجمعوا أرباب الصنائع
كالنجارين والنشارين وغيرهم ليهيؤها وكانت تحمل الاخشاب على الجمال وتركبها الصناع بالسويس
ويقلفطونها ويبيضونها ويلقونها فى البحر فعملوا أربع سفن كبارا احداها تسمى الابريق وخلاف ذلك
وداوات لحمل المسافرين والبضائع اه

وجواب

وجواب من الباب العالى يحثه على الاسراع فى ارسال تلك الحملة فسافر الى السويس لانجاز تلك التحضيرات وبينما هو مقيم بها اذا اكتشف مكيدة من المماليك لاختطافه اثناء عوده من السويس الى مصر ولما كان داهية عريقاً فى طريقة للتخلص من شرهم قبل سفر الجند الى بلاد العرب خوفاً من قيامهم عليه والفتك به انتهز هذه الفرصة لاتمام ما ينويه لهم منذ دخوله مصر ولاجل أن لا يقع فى أيديهم ركب هجيناً جيداً أوصله الى القاهرة فى ليلة واحدة وليس معه الا خادم واحد حتى نجا بنفسه من تلك المهلكة وشرع فى تنفيذ ما عزم عليه

(واقعة القلعة) تفصيل ذلك على ما جاء فى الجبرتى أن العزيز محمد على باشا لما قلد ابنه طوسون سر عسكر الركب المتوجه الى الحجاز وخرجت جيوشه الى قبة العزب ونوه بتوجيه العساكر الى جهة الشام لتمليك يوسف باشا جنح لها الذى كان عزل عنه وجعل رئيسهم شاهين بيك الالفى واختار يوم الجمعة للسفر (٥ صفر سنة ١٢٢٦ الموافق أول مارث سنة ١٨١١) فلما كان يوم الخميس طاف آلاى جاويش بالاسواق على الهيئة القديمة فى المناداة للمواكب العظيمة وهو لابس الضلمة والطبق على رأسه وراكب حمارا عاليا وأمامه مقدم بعكاز وحوله قبجية ينادون بقولهم (يارن آلاى) يريدون بذلك اعلامهم بحصول الموكب ويكررون ذلك فى جميع انحاء المدينة وطافوا بأوراق التنبيهات على كبار العسكر والامراء المصريين الالفية وغيرهم يطلبونهم للحضور فى باكر النهار الى القلعة ليركب الجميع بتجملاتهم وزينتهم أمام الموكب فلما أصبح يوم الجمعة ركب الجميع فى الساعة الخامسة وطلعوا الى القلعة وطلع المصريون بمماليكهم وأتباعهم وأجنادهم فدخل الامراء عند الباشا وحيوه وجلسوا معه مدة من الزمن وشربوا القهوة وتضاحك معهم ثم سار الموكب على الوضع الذى رتبوه فسارت طائفة الدلاة وأميرهم المسمى أزون على ومن خلفهم الوالى (حاكم القاهرة) والمحتسب والاغا والوجاقلية والالداشات المصرية ومن تزيا بزيهم ومن خلفهم طوائف العسكر الخيالة والمشاة والبكباشيات وأرباب المناصب وابراهيم أغا أغا الباب وسليمان بيك البواب بذهب ويجى ويرتب الموكب وكان العزيز قد أصر على قتل جميع الامراء المماليك وأتباعهم ليتخلص من شرهم ويريح القطر من أذاهم وسلبهم ونهبهم وأسر ذلك الى حسن باشا وصالح قوج والكتخدا فقط وفى صبح ذلك اليوم

أسر به ابراهيم أغا أغا الباب فلما سار الموكب وانفصل الدلاة ومن خلفهم من الوجاقلية والالداشات المصرية عن باب العزب أمر صالح قوج عند ذلك بغلق الباب وعرف طائفته بالمراد فالتفتوا ضاربين للمصريين (يقصد بذلك المماليك) وقد انحصروا بأجمعهم فى المضيق المنحدر وهو الحجر المقطوع فى أعلى باب العزب فيما بين الباب الاسفل والباب الاعلى الذى يتوصل منه الى سوق القلعة وكانوا قد أوقفوا عدة من العسكر على الحجر والحيطان فلما حصل الضرب من أسفل أراد الامراء القهقرى فلم يمكنهم ذلك لانتظام الخيول فى مضيق النقر وأخذهم ضرب البنادق والقرابين من خلفهم أيضا ولما علم الواقفون بالاعلى المراد ضربوا أيضا فلما رأى المصريون (المماليك) ماحل بهم ارتبكوا فى أنفسهم وتحيروا فى أمرهم ووقع منهم أشخاص بكثرة فنزلوا عن الخيول واقتحم شاهين بك وسليمان بيك البواب وآخرون وعدة من مماليكهم راجعين الى فوق والرصاص ينصب عليهم من كل فج ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة ولم يزالوا سائرين بشاهرين سيوفهم حتى وصلوا الى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الاعمدة وقد سقط أكثرهم وأصيب شاهين بك وسقط الى الارض فقطعوا رأسه وأسرعوا بها الى الباشا ليأخذوا البقاشيش وكان الباشا عندما سار الموكب قد ركب من ديوان السراى الى بيت الحريم وهو بيت اسماعيل أفندى الضربخانة وأما سليمان بيك البواب فهرب من حلاوة الروح وصعد الى حائط البرج الكبير فتبعه الجند بالضرب حتى سقط وقطعوا رأسه أيضا وهرب كثير الى بيت طوسون باشا فقتلوهم وأسرف العسكر فى قتل المصريين (المماليك) وسلب ما عليهم من الثياب وقتلوا معهم من رافقهم من طوائف الناس وأهالى البلد وكل من تزيا بزيهم وقبضوا على من أدرك حيا وقتلوهم فى حوش الديوان واستمر القتل من ضحوة النهار الى مضى جزء من الليل على المشاعل هذا ما حصل بالقلعة وأما أسفل المدينة فانه عند ما أغلق باب القلعة وسمع من الرميلة صوت الرصاص وقعت الكبسة فى الناس واتصلت بأسواق المدينة وأغلق الباعة حوانيتهم وانتشرت العساكر الى بيوت الامراء المصريين ومن جاورهم كالجراد ونهبوها نهبا بليغا حتى حلى النساء وركب الباشا ضحوة ثانى يوم ونزل من القلعة بموكب حافل ومنع النهب ودخل بيت الشرقاوى وجلس عنده ساعة لطيفة

وكنا

وكذا ابنه طوسون دخل البلد ومنع العسكر من الافساد والنهب وأرسل الباشا الى القرى والبلدان بضرب عنق من وجدوه بها من الكشاف التابعين للمصريين (المماليك) فضربت أعناقهم ومات فى هذه الواقعة نحو الالف ما بين أمير وكاشف وجندى وكانوا يحملونهم على الاخشاب ويرمونهم عند المغسل بالرميلة وقد جردوهم من ثيابهم وألقوهم بحفرة من الارض قيل انها بقرميدان ولم ينج من الالفيين الا أحمد بيك زوج عديلة هانم فانه كان غائبا بناحية بوش وأمين بيك تسلق من القلعة وهرب الى ناحية الشام وممن قتل من مشاهيرهم شاهين بيك كبير الالفية ونعمان بيك وحسين بيك الصغير ومصطفى بيك الصغير ومراد بيك الكلارجى ومرزوق بيك بن ابراهيم بيك انتهى ملخصا ببعض تغييرات وكان موتهم رحمة للعباد وعمارة للبلاد وأمنت بعدهم السبل برا وبحرا

أما ما تواتر على الالسن من ان أمين بيك عند ما حصلت المذبحة هم بجواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو فقط فذلك أمر مبالغ فيه ان لم يكن محض اختلاق

ولما خلص من شرهم بقتلهم أخذ فى تجهيز التجريدة بكل جد واجتهاد فجمع ستة آلاف من البيادة وألفين من السوارى ومثلهما من الطوبجية وجعل قيادة هؤلاء لنجله طوسون باشا كما مر وفى شهر شعبان سنة ١٢٢٦ نزلت البيادة فى المراكب وسافرت قاصدة فرضة ينبع وأما السوارى فسافرت عن طريق البر تحت قيادة طوسون باشا ﷺ فلما وصلت الدونانمة المصرية الى ينبع قابلها السكان بغاية الفرح وأما قائدهم الاعظم فقد وصل لهم بعد قليل مع من كان بصحبته من السوارى ولما كان طوسون باشا شابا ذا جسارة وجراءة اعتمد على بأس عسكره وحسن أسلحتهم بالنسبة لاتباع الوهابى واجناده ولم يستعمل مع قبائل العرب ما يجذب قلوبهم اليه بل ابتدأ بالسير نحو المدينة المنورة فتجمع الوهابيون ووقفوا له بالقرب من مدينة بدر الشهيرة بانتصار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على كفار قريش فهجموا على المصريين بشدة وعادوا بالغلبة الا أنهم تقهقروا بغاية النظام واحتموا فى متاريس أقاموها هنالك لكن لم يثن ذلك طوسون باشا عن

عزمه بل أمرها بالهجوم عليها فتقدمت البيادة بقوة على تلك الخطوط حتى انهم أخذوا الخط الاول من هذه المتاريس ثم تقدمت نحو الخط الثانى الذى كان آخذا من المتانة مكانا عظيما لو دافعت عنه الوهابيون بغاية القوة والشجاعة حتى اضطر المصريون الى القهقرى ثم وقع الخوف فى صفوف المصريين وفروا من امام العدو عائدين الى فرضة ينبع بصفة غير منتظمة وهلك منهم خلق عظيم من شدة الجوع والعطش وجهلهم بالطريق ولولا قلة عدد الوهابيين الذين لم يتمكنوا من اتباع أثر المصريين لما نجا منهم أحد

ولما علم محمد على باشا بهذا الانكسار الذى لم يخطر له على بال أرسل المدد الى ولده طوسون باشا ومقدارا عظيما من المؤن والذخائر لتعويض مافقده منه فى واقعة بدر وأمر بعزل ونفى أغلب رؤساء العسكر الذين هربوا وقد تحصن طوسون باشا بعد ذلك فى مدينة ينبع وبادر بترتيب عساكره وفى هذه المرة لم يهمل فى اجراء الطرق اللازمة لجذب قلوب ومودة القبائل التى كانت غير راضية باحكام الوهابيين وبعد أن تحقق من مصافاة وموالاة القبائل القاطنة بين ينبع والمدينة ومن انتظام جيشه خرج قاصدا المدينة المنورة فوصلها بدون أن يصادف أدنى معارضة فى الطريق وابتدأ الحصار لكنه لم يرغب فى استعمال المدافع لاجراء فتحة فى سور المدينة لدخول الجند خوفا من أن تصيب بعض مقذوفاتها حيطان الحرم النبوى فاستعمل اللغم حتى اذا جهزه أرسل لسكان المدينة يستعد بأن كل من لم يكن وهابيا فليتزى بزى مغاير لزى هذه الطائفة وبعد ذلك أطلق اللغم فهدم جزأ عظيما من السور وعكن الجيش الدخول منه فأمر طوسون باشا اذ ذاك بمهاجمة المدينة ودخولها عنوة فهاجمتها الجيوش المصرية ودخلتها لكن بعد عناء كثير واستخلصت المدينة المنورة من يد هذه الفئة العاتية الخارجة عن طاعة أمير المؤمنين

ثم أخذ طوسون باشا يعسكر فى تحصين خط الرجعة الى مدينة ينبع التى هى قاعدة أعماله وبعد ماتم هذا العمل سافر الى فرضة جدة حيث كان الشريف غالب مقيما ففتحت له أبوابها بغاية السهولة والسرور والانشراح ومن هناك سار السرعسكر بجيشه نحو مدينة مكة لاستخلاصها من أيدى الوهابيين فوصلها ودخلها بدون قتال لقيام الاهالى على الفرقة الحافظة وطردها اياها حينما علموا بقدوم الجيوش المصرية * فحينئذ كتب السرعسكر

المصرى

المصري لوالده ان طريق حج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه السلام صار آمناً وسهلا للقاصدين ووصل هذا الخبر أولاً الى مصر ثم الى اسلامبول في شهر ذي القعدة سنة ١٢٢٧ ثم اراد طوسون باشا أن يحتل مدينة الطائف لأهميتها بالنظر لمكة المشرفة ولهذا السبب كان قد حصنها سعود زعيم الوهابيين وأودع فيها السلاح وجعل فيها المخازن ممتلئة من الذخائر ووضع بها ما ينيف على ألف شخص من أجود جنوده وأشدهم بأساً وأكثرهم دربة وعلماً بفنون الحرب

لكن لما علم السردار أن ما معه من الجنود لا يكفي لفتح هذه البلدة عنوة أرسل فريقاً من جيشه لحصارها ومنع وصول المدد الى حاميتها حتى اذا أتته النجدة من مصر هاجمها بكل قواه لكن لحسن حظه لم يلبث قائد الحامية الوهابية أن ترك مركزه هارباً بمجرد وصول الجند المصري المرسل لمحاصرته وتيسر بذلك للمصريين دخول هذه النقطة المهمة بدون قتال ولا جدال فاغتاظ لذلك سعود زعيم الوهابية وخشي من تقدم المصريين فجمع كل ما كان عنده من القوى وقسمهم الى فرقتين عظيمتين كل منهما تزيد على المصريين عدداً ومؤلفة من أناس أقوياء وذوي بأس شديد وجعل نفسه رئيساً على احدى هاتين الفرقتين وجعل الأخرى تحت قيادة قواده المدعو فضل الله وأرسلها الى تُرَبة ليجعلها قاعدة لأعماله ومستقراً لمؤنته وذخائره وكان هو ومن معه من جنود الفرقة الاولى مجتمعين في شمال تُرَبة ومستعدين لمساعدتها اذا اقتضى الحال ذلك وفي أثناء هذه المدة كانت سواري الوهابيين تناوش الجنود المصرية وتقتل كل من تأخر منهم في المسير

ولما علم طوسون باشا بهذه الحركات العدوانية جمع ما تفرق من جنوده وتأهب لصد الوهابيين على قدر الطاقة ريثما يأتيه المدد لكن سبقه سعود وهاجم فجأة مدينة الحناكية واضطر قائد حاميتها المدعو عثمان كاشف الى التسليم بعد عدة هجمات عنيفة لكن أطلق سعود سبيله وسبيل الحامية بشرط أن يسلموا أسلحتهم ويتوجهوا الى بغداد ويقسموا بأن لا يحملوا السلاح أبداً في مواجهة الوهابيين ثم أرسل طوسون باشا فرقة عظيمة تحت قيادة أحد قواده المشهورين الى مدينة تُرَبة لاستخلاصها من أيدي الوهابيين لكن بمجرد قربه من تلك المدينة خرج عليه الوهابيون وهجموا عليه من كل حدب وناحية حتى اضطر

الى التقهقر والعود الى الطائف واقتفى الوهابيون أثره حتى دخل المدينة وكان بها طوسون باشا فاحدقوا بها وقطعوا المواصلات بين المدن التى شغلها بعساكره فكتب لوالده بارسال المدد

(سفر محمد على باشا الى الحجاز) فعزم محمد على باشا عندذلك على السفر بنفسه الى بلاد الحجاز لقطع دابر الوهابيين وسافر من مصر بجيش عظيم على طريق السويس فوصل جدة فى يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٨١٢ وسافر حالا الى مكة وقبل أن يشرع فى عمل تما أصر على القبض على الشريف غالب الذى مكن الوهابيين من الاستيلاء على مدينتى مكة والمدينة بهروبه والتجائه الى جدة وكان مذبذبا بين الوهابيين والمصريين ليرى أيهما يفوز بالنصر فيتبعه

(القبض على الشريف غالب) وكيفية القبض عليه على ما جاء فى الجبرتى أنه لما ذهب الباشا الى مكة استقر هو وابنه طوسون باشا مع الشريف غالب على المصادقة وبساط المصافاة وجددمعه العهود والمواثيق والايمان فى جوف الكعبة بان لا يخون أحد صاحبه وكان الباشا يذهب اليه فى قلة والآخر يأتى اليه والى ابنه كذلك واستمروا على ذلك مدة وفى خامس عشر ذى القعدة دعاه طوسون باشا فأتى اليه فى قلة كالعادة فوجد بالدار عساكر كثيرة وعندما استقر المجلس وصل عابدين بيك فى عدة وافرة وطلع الى المجلس فدنا منه وأخذ الجنبية من حزامه وقال أنت مطلوب للدولة فقال سمعا وطاعة ولكن صبرا حتى أقضى أشغالى فى مدة ثلاثة أيام وأتوجه اليها فقال عابدين بيك لا سبيل الى ذلك والسفينة حاضرة فى انتظارك فحصل فى جمعية الشريف وعبيده رجة وصعدوا على أبراج السراية وأرادوا الحرب فارسل اليهم الباشا يقول لهم ان وقع منكم حرب أحرقت البلد وقتلت استاذكم وأرسل لهم أيضا الشريف يكفهم عن ذلك وكان بهذه السراية أولاده الثلاثة فحضر اليهم الشيخ أحمد تركى وهو من خواص الشريف وحزبه وقال لهم لم يكن هنالك بأس واعلموا ان والدكم مطلوب فى مشاورة مع الدولة ويعود لكم بالسلامة وحضرة الباشا يريد أن يقلد كبيركم نيابة عن أبيه الى رجوعه ولم يزل يكرر حتى انخدع كبيرهم لكلامه

وقاموا

وقاموا معه فذهب بهم الى محل غير الذى به والدهم ووضعوا تحت الحفظ وفى الوقت نفسه أحضر الباشا الشريف يحيى بن سرور وهو ابن أخى الشريف غالب وخلع عليه وقلده امارة مكة ونودى فى البلدة باسمه وعزل الشريف غالب حسب الاوامر السلطانية واستقر الشريف غالب عند طوسون باشا حتى أركبوه وأصحبوا معه عدة من العسكر وذهبوا به وباولاده الى بندر جدة وأنزلوهم السفينة وساروا بها من ناحية القصير الى صعيد مصر اهـ ثم ذكر الجبرتى فى حوادث شهر محرم سنة ١٢٢٩ خبر وصول الشريف غالب الى القاهرة فقال وفى يوم الاحد سابع عشره وصل السيد غالب شريف مكة الى مصر القديمة وقد أتت به السفينة من القلزم الى مرفأ ثغر القصير فتلقاه ابراهيم باشا وحضر معه الى قناوقوص ثم ركب النيل بمن معه من أولاده وعبيده والعسكر الواصلين معه وحضر الى مصر القديمة فلما وصل الخبر الى كتخدا بيك ضرب واعدة مدافع من القلعة اعلاما بوصوله وأكراما لمقامه على حد قوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم هذا وبعد سفر الشريف غالب الى مصر أمر محمد على باشا ولده طوسون باشا بالمسير الى مدينة تربة وقصدها فسار أولا الى مدينة الطائف وأخذ منها مايلزمه من المؤن والذخائر ثم قصد مدينة تربة لكنه التزم بالبقاء فى بلدة تدعى (الكلخة) بين الطائف وتربة عدة أيام لتأخر الشريف راجح فى احضار الجمال التى كلفه الباشا باحضارها للحملة

ولما علم طوسون باشا ان المؤن كادت ان تنفد أمر بالسفر نحو مدينة تربة وهى لا تبعد عن الكلخة الا مسافة أربعة أيام ولكنه أبطأ بهم راجح فى الطريق حتى نفدت ذخيرتنا اضطر للرجوع خوفا من موت عساكره جوعا فعند ذلك انضم الشريف راجح الى عساكر الوهابيين لانه كان متفقا معهم على خيانة المصريين والايقاع بهم فلما تقهقر المصريون عاد مع الوهابيين للهجوم عليهم فقابلهم طوسون باشا وصدهم وفى أثناء ذلك وردله المدد والمؤن فعاد بالكرة الى تربة ولم يتمكن من قصدها بل رجع ثانيا الى الكلخة ومنها الى الطائف وكتب الى والده بمكة يخبره بانه تقهقر بسبب خيانة العرب ورئيسهم الشريف راجح وانه التزم باحراق الخيم التى كانت معهم وكثير من لوازم العسكر حتى لا تقع فى أيدى العدو

ولقد أرسل محمد على باشا فرقة أخرى على طريق البحر لاحتلال مدينة (قنفذه) فرضة

اقليم العسير تحت قيادة المدعو زعيم أوغلي فاحتلها بدون معارضة ثم تركها عند مهاجمة العرب له وتفصيل ذلك على ماجاء في الجبرتي أن المصريين طلعوا عليها وملكوها بدون ممانع ولا مدافع وليس بها غير أهلها وهم أناس ضعاف فقتلوهم وقطعوا آذانهم وأرسلوها الى مصر ليرسلوها الى اسلامبول فعندما علم العرب ويقال لهم عرب العسير بمجيء المصريين تركوها وتنازلوا عنها ولهم رئيس يسمى طامي فلما استقر بها المصريون ومضى عليهم بها نحو ثمانية أيام رجعوا عليهم وأحاطوا بهم ومنعوهم الماء فعند ذلك ركبوا عليهم وحاربوهم فانهزموا وقتل الكثير منهم ولم ينج الا مجوسبعة أشخاص وزعيم أوغلي فنزلوا في سفينة وهربوا فغضب الباشا لانه كان أرسل لهم نجدة من الخيالة تحاربتهم العرب ورجعوا منهزمين من ناحية البر اهـ

لكن لم تؤثر هذه الهزيمة على عزيمة محمد علي باشا بل أمر عابدين بيك بالسفر مع فرقته لاحتلال اقليم زهران منعا للتعدي الحاصل من أهاليه على القوافل ولعدم اجتماع قوات اليمن مع جنود الوهابيين فاحتلها بعد محاربة عنيفة استمرت ثلاثة أيام متوالية وبعد قليل أتى الى العدو المدد من الدرعية التي هي قاعدة الوهابيين ومن بلاد اليمن ولمعرفة العرب بالطرق ومفاوز الجبال لم يتمكن عابدين بيك من محاربتهم محاربة أصولية بل صاروا يكمنون له في المضايق ويمنعون جنوده من أخذ العلف لخيولهم من المراعي المجاورة لهم ولهذا هلك خلق كثير من جنود المصريين حتى اضطر آخر الامر عابدين بيك للتقهقر الى الكلخه ولم يلبث بها الا قليلا لان الوهابيين ألزموه بالرجوع الى الطائف حيث كان طوسون باشا مقيما وحاصره الوهابيون فيها

فلما أرسل لوالده نجدة ليعلمه بما هو فيه من الضيق قام في الحال مع قليل من الجند قاصدا مدينة الطائف لفك الحصار عنها وطرد الوهابيين ولما وصل الى جبل يقرب من الطائف أراد الاستراحة ولمضاء الليل وفي أثنائه قبض محافظوه على أعرابي آت من الطائف فأيقظوه فاستفهم منه عن قوة المحاصرين ولما علم منه ما كان يريده أعطاه مكافأة جزيلة ولم يعلمه بحقيقة أمره بل قال له انه قائد مقدمة عساكر المصريين وان محمد علي باشا قادم خلفه بجيش عرمرم لمحاربة الوهابيين ثم دفع اليه خطابا وكلفه بتوصيله الى طوسون باشا فشكره

الاعرابي

الاعرابي وأوصل الخطاب للمرسل اليه وكان فيه إخبار طوسون باشا بوجود الدهم بالقرب من المدينة وأمره بالخروج منها بكل قواه للاقاته

ففي أصيل اليوم التالي أطلقت المدافع من المدينة استبشارا بهذا المدد الغير المنتظر وخرج طوسون باشا وعابدين بيك من المدينة فظن الوهابيون أنهم سيكونون بين جيشين لما بلغهم من الاعرابي من قدوم محمد علي باشا وجيشه فولوا الادبار ولجؤا الى الفرار وبذلك نجح تدبير الباشا وخلص جيشه وابنه بدون قتال ولا حرب ولا نزال

وبعد أن تم النصر لمحمد علي باشا بدون إهراق دم عاد الى جدة ومكث فيها شهرين جهز في أثنائهما ما يلزم لتتميم فتح بلاد العرب وتخليصها من الوهابيين وأحضر من مصر ما يلزم من العساكر والذخائر وأرسل ولده طوسون باشا الى ثغر ينبع لجمع الجيش اللازم لاحتلال مضايق (الصفراء) وأمره أيضا باستعمال الرفق واللين مع العرب وبذل الهمة في كل ما يمكن استمالتهم به اليه فلما وصل طوسون باشا الى ينبع ابتدأ بطلب مشايخ القبائل فلبوا دعوته وحضروا بين يديه فأحسن وفادتهم وأجزل اليهم العطايا حتى خرجوا من عنده مسرورين ثم أرسل الى مشايخ قبيلة حرب النازلة بين ينبع ومضايق الصفراء وبعث لهم من عنده رهائن كي لا يخشوا المجيء اليه وطلب منهم مقابلته في مدينة بدر وزحف الى هذه النقطة بعدة فمين وأربعة آلاف عسكري من المشاة فلما وصلها وجدها خاوية على عروشها لا ترى بها صغيرا ولا كبيرا لان أهلها حينما علموا من قدوم المصريين هاجروا منها وتركوها كما علمت فكتب اليهم بالعودة وعمهم بنواله حتى استعملهم في نقل المؤن اليه من ينبع وكان يعطيهم على ذلك أجرة معينة وبعد قليل أتى اليه مشايخ حرب وتظلموا بين يديه من تعدي حاكم المدينة عليهم وقتله شيخهم الاكبر بغير حق فاعتذر لهم عما وقع من هذا القائد وأعلمهم بأن ذلك لم يكن بعلم والده وأنه لا بد أن ينيخه مذاق كل ظلوم جزاء على ما كان منه ثم أعطاهم من الخلع ما ينيف على ألفين وثلاثين كشميرا وصادف ذلك ورود الخبر بموت هذا الحاكم فأبهم عليهم الامر طوسون باشا وأخبرهم بأنه قتل باذن والده جزاء على ما أتاه جنده من القتل والنهب فانشرحت لذلك صدورهم واطمأنت خواطرهم ومما زاد في تعلقهم

بالحكومة المصرية تصدور أمر محمد على باشا بتعيين أحد مشايخهم المدعو غانم بن مدين حاكما على المدينة المنورة

وبعد ذلك قام طوسون باشا وجيشه لاحتلال مضايق الصفراء والجديدة ففاتحة لها بدون ممانع وأحدث قلاعا فى أولها وآخرها وحصنها بالمدافع وأودع فيها ما يلزم من أنواع الذخائر والمؤن ثم سافر قاصدا المدينة المنورة وكان ذلك فى أوائل شهر ذى الحجة سنة ١٢٢٩ فاقبل الحجاج من كل فج

وبعد أن أدّى محمد على باشا ومن معه فريضة الحج وعاد الحجاج الى أوطانهم شاكرين همته على ما أتاه من اقامة شعائر الحج واعادتها الى ما كانت عليه أرسل الباشا عددا عظيما من الجند الى مدينة الطائف للاستعداد لمحاربة الوهابيين لما رأى فيهم محمد على باشا من الضعف المبين بسبب موت زعيمهم سعود فى ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٢٢٩ الموافق (١٧ ابريل سنة ١٨١٤)

وكان الوهابيون قد تجمعوا زهاء عشرين ألفا بالقرب من مدينة تربة فهاجمتهم الجيوش المصرية ولم يكن النصر لاحد من الفريقين وفى صبيحة ذلك اليوم الموافق (١٠ يناير سنة ١٨١٥) وصل الى المعسكر محمد على باشا بنفسه ومعه بقية الجيش ووجه كل قواه أولا لمحاربة الجيش الآتى من جهة اليمن فهزمه ثم قهر الجيش الوهابى الذى تحت قيادة فيصل ابن سعود ولما لم يبق أمامه من يعوقه فى السير تقدم نحو مدينة تربة فاحتلها واحتل أيضا مدينتى بيشة ورنية وكان لانتصاره هذا وقع عظيم فى قلوب الوهابيين فانضم اليه كثير منهم ومن قوادهم وصار يقطعهم المدن والقرى ليزيد ارتباطهم به واطاعتهم له

ثم توجه الجيش الى بلاد العسير الواقعة فى جنوبى مكة وحارب جنود الامير طامى الذى حارب المصريين فى قنفذة على البحر الاحمر واضطر زعيم أو على الى اختلائها ثم صار القبض عليه بمساعدة حسن بن خالد قائد جيوش أمير تهامة وأرسل الى مصر ومنها الى اسلامبول حيث قتل

وذكر الجبرتى فى أخبار سنة ١٢٣٠ وصول الامير طامى الى مصر فقال وفى يوم الجمعة ثامن عشر شهر جمادى الاولى وصل طامى الى البركة والمحل اذ ذاك بها فخرجت جميع العساكر

في ليلة الاثنين الحادي والعشرين منه وساروا في صبيحتها طوائف وخلفهم المحمل وبعد مرورهم دخلوا بطاهي المذكور وهو راكب على هجين وفي رقبته الحديد والجنزير مربوط في عنق الهجين وصورته رجل شهم عظيم اللحية وهو لابس عباءة عبدانية وكان يقرأ وهو راكب وعملوا أيضاً شنكا وضربوا مدافع اه

وبعد أن استتب الأمن في جهة العسير وما جاورها عاد الجيش الى المدينة واستعد طوسون باشا اجابة لرغبة والده للزحف على بلاد نجد وقام من المدينة ووصل الى قرب مدينة الرس فأتى اليه مشايخها وطلبوا منه أن لا يحتل مدينتهم بشرط أن لا يصرحوا للوهابيين بالدخول اليها وان يقدموا لجيشه كل ما يلزمه من المؤن بالثمن الملائم فقبل ذلك منهم طوسون باشا رغبة في عدم تعريض جيشه للحرب وحفظا لامن فشله بدون ضرورة شديدة داعية الى ذلك ولا احتياج كلي ثم انتظر بالقرب من الرس ريثما تأتيه الجنود اللازمة للزحف على الدرعية عاصمة الوهابيين

وفي أثناء انتظاره الجنود دخل المدينة بقصد أداء فريضة الصلاة فدعاه أحد مشايخها لتناول القهوة عنده وكان (طوسون باشا) قد أمر أنه في ذلك الوقت تدخل العساكر وتحتل المدينة أثناء اشتغال الاهالي بالصلاة فقاموا بما أمروا به واحتلوا المدينة بهذه الحيلة بدون حرب فلما احتلوها أمر بهدم أسوارها حتى لا تعود صالحة لاقامة الوهابيين وبعد مناوشات خفيفة احتل طوسون باشا في خلالها أعدادا عظيمة من مدن نجد أرسل اليه عبد الله بن سعود الذي تولى بعد والده سعود على طائفة الوهابيين رسولا يدعى الشيخ أحمد الحنبلي يطلب الصلح والطاعة ويكون تحت طاعة أمير المؤمنين ومذعنا لجميع أوامره فجاوبه طوسون باشا بأنه لا يمكنه قبول ذلك منه الا بعد استشارة والده محمد علي باشا وأنه يمنحه هدنة مدة عشرين يوما حتى يخبر والده بذلك فقبل منه عبد الله بن سعود وبطلت كافة الحركات العدوانية وبقي كل جيش في مكانه ينتظر انتهاء الهدنة لاتمام الصلح أو استمرار القتال

وفي أثناء هذه الهدنة وصل الى طوسون باشا خطاب من والده يخبره فيه بأنه سافر الى مصر لاشياء ضرورية وأنه ترك له عددا عظيما من الجنود بين رجالة وركبان تحت قيادة خزنداره ويوصيه فيه بالاسراع في الزحف على الدرعية لاستئصال شأفة الوهابيين وراحة

العباد من مكايدهم وكان السبب فى رجوع محمد على باشا الى مصر على عجل هو علمه برجوع
نابوليون من منفاه الاول الى فرانسا وتحققه من طمع هذا الرجل فى احتلال مصر وجعلها
مستعمرة فرنساوية على طريق الهند الانكليزية لما بين الدولتين من العداوة الوراثية وكان
وصول عزيز مصر الى القاهرة على طريق القصير فقنا فمصر فى يوم ١٨ يونيه سنة ١٨١٥
(اليوم الذى انهزم فيه نابوليون فى واقعة وترلو) وقد ذكر الجبرتى وصول العزيز الى القاهرة
فى أخبار شهر رجب سنة ١٢٣٠ فقال وفى يوم الاربعا سادسه وصلت هجانة من ناحية
قبلى وأخبروا بوصول الباشا الى القصير فخلع عليهم كتخدا بيك كساوى ولم يأمر بعمل شنك
ولا ضرب مدافع حتى يتحقق صحة الخبر وفى يوم الجمعة ثامنه قبل العصر ضربت مدافع
كثيرة من القلعة والجيزة وذلك عندما ثبت وتحقق وصول الباشا الى قناوقوص وفى ليلة
الجمعة خامس عشره وصل الباشا الى الجيزة ليلا فأقام بها الى آخر الليل ثم حضر الى داره
فى الازبكية اهـ

هذا ولما وصل الى طوسون باشا جواب أبيه أرسل الى الخزندار يستقدمه وجيشه الى مدينة
الرس قبل انتهاء الهدنة فأتى اليها بسرعة وبعد مشاورات طويلة مع رؤساء الجيوش
المصرية والقبائل المحابة قبل طوسون باشا الصلح بشروط أهمها ان الجيوش المصرية
تحتل الدرعية وأن عبدالله بن سعود يرد كل ما أخذ من الحجرة النبوية من الجوهرات وغيرها
وخصوصا الكوكب الدرى الذى زنته مائة وثلاثة وأربعون قيراطا من الالماس وأن يكون
تحت أمره حتى اذا طلب منه السفر الى أى جهة كانت يكون مطيعا لذلك وان يؤدى
لطوسون باشا رهائن من أقاربه الى صدور تصديق محمد على باشا على هذه المعاهدة
فلاح من عبدالله بن سعود امتناع من انفاذ هذه المعاهدة خصوصا ما طلب منه أن يسافر
الى اسلامبول كى يبرئ نفسه مما نسب اليه من الخروج عن حد الديانة المحمدية فكتب اليه
العزيز محمد على باشا ما مضمونه انه اذا لم يعمل بمقتضى الشروط التى عقدها على نفسه يبعث
اليه عسكرا جرارا يخرب بلاده فلم يرد اليه من الوهابيين الا محاولات تفيد عدم الامتثال
فجهز الباشا عليهم تجريدة جديدة تحت قيادة ابنه البكرى ابراهيم باشا
ولنذكر ما حدث بالقاهرة من تمرد لطيف باشا على ولى نعمته ومؤنه شرميته وعصيان الجند

على محمد على باشا قبل أن نأتى على تفصيل ما حصل بين ابراهيم باشا والوهابيين من الحروب فنقول

(تمرد لطيف باشا) انه حصل بالقاهرة أثناء تغيب العزيز بالاقطار الحجازية أمر مهم لولم يتداركه الكيخيا بعزم وهمة لكان من ورائه تقويض سلطة محمد على باشا وزوال ملكه نريد بذلك تمرد لطيف باشا وطلبه ولاية مصر واختلاسها من عزيزها الذى لم يصل اليها الا بركوب الاهوال والاخطار واضاعة الدرهم والدينار وبيان ذلك أنه لما أعاد طوسون باشا الامن الى طريق الحجاج واستخلص المدينة المنورة من أيدى الوهابيين أرسل محمد على باشا لطيف باشا المذكور الى القسطنطينية لابلاغ هذا الخبر الى الدولة العلية فاستقبل هنالك بغاية الترحيب والاجلال نظرا لمقام مرسله ولاهمية مأموريته فلما عاد الى مصر داخله الكبر وظن أنه لو اغتصب الولاية من محمد على باشا رعاية وذلك فى أعين ولاة الامر فى اسلامبول فأخذ فى جمع الجند حول داره واجزال العطايا للكشاف ورؤساء الجند من أرنؤد ودلاة فلما رأى الكيخيا ذلك داخله الخوف وخاف سوء المنقلب وأراد أن يخلص البلاد من شره قبل تفاقم أمره فجمع ديوانا بالقلعة وأرسل اليه يستدعيه فأبى الحضور لعلمه بالمكيدة ثم أرسل اليه الكيخيا يطلب منه اما الاطاعة أو الخروج من القاهرة فقبل الخروج لكن وجد الجند من الارنؤد متربصين له فى الطرق الموصلة الى داره فناوشهم واستمر اطلاق البنادق بين الطرفين الى نصف الليل بل وبعده ولما رأى لطيف باشا ان العسكر أحدقت بمنزله وهددته بالدخول فيه والقبض عليه اختفى فى مخبأة مع ست من الجوارى التركيات ومملوك مخلص له ولم يعلم محلها الا أحد خصيانه وبعد قليل دخل الجند داره وفتشوها ولما لم يقفوا له على أثر نهبوها وسبوا نساءه وسراريه وبحثوا عنه أيضا فى الدور المجاورة لها ثم اكتفوا بحفظ الطرقات وفى مساء ذلك اليوم خرج لطيف باشا من المخبأة وتسلق الاسطحة حتى وصل الى دار خزندار ه واختفى هنالك فنى اليوم التالى أخبر الخصى بالمخبأة التى بالبيت ففتحوها ولم يجدوا بها الا الجوارى والمملوك فأخذوا يقررونهم عنه وأين ذهب ولكن لم يجد ذلك شيأ ثم خطر ببال لطيف باشا أن يذهب من

بيت خزنداره الى أحد البيوت المجاورة ومن السطح ليهرب وينجو بنفسه الا أنه لسوء حظه ودنو أجله رآه أحد الجند المعينين فوق الاسطحة لمنعه من الهرب فلما رآه أسرع بالصياح على اخوانه وعند ذلك أطلق فيه لطيف باشا رصاصة قتلته فاجتمع الجند وأحاطوا به وقبضوا عليه وسجنوه في بيت محمود بيك الدويدار حتى اذا أصبح اليوم التالى عقدوا ديوانا للحكم عليه بالقلعة حضره أكابر الحكومة واعيانها وحكموا عليه بالقتل ثم أرسلوا من يستحضره فجاء مع محمود بيك الدويدار الى القلعة وهناك قبض عليه وضرب عنقه وعلقت رأسه على باب زويلة طول نهاره وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٢١ من ذى الحجة سنة ١٢٢٨ (٨ نوفمبر سنة ١٨١٣) ﴿ اما لطيف باشا المذكور فكان جرجى الاصل ومملوكا لعارف بيك ابن خليل باشا الذى كان قاضيا بمصر أهداه الى العزيز فاختاره لما تفرس فيه النجابة وقربه اليه ورقاه الى رتبة الخزنة أغاسى أى صاحب المفتاح وصارله حرمة زائدة وكلمة عند الباشا

(**عصيان الجند بالقاهرة**) وأما ما حصل بمصر غير تلك الحادثة من الامور المهمة فهو عصيان الجند وتمردهم على العزيز بعد عودته من الاقطار الحجازية وذلك أنه لما عاد الى مصر في يونيو سنة ١٨١٥ شرع في ترتيب عسكر على النظام الاوروبي لتزداد بذلك قوتهم لكن لم يوافقه على ذلك قواد جنوده فقضى مدة في اقناعهم بدون ثمرة ولما رأى منهم عدم موافقته على مشروعه عزم على تنفيذه رغم أنفهم وابتدأ بالفعل في تمرين الفرقة التى هى تحت قيادة ولده اسماعيل بيك في يوم ١٢ أغسطس سنة ١٨١٥ وأعلن بأن كل من لم يقبل هذا النظام الجديد سواء كان من الانفار أو من البيكوات يجرد ويطرد من مصر فتحزب الجند واتفقوا مع قوادهم على الغدر بالباشا واتفق في هذا الوقت ان عابدين بيك أولم وليمة في ليلة الجمعة ٢٨ شعبان سنة ١٢٣٠ احتفالا بقدوم العزيز محمد على باشا من بلاد الحجاز سالما فاجتمع بداره جماعة من أكابر الجند وفيهم محو بيك وعبد الله أغا صارى جله وحسن أغا الارنجلى فتكلموا في هذا الشأن واتفقوا على الهجوم عليه في داره بالازبكية عند طلوع الفجر ولما استشعر عابدين بيك بما يقصدونه من الخيانة بالوالى خرج خفية من داره مسرعا الى الباشا فخبره بما اتفق عليه أعداؤه ثم عاد الى

أصحابه

أصحابه بدون أن يعلم أحد بخروجه وهنالك ركب الباشا الاورنؤوجه الى القلعة مستصحبا معه عساكر طاهر باشا وغيرهم ممن يثق بهم وترك عددا عظيما من الجند يحرسون منزله بالازبكية ولما علم المتآمرون أن الباشا وقف على حقيقة حالهم وجلية أمرهم لم ينثنوا عن مقصدهم بل قصدوا منزله بالازبكية لنهبه فمنعهم من كان به من الجند وتراموا بالرصاص ولم يتمكنوا من شئ ثم ساروا الى القلعة واجتمعوا بالرميلة ولما لم يجدوا الهجوم عليها سبيلا لتسلط أفواه المدافع عليهم انتشروا في البلد للسلب والنهب لينضم اليهم من خالفهم في الرأى وتقوى شوكتهم بذلك فيعودوا الى القلعة بقوة عظيمة فنهبوا الغورية والسكرية والحمزاوى والاخان الخليلى فانه لم يردهم عن نهبه الاقوة شادقمن به من ترك وأرنؤود وكذلك دافع المغاربة عن الفحامين والشوايين والكعكيين واستمر النهب ساعات وكان ذلك في يوم جمعة ولم تصل فيه لشدة ما كان

وفي وقت المساء استدعى الباشا السيد محمد المحروقى وأمره بتحرير قوائم مشتملة على مانهب من التجار ليدفعه لهم فحررت القوائم وظهر أن ماخص الغورية مائة وثمانون كيسا والسكرية سبعون والحمزاوى ثلاثة آلاف فصرفها الباشا لاربابها بعد تنزيل شئ يسير وبعد أداء اليمين الشرعية على ماسلب منهم فبذلك اطمأن الناس واستبشروا بانتشار العدل وانقضاء أيام الظلم ثم أخذ الباشا يستميل قلوب الجند ووزع النقود والعلائف عليهم وترك مشروع تدريبهم على النظام الاوربى حيث أدى الى ماحصل منتظرا فرصة أخرى وبعد انقضاء عيد الفطر نزل الباشا من القلعة وهدأ خاطر الاهالى وأراح بالهم وشرح صدورهم وزار يوسف باشا المعزول من ولاية دمشق واجتمع مع العلماء والاعيان ووعدهم بأن يريح العباد من عود الجند الى مثل ذلك

(رجوع طوسون باشا الى مصر) ولما بلغ طوسون باشا خبر ثورة العسكر بالقاهرة ونهبهم لها سافر من المدينة الى ينبع ومنها الى جبل الطور فالسويس بحرا وكان وصوله اليها في غاية شهر ذى القعدة سنة ١٢٣٠ وجاء في الجبرتى أنه في يوم الاثنين رابع شهر ذى الحجة سنة ١٢٣٠ (٧ نوفمبر سنة ١٨١٥) نودى بزينة الشارع الاعظم لدخول طوسون باشا سرورا بقدومه فلما أصبح يوم الثلاثاء خامسه احتفل الناس بزينة الحوانيت بالشارع

وعملواله موكبا حافلا ودخل من باب النصر وعلى رأسه الطيلسان وشعار الوزارة وطلع الى القلعة وضربوا فى ذلك اليوم مدافع كثيرة وشنكا وحرائق وفى ليلة الجمعة الخامس عشر سافر طوسون باشا الى الاسكندرية ليرى أباه ويسلم عليه وليرى أيضا ولداله ولد فى غيبته يدعى عباس بيك أخذته جدته مع حاضنته الى الاسكندرية وسنه دون سنتين وفى يوم السبت العشرين منه حضر طوسون باشا الى مصر راجعا من الاسكندرية

(حبس المعلم غالى) ولخلو الخزينة من النقود وعدم وجود موسرين بالبلد يؤخذ منهم ما يحتاج اليه على سبيل القرضة أو غيرها وتأخير المعلم غالى باش محاسبجى فى ستة آلاف كيس أصدر الباشا أمره الى كيخيابك بطلب هذا المبلغ أو حبسه حتى يفيه فطلبه الكيخيا فاعتذر بأن هذا المبلغ متأخر على الاهالى وأنه ساع فى تحصيله وطلب مهلة قليلة فلم يقبل منه الكيخيا وأمر بحبسه وحبس أخيه المسمى فرنسيس وخزنداره المدعو سمعان ثم وشى به عند الكيخيا طائفة من الاقباط وعرفوه بأنه اذا حوسب يظهر عليه ثلاثون ألف كيس فاشترط عليهم الكيخيا انه ان لم يظهر على المعلم غالى هذا المبلغ يكونوا ملزمين بالباقى فقبلوا هذا الشرط وهم المعلم جرجس الطويل ومنقريوس البتنونى وحنا الطويل ولما أبطأ المعلم غالى فى دفع ما طلب منه أمر الكيخيا بضرب أخيه أمامه وبضربه هو أيضا وضرب خزنداره ثم أفرج عن أخيه وخزنداره ليسعيا فى تحصيل المطلوب أما سمعان فمات على اثر الضرب لانه ضرب ألف كرباج وأما فرنسيس أخو المعلم غالى فسعى فى أداء المطلوب ببيع ما يملكونه من منقول وعقار ثم توسط له لدى الباشا المسيو (بوزارى) طبيبه الخاص فقبل منه الباشا ذلك وأمر باخلاء سبيل المعلم غالى بشرط أن يدفع أربعة عشر ألف كيس وألزم معارضيه جرجس الطويل ومنقريوس البتنونى بدفع أربعة آلاف كيس

ولقد رأى بعد ذلك محمد على باشا أن يخرج الجند من القاهرة منعا لما يحصل منهم من الشغب والهياج فأمر ولده طوسون باشا بالخروج الى جهة فوة (1) مع عساكر الدولاتو وعابدين بيك

---

(1) فى الخطط الجديدة لسعادة على باشا مبارك أن فوة بضم الفاء وتشديد الواو بلدة بالقرب من الاسكندرية واقعة على الشاطئ الشرقى لفرع رشيد وفى شمال دسوق على بعد ساعتين واشتهرت فى أيام العزيز محمد على باشا بالمعمل الذى أقامه فيها لعمل الطربوش فكان طربوشها يشبه فى الجودة الطربوش المغربى أو يقاربه وكان يتحصل من ذلك كل شهر مائة وأربعة وعشرون ألف طربوش وكان الصوف يجلب اليها فى الغالب من بلاد الافرنج وقد بطل ذلك الآن ويبلغ عدد سكان هذه البلدة ثمانية آلاف وكسورا كلهم من المسلمين وأطيانها ثلاثة آلاف وستمائة وواحد وثلاثون فدانا يزرع بها الارز والقطن وباقى المزروعات المعتادة وكان اسمها عند قدماء المصريين متيلين وكانت على البحر المالح ثم بعد عنها البحر بسبب رسوب الطمى حتى صار بينها وبينه تسعة فراسخ تقريبا

الى

الى جهة المنصورة فمع عساكر الارنؤد ولم يبق بالقاهرة الاحاشية الباشا وأتباع خواصه وعساكر الشرطة

(عزل الشيخ الدواخلي) وفى أوائل شهر ربيع الاول سنة ١٢٣١ فى يوم مولد النبى عليه الصلاة والسلام طلب الباشا المشايخ فحضروا ولما استقر بهم المجلس أظهر الباشا رغبته فى عزل الشيخ الدواخلى نقيب الاشراف من منصبه واستشارهم فى تولية خلفه فأقر الجميع على تعيين الشيخ البكرى بحضوره فألبسه الخلعة وانصرفوا وفى اليوم الثانى صدر أمر من الباشا بنفى الشيخ الدواخلى الى دسوق فسافر فى الحال الى منفاه وطلب الباشا من المشايخ أن يحرروا محضرا يبينون فيه أسباب عزله ليرسله الى نقيب الاشراف فى اسلامبول الذى من خصائصه عزل وتولية نقباء الاشراف بولايات الدولة العلية فحرر المشايخ ذلك المحضر ونسبوا اليه فيه أشياء كثيرة منها أنه تطاول على حسين أفندى شيخ رواق الترك وسبه وحبسه من غير جرم ومنها أنه تطاول على السيد منصور اليافى لفتوى أفتاها مستندا على قول ضعيف ومنها أنه يعارض القاضى فى أحكامه وذكروا أسبابا أخر غير ذلك لم يكن فيها السبب الحقيقى فى عزل الباشا له وهو فى الحقيقة انتقاده على أحكام الباشا على مرأى ومسمع من المقربين اليه

(سفر ابراهيم باشا الى الحجاز) ثم نرجع الى الكلام على الحملة التى كان جاريا تجهيزها للحجاز بقالوها بين تحت امرة ابراهيم باشا فنقول ان محمد على باشا لما عزم على معاقبة الوهابيين لعدم قيامهم بما تعهدوا به أمر بجمع ما يلزم من المراكب بساحل بولاق لنقل المؤنة والذخائر الى مدينة قنا لتنقل منها على ظهور الجمال الى ثغر القصير ثم الى ثغر ينبع من طريق البحر الاحمر فلما صار تجهيز كل ما لازم لسفر الحملة سافر ابراهيم باشا من بولاق فى يوم ١٢ شوال سنة ١٢٣١ (٣ سبتمبر سنة ١٨١٦) فوصل ينبع فى ٩ ذى القعدة سنة ١٢٣١ (٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦) ثم سار قاصدا المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فوصلها بعد عشرة أيام وفى اليوم الرابع من عيد الاضحى قام ابراهيم باشا وعسكره من المدينة وأقام فى مدينة تدعى الصويدرة واقعة على مسافة متساوية بين فرضتى جدة وينبع وجعلها مركزا لاعماله لقربها من هاتين الفرضتين ثم أخذ

في جمع ما يلزم من الجمال للزحف على بلاد نجد لكنه لم يجد مساعدة من العرب المجاورة لها الذين اتحدوا مع الوهابيين على محاربة المصريين وشرعوا في مناوشة القوافل بين الصويدرة والمدينة الحجرية فأرسل ابراهيم باشا لمحاربتهم ألفي جندي من مشاة وفرسان فقابلوهم على بعد يومين وهزموهم شر هزيمة .

فلما لم يروا من الوهابيين أقل مساعدة أتوا الى معسكر المصريين وأذعنوا بالطاعة لرئيسهم وتعهدوا باحضار كل ما يطلب منهم من جمال وغيرها ثم قام ابراهيم باشا من الصويدرة قاصدا مدينة تدعى الحناكية وسار منها الى مدينة الرس فحاصرها وفي أثناء ذلك جمع عبد الله ابن سعود جميع ما عنده من القوة والرجال فكانت زهاء أربعين ألفا من فرسان العرب ومجربيها في الحروب ومن سوء سياسة عبد الله بن سعود أن استجلب كراهة القبائل لمحاربته اياهم واضطهادهم خصوصا عرب حرب النازلين بين المدينة المنورة والحناكية فزرع العداوة معهم وكان قريبا منهم الامير أوزون على الاورفه لى الكردى قائد مقدمة جيوش ابراهيم باشا ومعه نحو مائة وخمسين من فرسان الاكراد المشهورين بالهجوم فلما تقدم عبد الله بن سعود نحو مقدمة المصريين هجم عليه أوزون على بعسكره القليل العدد الكثير القوة وزحف بخيله في وسط عسكر عبد الله بن سعود ولحقه عرب حرب مساعدين له لما ذاقوه من الوهابيين من النهب والسلب ونزل رصاص الاكراد على عرب ابن سعود مثل المطر ودهموهم مثل القضاء المبرم لحسن سلاحهم فسالفتيل بندقية من جرابها ويولع الفتيلة يكون قد أصابه خمس رصاصات على الاقل فما مضت برهة من الزمن الا وقد انكسرت مقدمة عساكر عبد الله بن سعود ورجع القهقرى ومن هذه الواقعة عرف ابراهيم باشا أن لا صبر ولا جلد للوهابيين أمام الرصاص والنار بل هم رجال يحاربون بالرماح والسيوف على الطرز القديم ومعهم بنادق بالفتيل لا تفيدهم شيأ أمام بنادق المصريين ومدافعهم

وبعد هذه الوقعة تحصن عبد الله بن سعود داخل مدينة عنيزة ـ اما ابراهيم باشا فحاصر مدينة الرس وكان قد احتلها الوهابيون بعد عودة طوسون باشا الى مصر وأقام حولها الاستحكامات القوية وعززها بالمدافع وابتدأ في اطلاقها على سور المدينة بدون أن يسلم

العدو

العدو ولما تحيل صبر ابراهيم باشا من الانتظار بعد أن استمر اطلاق القنابل على المدينة ستة أيام متوالية أمر بالهجوم عليها ليلا فهجمت المشاة ومنعت الخيالة الاهالى من الخروج لكن لم تنجح العساكر المصرية فى هذه الدفعة والتزمت بالرجوع بعد استمرار القتال أربع ساعات

وبعد أن استمر الحصار ثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما بدون فائدة تصالح مع أهل المدينة على انه يرفع الحصار عن مدينتهم بشروط أهمها أن لا يدخل المدينة أحد من جنوده وأن لا يقدم لهم الاهالى شيأ من المؤنة وأنه اذا استولت الجيوش المصرية على مدينة عنيزة تسلم اليه مدينة الرس بدون قتال وان لم ينجح أمامها تستأنف المحاربة ثانية

ثم قام ابراهيم باشا بجيشه قاصدا مدينة عنيزة فصادف فى طريقه بلدة تدعى (الخَبْرَاء) فدخلها بعد أن دهمها بدافعه عدة ساعات وبعد أن أراح جيشه أحد عشر يوما سافر الى (عنيزة) فوصلها وبعد أن حاصرها ستة أيام سلمها له حاكمها المدعو محمد بن حسن بشرط أن يجوز لعساكر الوهابية الذهاب الى أى جهة أرادوا ويتركوا فى البلد كافة مالديهم من الاسلحة والذخائر فقبل ذلك ابراهيم باشا ودخل المدينة وأرسل فرقة لاحتلال مدينة الرس كما تقدم لك

ثم انه ارتحل من عنيزة ونزل ببلدة تدعى (بُرَيْدَة) ودخلها بعد قتال قليل وكان صاحبها يقال له (حُجَيْلان) بضم الحاء وفتح الجيم فنفاه الباشا الى المدينة حيث توفى بعد أيام قلائل ومنها ذهب ابراهيم باشا لمحاصرة بلدة تدعى (الشَّقْرَاء) فوصلها فى يوم ١٣ يناير سنة ١٨١٣ الموافق أوائل شهر ربيع أول سنة ١٢٣٣ وابتدأ فى محاصرتها بدون امهال وأقام حولها بطاريات المدافع واستمر فى اطلاقها حتى طلب الاهالى التسليم واشترط من بها من جنودالوهابيين أنهم بعد أن يسلموا سلاحهم الى ابراهيم باشا يباح لهم الذهاب الى أى جهة ساروا فقبل منهم ذلك وقيده بأن يتعهد هؤلاء الجند بأن لا يحملوا السلاح مرة أخرى فى وجه المصريين وأنهم لو خالفوا هذا الشرط عوقبوا بالقتل وعقب هذا الاتفاق فتح الاهالى أبواب المدينة ودخلها بطل مصر ابراهيم باشا فى ٢٢ يناير سنة ١٨١٨ الموافق ١٤ ربيع أول سنة ١٢٣٣ ثم ترك بالمدينة الحامية الكافية وذهب لفتح (الدرعيّة) عاصمة

الوهابيين وكانوا يسمونها دار الهجرة وكان كلما مرّ على قرية ودخلها لا يتعرض لاهلها بسوء ويمنع عساكره من التعرض لهم ويكتفي بطاعتهم له

لكنه لم يتوجه توا الى مدينة الدرعيّة بل عرّج على مدينة يقال لها (درمة) لما بلغه من وجود كثير من المؤن بها وعدد عظيم من الخيول فوصلها وأحرق جزأ كبيرا منها بالمدافع حتى تحصن حاكمها وأتباعه في قصره ولما لم يرغب ابراهيم باشا في هدم قصره بالمدافع خوفا من اتلاف ما به من الاشياء الثمينة والخيول العربية المطهمة قبل أن يخرج الحاكم من البلد بشرط أن لا يأخذ شيأ معه مما في القصر فسر الحاكم بذلك ونجا بنفسه

(فتح الدرعية وتسليم عبد الله بن سعود) ثم توجه ابراهيم باشا بجيشه الى ناحية الدرعية فوصل أمامها في تسع وعشرين خلت من شهر جمادى الاولى سنة ١٢٣٣ الموافق ٦ ابريل سنة ١٨١٨ وكان جيشه مؤلفا من خمسة آلاف جندي من المشاة والفرسان واثنى عشر مدفعا ولما لم يكن هذا العدد كافيا لحصار المدينة بأجمعها لاتساعها أشار على الباشا أحد أركان حربه الفرنساوي المدعو مسيو (فسير) بحصار القرى الاربع المحيطة بالمدينة الواحدة بعد الأخرى حتى اذا احتلها حاصر المدينة الاصلية بكل سهولة فاتبع ابراهيم باشا رأيه ومع ذلك استمر الحصار ستة أشهر ولا حاجة لذكر تفاصيله ولما رأى عبد الله بن سعود بسقوط ثلاث قرى من ضواحي المدينة في أيدي ابراهيم باشا وأنه لا بد من التسليم عاجلا أو آجلا مال للتسليم وأرسل الى ابراهيم باشا في يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ يطلب منه ايقاف القتال ريثما يتم بينهما الاتفاق فأوقفه وأتى عبد الله بن سعود الى معسكر ابراهيم باشا فأكرمه وبعد محادثة طويلة تم بينهما الاتفاق على أن تسلم الدرعيّة الى الباشا وتهدم بعد مهاجرة الوهابيين وأقاربه وأن يسافر عبد الله بن سعود الى القسطنطينية كما هي رغبة السلطان فلبى اجابته وتوجه الى داره ليتأهب للسفر الى مصر ومنها الى القسطنطينية

ولما بلغ محمد علي باشا خبر انتصار نجله على الوهابيين وتبديده اياهم ودخوله عاصمتهم أطلقت المدافع من القلعة وذكر الجبرتي في أخبار سنة ١٢٣٣ انه في سابع شهر ذي الحجة

الحرام

الحرام ووردت بشائر من الحجاز برسالة من عثمان أغا الوردانى أمير ينبع بأن ابراهيم باشا استولى على الدرعية فسر الباشا بهذا الخبر سرورا عظيما وانجلى عنه الضجر والقلق وأنعم على المبشر وعند ذلك ضربت مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبولاق والازبكية وانتشر المبشرون على بيوت الاعيان لاخذ البقاشيش وفى ثانى عشره وردت مكاتبات بذلك من ابراهيم باشا نفسه فأكثروا من ضرب المدافع من كل جهة واستمر الضرب من العصر الى المغرب بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع وصدرت الاوامر بتزيين المدينة ثلاثة أيام متوالية وفى كل يوم يطوف المنادى ويكرر المناداة بالشوارع على الناس بالسهر والوقود والزينة وعدم غلق الابواب ليلا ونهارا اه ملخصا

(وصول عبد الله بن سعود الى القاهرة) ثم تم السرور وكمل الحبور بوصول عبد الله بن سعود الى القاهرة وكان وصوله اليها فى يوم الاثنين سابع عشر محرم سنة ١٢٣٤ الموافق ١٧ نوفبر سنة ١٨١٨ فدخل من باب النصر ومعه عبد الله بكاش قبطان السويس وهو راكب على هجين وأمامه طائفة من الدولاة فذهبوا به الى بيت اسماعيل باشا ابن الباشا فأقام يومه وذهبوا به فى صبيحة اليوم الثانى الى عزيز مصر بسراى شبرا فلما دخل عليه قام اجلالا له وقابله بالبشاشة وأجلسه بجانبه وحادثه فى أمر الحرب فقال له الوهابى ان الحرب سجال قال له وكيف رأيت ابراهيم باشا قال شجاعا مقداما بذل همته وقد دافعنا عن ديارنا دفاع الابطال حتى كان ماقدره الله فوعده الباشا بالسعى لدى الباب العالى ليعفو عنه فانصرف الوهابى وعاد لمنزل اسماعيل باشا ثم سافر الى القسطنطينية فى يوم الاربعاء التاسع عشر من شهر محرم سنة ١٢٣٤ الموافق ١٩ نوفبر سنة ١٨١٨ وقتل عند وصوله للقسطنطينية

أما الجوهرات التى أخذها الوهابيون من الحجرة النبوية حين دخلوا المدينة المنورة سنة ١٢٢٠ فردها عبد الله بن سعود الى ابراهيم باشا ومنها الحجر الالماس المسمى بالكوكب الدرى فأعاده الباشا الى محله وأما مانقص منها فادعى الوهابى أنها بيعت وصرف ثمنها فى الحروب ووزع جانب منها على رؤساء القبائل فبددوها

(موت طوسون باشا) ومما حصل فى أثناء هذه الحروب من الامور المهمة التى

ينبغى ذكرها موت المرحوم طوسون باشانجل الباشا توفى فى برنبال أمام مدينة رشيد فى ليلة الاحد سابع ذى القعدة سنة ١٢٣٢ الموافق ٦ يوليه سنة ١٨١٦ عقب مرض أتاه فجأة ولم يمهله الاعشر ساعات فغسل وكفن ووضع فى صندوق خشب وسير به من طريق النيل الى القاهرة هذا ولم يتجاسر أحد باخبار والده ولبس الكل سربال الحيرة وصاروا فى حيرة من تبليغ هذا الخبر المشؤم الى والده فدخل عليه كتخدا بيك آخذا فى البكاء والانتحاب فعلم الباشا حقيقة الامر وحزن لفقده حزنا شديدا ثم أمر باعداد الجنازة حسب العادة فجهزت وسير بها الى الامام الشافعى وواروه التراب فى المقبرة التى أعدها الباشا لنفسه ولعائلته وسار والده خلف نعشه ينظر اليه ويبكى

وتوفى طوسون باشا رحمه الله الجميع وهو فى مقتبل الشباب ولم يبلغ عمره الاعشرين سنة وكان أبيض ذا جسم عظيم بطلا شجاعا جوادا له ميل للمصريين قائما باوامر الديانة الاسلامية تخشاه العسكر وتهابه مع المحبة الزائدة له لانه كان يكافئ ذا العمل الصالح بالبر والاحسان وذا العمل السيئ بالذل والهوان اقتداء بقوله عزوجل ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها وقلما يوجد مثل هذا الشهم المستد الرأى الذكى الفطرة وعلى فراقه يحق للعيون أن تدمع وللقلوب أن تجزع وللاحشاء أن تميز ولا تكاد أن تحترق

ولما انتهى الحرب وانتشر لواء الامن فى جميع الجهات الحجازية وتجدد عاد الامير ابراهيم باشا الى مصر من طريق القصير فقنا فالنيل الى القاهرة فوصلها فى يوم الخميس ٢١ صفر سنة ١٢٣٥ وهاك ماذكره الجبرتى فى قدومه

قال وعند وصول ابراهيم باشا نودى بزينة المدينة سبعة أيام بلياليها فشرع الناس فى تزيين الحوانيت والدور والخانات بما أمكنهم وقدروا عليه من الملونات والمقصبات وأما جهات النصارى وحاراتهم وخاناتهم فانهم أبدعوا فى عمل تصوير مجسمات وتماثيل وأشكال غريبة ولما أصبح يوم الجمعة دخل ابراهيم باشا فى موكب حافل من باب النصر وشق المدينة وعلى رأسه الطيلسان السليمى من شعار الوزارة وقد أرخى لحيته بالحجاز وحضر والده الى جامع الغورية بقصد التفرج على موكب ابنه وطلع بالموكب الى القلعة ثم رجع سائرا بالهيئة الكاملة الى جهة مصر القديمة ومر على جسر من مراكب أقيم على النيل

بين مصر القديمة وجزيرة الروضة وذهب الى قصره واستمرت الزينة والوقود والسهر ليلا وعمل الحراقات وضرب المدافع فى كل وقت من القلعة ومغان وملاعب فى مجامع الناس سبعة أيام بلياليها فى مصر الجديدة والقديمة وبولاق وجميع الاخطاط اهـ

وبعد ذلك أخذ محمد على باشا فى اصلاح أحوال المصريين زراعية وصناعية وعلمية وغيرها واستدعى لهذه البغية كثيرا من الافرنج وكذلك شرع فى ترتيب الجيش على النظام الجديد وبينما هو يفتكر فى المسائل المؤدية الى هذه البغية إذ قدم الى مصر رجل فرنساوى يدعى (سيف) من ضباط الجيش الفرنساوى فاستخدمه لهذا الغرض ولما كان لهذا الرجل شأن عظيم فى كافة الحروب التى حصلت فى بلاد اليونان والشام أردنا أن نأتى بترجمته وكيفية مجيئه الى مصر قبل الشروع فى تفصيل هذه الحروب وما نشأ عنها من تداخل الدول الاوروبية

(ترجمة سليمان باشا الفرنساوى)

ولد هذا القائد الشهير فى ٢٦ يوليه سنة ١٧٥٤ وكان أبوه مزارعا مقيما بضواحى مدينة (ليون) (١) من أعمال فرنسا واسمه (انسلم سيفوس) وشب بين أهله حتى بلغ سن المراهقة فلم يرض بصنعة أبيه فتركه وذهب الى رجل كان يصنع البرانيط ليتعلم منه ومكث عنده حتى برع فى هذه الصناعة ثم سافر الى مدينة (ليون) واتخذ فيها حانوتا يعمل به البرانيط واشتهر صيته بذلك خصوصا فى الجهات المجاورة لها وصار كل من لم يستعمل برانيطه لا يعد فى ذوى الذوق والكياسة فاتسعت ثروته اتساعا عظيما حتى طمح نظره الى

(١) ليون هى مدينة من أعمال فرنسا واقعة على ملتقى نهرى السون والرون أسست سنة ٤١ قبل المسيح تقريبا فى زمن الدولة الرومانية واتسعت عمارتها فى أيام الامبراطور أوغسطوس وخلفائه ثم اتسعت تجارتها الاهمية موقعها لكن اضمحل حالها حين أغارت عليها الامم المتبربرة التى قوضت أركان الدولة الرومانية فى الجيل الرابع للمسيح لكن ما لبثت أن عاد اليها مجدها الاثيل ورونقها القديم ولم تزل فى تقدم وارتقاء الى يومنا هذا ويبلغ عدد سكانها نصف مليون تقريبا وهى أهم مدينة بفرنسا بعد باريس وقد اشتهرت بصناعة الحرير والاتجار به الا أن تلك الصناعة قد قلت من يوم سابقتها المانيا والسويسرة فى حلبة هذا المضمار وقد نبغ منها عدد عظيم من علماء فرنسا مثل (انبير) العالم الذى ساعد كثيرا على اكتشاف التلغراف الكهربائى والمسيو (جكا) مخترع آلة النسج وغيرهما

المعالى فاشتغل بصناعة الآلات وازدادت ثروته وتزوج فى سنة ١٧٨٦ بابنة أحد الطحانين وكانت فقيرة لا تقدر على دفع مهرها كما هى عادة الافرنج ولم يكن لها الا شبابها وعفافها وجمالها فساعدته مساعدة عظيمة فى اشغاله الكثيرة وصارت تفرح لفرحه وتحزن لحزنه شأن الزوجة الصالحة التى تشارك زوجها فى السراء والضراء وكانت ولود فلم تأت عليه سنة ١٧٩١ الا وكان له منها خمسة أولاد ثانيهم المترجم واسمه (يوسف) نسبة لشبينة الذى حضره وقت العماد وكانت ولادته فى ١٧ مايو سنة ١٧٨٨

وفى اثناء هذه المدة ابتدأت الثورة الفرنساوية الشهيرة فى الظهور وكان من دأب حكام ذلك الوقت قتل الاشراف وهدم قصورهم خصوصا المشيدة البنيان القوية الاركان التى كانت تشبه القلاع لانهم كانوا يصطنعون اليتحصنوا فيها أحيانا عند شن الغارة عليهم كما كانت عادتهم فى تلك الاعصر وكان بجوار مدينة (ليون) شريف يدعى الماركيز (دى بارال) له قصر باذخ به قلعة فتظاهر بالدخول فى حزب الجمهورية خيفة من أن يضطهده الجمهوريون وشرع فى بيع قصره حتى لا يكون ثمة داع لاضطهاد الجمهوريين اياه فلما علم والد المترجم بنوايا المارکيز اشترك مع ثلاثة من الفلاحين واشتروا القصر مع قلعته بثمن بخس على شرط هدمه فقبل هدمه ثم شرع (النسل سيفوس) هو وشركاؤه فى بيع ما كان فيه من الامتعة الثمينة والاثاثات الفاخرة والاسلحة القديمة فربح من ذلك مبالغ جسيمة ثم ابتدأ فى هدم القصر حسب شروطه فساعده الحظ بقتل المارکيز الذى قتله الجمهوريون عند وقوفهم على حقيقة حاله وكنه خبره فتخلص بذلك (النسل سيفوس) من تنفيذ شرطه الذى ربما استغرق جل ما ربحه من بيع الاثاث

هذا وكان (يوسف سيف) المترجم حاذ الطبع شكس الاخلاق لا يقبل نصائح والديه ولا أوامرهم ولا يطيع الاهوى نفسه ولو كان فى ذلك ضرره فلما أراد والده أن يمرنه على أشغاله لم يجد منه الاذنا صما وكان يترك منزل والديه ويرتع فى الفلوات مع الصبيان وحين كان يعود الى والده وقد رأى منه عدم الهداية والامتثال يذيقه أنواع الاذى كالضرب المؤلم والشتم الفظيع فحين يرى ذلك من أبيه يرجع ثانيا الى ما كان عليه وهلم جرا ولما يئس والده من اصلاح أخلاقه وتقويم ما اعوج من طباعه أدخله المدرسة الحربية فى

أواخرسنة ١٧٩٩ الموافق(٢ فانديرسنة ٧) (١) من التاريخ الجمهورى
وكان عمره اذذاك احدى عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام

فلم تهذب طباعه صعوبة أحكام القانون البحرى ولذلك لم يرتق فى الرتب بل بقى فى درجة
صف ضابط مع انه كان متصفا بالشجاعة وسكون الجاش عند الخطر فحضر واقعة (ترافلجار)
سنة ١٨٠٥ ولم يبلغ من العمر وقتئذ الاسبع عشرة سنة وهو فى رتبة صف ضابط فى
الآلاى الثانى من الطوبجية البحرية ولم ترعه مخاوف هذه الواقعة الهائلة التى انتصر
فيها الاميرال (نلسون) (٢) الانكليزى على دونمات فرنساواسبانيامعا وجرح فى ذراعه
الايمن جرحا غير ذى بال ولما شفى منه توجه مع الدونمة الفرنساوية الى جزائر (أسور)
وجزائر (كناريا) وبقى مدة سنتين فى السفن الطرادة عن شواطئ افريقيا الغربية وأوروبا
ومع ذلك لم تؤثر هذه الصعوبات الشاقة فى طباعه بل استمر على ما كان عليه من عدم طاعة
رؤسائه والاذعان لاوامرهم حتى غضب عليه فى يوم من الايام أحد الضباط ورفع عصاه
ليضربه فأخذها منه وطفق يضرب بذلك الضابط بها حتى كسرها فوضعت لذلك فيه
الاغلال وسجن الى أن يحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص كما هو حكم القانون العسكرى
ولكن لم ينفذ هذا الحكم عليه لان أحد رؤساء الجيوش وكان قد اخلصه المترجم من الموت

(١) لما استولت الاحزاب المتطرفة على أزمة الحكومة الفرنساوية سنة ١٧٩٢ أرادت هدم أركان الهيئة القديمة برمتها وممّا غيرته التاريخ المسيحى واستعاضته بتاريخ جديد ابتداؤه يوم ٢٢ سبتمبر سنه ١٧٩٢ وغيرت أيضا أسماء الاشهر باسماء توافق حالة الفصل من حر أو برد أو هواء أو مطر أو ثلج الى غير ذلك وجعلت الشهر ثلاثين يوما ينقسم الى ثلاثة أعشار (ديكاد) وجعلت خمسة أيام أو ستة نسيئا فى آخر السنه

(٢) ولد هذا الاميرال الشهير سنة ١٧٥٨ ودخل البحرية ولم يبلغ من العمر الا اثنتى عشرة سنة وامتاز بين أقرانه وتقدم بسرعة حتى عين وكيل أميرال سنة ١٧٩٧ وفى ١٧٩٨ حاول الاستيلاء على جزيرة (تنريف) احدى مجمع جزائر (كناريا) التابعة لاسبانيا فلم ينجح ولما سافر بونابرت وجيشه من تولون فى مايو سنة ١٧٩٨ بقصد فتح مصر تبعه (نلسون) بعمارته فلم يلحق مراكبه الا بعد أن نزلت الجنود الى البر فأحرقها فى فرضة أبى قير فى ٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ وبعد عدة مواقع غير مهمة تقابل مع عمارتى فرنسا واسبانيا بالقرب من رأس (ترافلجار) قريبا من بوغاز جبل طارق وانتصر عليهما وأغرق عددا عظيما من مراكبهما وقتل نلسون فى هذه الواقعه (٢١ اكتوبر سنة ١٨٠٥) ثم نقلت جثته الى مدينة لندن حيث احتفل بتشييع جنازته احتفالا عظيما ودفن فى كنيسة وستمنستر المخصصة لدفن ملوك انكلترا ومشاهير رجالها

فى احدى الوقائع سعى فى حصول العفو عنه من الامبراطور نابوليون الاول فلم ينجح سعيه فى العفو عنه فتحيل له فى خروجه من السجن وأرسله الى أحد أصدقائه وكان أمير ألاى من الفرنساويين الموجودين اذ ذاك فى ايطاليا فقيد له فى ألايه بصفة نفر عسكرى وذلك فى ٢ مايو سنة ١٨٠٧ وغير اسمه من ذلك العهد (بالسم سيف) على اسم والدته لئلا يعرف ولم يزل هذا القائد مساعدا له حتى حصل على رتبة أونباشى بعد أن دخل الجيش بثلاثين يوما أعنى فى ٢ يونيه سنة ١٨٠٧ ولم يتعرض أحد لهذه الترقية لانه كان محبوبا عند هذا الجيش للطفه وحسن أخلاقه فى نظرهم وشجاعته لاسيما فى استعمال كافة أنواع الاسلحة وقوته كانت تغرس مهابته فى قلوب أقرانه

ولم يزل فى رتبته التى أعطيها برتبة ها الابتدائية وذلك أنه فى ابريل سنة ١٨٠٩ كان الالاى الفرنساوى السادس الذى فيه المترجم معسكرا فى شمال مدينة (مينيخ) (١) وفى ١٥ ابريل من هذه السنة أرسل قائد هذا الالاى أربعة من الجند منهم (السلم سيف) للاستكشاف تحت امرة أحد الضباط فتوغلوا فى البر حتى وقعوا فى كمين من الاعداء كان يتربص فى هذه الجهة فرصة فأحاط به الاعداء احاطة الهالة بالقمر فسقط فى أسرهم وقد أصيب بثلاثة جراح وطلق نارى بعد أن قتل حصانه تحته فحرم لذلك من حضور الوقائع المهمة التى انتصر فيها نابوليون على النمساوية نصرا مبينا وسيق مع الاسرى الى بلاد (هنكاريا) حيث ضمدت جراحه ولم يمض عليه زمن طويل حتى نقه ولما بلغ تمام الشفاء دخل فى خدمة أحد أمراء المجر فكان يعامله كصاحب مخلص لا كعدو وأوقعه الحرب فى ربقة الاسر ولذلك لم تمكن من الرجوع الى فرنسا الا بعد أن أقام سنتين أسيرا ولما عاد اليها لحق بألايه وكان معسكرا فى مدينة (فيزول) من أعمال فرنسا وترقى الى رتبة چاويش مكافأة له على ما قاساه من عناء الحرب وشدة الاسر وكان ذلك فى ١٦ يوليو

(١) مينيخ وتسمى بالالمانية (منشن) أجمل بلاد الالمانيا وهى تخت مملكة (بافاريا) الداخلة ضمن امبراطورية المانيا أسست سنة ٩٦٢ ميلادية وتشتهر بعمل البيرا وبها مبان عمومية فى غاية الانتظام وكثير من المدارس ومما يستحق الذكر دار كتبها التى تحتوى على نيف وأربعمائة ألف نسخة من الكتب المطبوعة وعشرة آلاف نسخة من كتب خط اليد ويبلغ عدد سكانها ٢٧٠ ألف نسمة

سنة ١٨١١ ثم سافر ألآيه الى بلاد (هانوفر) بالمانيا فى نوفبر سنة ١٨١١ وانتظم فى سلك الجيش المعد للهجوم على روسيا وكان مؤلفا من ستمائة ألف مقاتل ما بين فرنساويين وألمانيين وايطاليانيين وغيرهم من كافة ممالك أوروبا الخاضعة لفرنسا فعبر نهر (نيمن) فى ٢٤ يونيه سنة ١٨١٢ ونهر (دنيبر) فى شهر أغسطس التالى وكانت الجيوش الروسية تنسحب متقهقرة أمام الجيوش الفرنساوية بدون قتال كأنهم لا يريدون المدافعة عن وطنهم وما كانت هذا القهقرى الا حيلة أرادوا بها أن يطمعوا الفرنساويين فى الدخول الى داخل السهول الروسية ثم يقطعون عنهم خط الرجعة بلا تعب ولا نصب ولقد نجحت هذه الحيلة وتوغل نابوليون فى البلاد الروسية حتى وصل مدينة (موسكو) ودخلها عنوة بعد وقعة (موسكووا) التى كانت سببا لتقليد اسم (الماريشال نى) (١) فى التواريخ فى ٧ سبتمبر سنة ١٨١٢ لكن آلى الروس على أنفسهم أن لا يسلموا المدينة للفرنساويين الا بعد أن يحرقوها ولم يتيسر للفرنساويين حينئذ المكث مدة الشتاء داخل هذه المدينة ولما لم يكن فى البلاد المجاورة لها ما يكفى مؤنة هذا الجيش الجرار لاسيما وان الروس أحرقوا كافة مزروعاتهم وكانت المسافة بين موسكو والبلاد التابعة لفرنسا شاسعة ولم يتيسر لهم الاتيان بالمؤن والذخيرة منها عزم نابوليون على الرحيل من الروسيا والرجوع الى فرانسا فهلك السواد الاعظم من جيشه إما من شدة البرد أو من هجمات عساكر القوزاق عليهم ولم يعد الى فرانسا الا أقل من النصف وكانت هذه الوقعة أول أفول نجم نابوليون وفاتحة انكساره حتى لم يقم له بعدها قائمة وقد رقى المترجم أيضا الى

(١) ولد هذا الماريشال سنة ١٧٦٩ بقرية صغيرة ضمت الى املاك بروسيا سنة ١٨١٥ وكان أبوه صانع براميل وتطوع فى جيش فرنسا سنة ١٧٨٧ على حين لم يبلغ سنه ١٨ سنة وشهد أشهر الوقائع الحربية التى حصلت بين فرنسا ودول أوروبا فى أواخر القرن الثامن عشر وترقى الى رتبة لواء (جنرال دى بريجاد) سنة ١٧٩٦ والى رتبة فريق فى سنة ١٧٩٩ وذلك حين لم يبلغ من العمر الا ثلاثين سنة وانتصر على الالمانيين فى واقعة الشنجن سنة ١٨٠٧ وعلى الروس فى واقعة موسكووا سنة ١٨١٢ ولذلك لقبه الامبراطور نابوليون بلقب دوك دى الشنجن وبرنس دى لاموسكووا ولما استقال نابوليون أول مرة وتولى لويز الثامن عشر منحه لقب (بير دى فرانس) الا أنه انضم الى نابليون عند عوده من جزيرة ألب ولذلك حوكم فى مجلس عسكرى بعد انخذال الامبراطور فى واقعة ونرلو (١٨ يونيه سنة ١٨١٥) وحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص ونفذ عليه الحكم فى ٨ دسمبر سنة ١٨١٥

رتبة باشجاويش بعد عودته من الروسيا ثم الى رتبة ملازم ثانى فى ٥ يونيه سنة ١٨١٣ بعد أن اشتهر فى وقعة (بوزن) فى ١٢ فبراير سنة ١٨١٣ واستحق الثناء من رؤسائه وطعن فى هذه الوقعة برمح طعنة كادت تكون القاضية ولقد اشتهر (سيف) بين أقرانه بالشجاعة والنخوة وثبات الجأش فكان لا يرهب رئيس ولا أميرولا الامبراطور نفسه لانه كان سالكا فى طريق الواجب المطلوب منه لا يخشى لومة لائم ويحكى عنه حادثة غريبة تدل على قوة بأسه و زيادة طيشه وذلك انه بعد وقعة (بوزن) فى ٢١ مايو سنة ١٨١٣ كتب اسمه فى قائمة من استحقوا نيشان الشرف (١) (ليجيون دونور) فناداه الامبراطور أمام الصفوف ليقلده النيشان بيده تشريفا له على أقرانه فلما حضر أمامه ناوله النيشان مع بخاله على طيشه وعدم انقياده لاوامر رؤسائه فاحمر وجهه وقفل راجعا الى مركزه بدون أن يستلم النيشان فغضب الامبراطور لذلك وقال لولا ما اشتهر به (سيف) من الشجاعة لبطشت به ولكنى عفوت عنه وكفاه بعدم اعطائه هذا النيشان جزاء

ثم امتاز أيضا عن أقرانه حين دخل جيش الدول المتحدة الى أراضى فرانسا فى أوائل سنة ١٨١٤ بعدة أمور تدل على شجاعته وقوة جنانه وانه لا يتأخر عن اقتحام الخطوب للدفاع عن وطنه شأن كل رجل حركته المحبة لمسقط رأسه واستفزته النخوة الوطنية وذلك أن قائد آلايه لما بلغه أن بعض عساكر وضباط القوزاق الروسيين محتلون قرية لا تبعد عن الموقع المعسكر هو فيه الا ثلاثة فراسخ أراد أن يستطلع حقيقة هذا الخبر وطلب ان أحد الضباط يعرض نفسه لهذا الاستكشاف فلم يجب طلبه الا (سيف) فاستصحب معه بعض الفرسان وهجم على نقطة العدو وقتل بعضهم وأسر الباقى فاستحق بذلك رضا رؤسائه ومحبتهم ومدحهم له على ما شوهد منه وامتازبه بينهم حتى ان قائد هذه الفرقة هنأه على شجاعته أمام بقية الجيش ورقى (سيف) بذلك الى رتبة ملازم أول فى ١٣ مارث سنة ١٨١٤ ونقل الى الآلاى الرابع عشر وكلف بحمل بيرقه ولكن لم يلبث أن تبدل فرحه ترحا

---

(١) هو نيشان اسسه بونابرت فى ١٩ مايو سنة ١٨٠٢ حين كان قنصلا أولا قبل ان يصير امبراطورا و يلقب بنابوليون الاول ولقد طرأت على هذا النيشان عدة تغيرات تبعا لتغير الحكومات لكن لم يبطل بالكلية لتعلق الاهالى به لانه يذكرهم بانتصارات تهم العديدة على أوروبا

وسروره حزنا بانتصار جيوش أوروبا على العساكر الفرنساوية ودخولهم مدينة باريس واجبارهم نابوليون على الاستقالة ونفيهم اياه لاول مرة فى جزيرة (إلبه) وسافر نابوليون فى ٢٠ ابريل سنة ١٨١٤ مودعا عساكره فى حوش قصر (فونتنبلو) وأعقب سفره دخول لويز الثامن عشر مدينة باريس التى لم يتمكن من الدخول اليها الا بمساعدة الاجانب له

فانتهى الحرب بذلك وأفاقت الاهالى من هم الحروب وما يتبعهما من الكروب مع ان الفرنساويين كانوا يؤثرون استمرار القتال ولو كان فيه فناؤهم عن آخرهم أولى من وطأة الاجنبى أرضهم ولكن للدهر حالات وللوقت ضرورات توجب الوطنى لتحمل وجود الاجنبى فى بلاده بصفة حاكم أو مالك معللا نفسه بالحصول على الاستقلال السياسى قريبا كان ذلك أو بعيدا

هذا ولم يرض (سيف) ان يبقى فى خدمة حكومة تعضدها العساكر الاجنبية لغاية فى النفس لا لخير تعود ثمرته على بلاده كما كان يظن أحزاب لويز الثامن عشر فرجع الى بلده (ليون) حيث كان أبوه وأقاربه مقيمين فكانوا يجتمعون به ويسلون أنفسهم عن هذه المصيبة بتذكر مجد فرنسا وما نالته من الفتوحات فى زمن هذا الرجل الذى تحدث بذكره الركبان وخشى بأسه القاصى والدان حتى وافاهم خبر رجوع نابوليون من منفاه ونزوله الى البر فى خليج (جوان) بالقرب من مدينة (كان) فى أول مارث سنة ١٨١٥ أى بعد تنازله عن أريكة الامبراطورية بعشرة أشهر

ولما شاع خبر عودته تجمع ضباط جيوشه المظفرة وطفقوا يحثون الاهالى على حكومة لويز الثامن عشر ويذكرونهم بمجد نابوليون وانتصاره على جيوش أوروبا باسرها غير مرة ويقولون لهم انه لم ينهزم فعلا بل خانه بعض قواده الذين قابلوا نعمته بالكفران وخانوا وطنهم العزيز وساعدوا الاجانب على اذلال مواطنيهم طمعا فى الدنيا وحبا فى المال الذى سعوا فى اكتسابه بدون مراعاة شرف ولا ذمة ولا حرمة وطن

وكان (سيف) المترجم من أعظم نصراء نابوليون فى مدينة (ليون) فكان يدخل القهاوى والسيارات وكافة المجتمعات العمومية لتهييج الاهالى واثارتهم على الحكومة المعضدة من أعداء الوطن والامة ولم يكن ذلك منه طلبا لاقتناء الثروة والترقى الى الرتب العالية بل حبا منه فى استخلاص وطنه وتطهيره من احتلال الاجنبى فيه

ولم يكن مع نابوليون عند نزوله على شواطئ فرانسا الا تسعمائة رجل ومع كون جنوب فرانسا من حزب البوربون لم يخش نابليون من التوغل فى البلاد مع قلة حرسه لفرط شجاعته وقوة بأسه حتى قرب من مدينة (جرينوبل) احدى مدن فرانسا الحصينة فأرسل حاكمها عساكر الحامية لقتال نابليون وحاميته والاتيان به أسيرا الا أن الجنود لما رأته تذكرت مجدها الاثيل فلم تجسر على مطاردته بل انضمت اليه وصاحبته الى مدينة (جرينوبل) وكان دخوله فيها فى التاسع من شهر مارث

فلما رأت حكومة البوربون الاسراع فى تقدمه نحو مدينة (ليون) وظهر لها أن أغلب الضباط والقواد كارهون لها ومائلون الى نابليون أرسلت الى (ليون) الكونت (درتوا) أخا الملك ليقود حاميتها المؤلفة من خمسة عشر ألف عسكرى فاستعرضهم فى ١٠ منه ولما رأى على وجوههم علامات الميل لنابليون ويئس من مساعدتهم سافر من (ليون) فى صبيحة ١١ من الشهر وبعد سفره أعلن الجند بالانحياز لحزب الامبراطور فدخلها فى مساء اليوم نفسه ثم سافر منها فى اليوم الثالث عشر منه قاصدا باريس الزهراء ودخلها جهارا بين صفوف الاهالى والجند فى ٢٠ مارث بدون ان يصادف مايعوقه فى مروره من جنوب فرنسا الى شمالها

ولما عين الجنرال (بروشى) قائدا عاما للفرقة العسكرية فى مدينة (ليون) وضواحيها وسمع بما أتاه (سيف) من المساعدة لنابليون كافأه على ذلك بتعيينه ضمن أركان حربه ورقاه الى رتبة يوزباشى ولكنه لم يحظ بها لان الامبراطور لم يلبث الا قليلا وهزمته جيوش انكلترا وبروسيا المتحدة فى وقعة (وترلو) فى يوم ١٨ يونيه سنة ١٨١٥ وبعد هذه الواقعة

التى خلدت اسم (ولنجتون) (١) الانكليزى دخلت الجيوش باريس ولم يسع نابليون الا التسليم لبأسه من الظهور على أعدائه حيث لم يبق فى فرانسا جيوش مدربة فركب فى ١١ يوليو السفينة المسماة (بلوروفون) وقصد بلاد الانكليز ووضع نفسه تحت حمايتهم لكن خانه الدهر فسيق الى النفى فى جزيرة (سانت هيلينه) الواقعة فى الاوقيانوس الاطلانطيقى فى المنطقة الحارة ومكث بها ست سنوات الى أن قضى نحبه فى ٥ مايو سنة ١٨٢١

هذا وبعد دخول البوربون فى فرنسا عقب هذه الواقعة أمر (لويس) الثامن عشر بتشكيل مجلس حربى لمحاكمة القواد والضباط الذين انضموا الى نابوليون حين أرسلوا لمحاربته والقبض عليه فأقيمت الدعوى الحربية على تسعة عشر جنرالا ومارشالا وكان من ضمن هؤلاء وفى مقدمتهم المارشال (نى) الملقب ببرنس مسكوا نسبة الى البلدة التى انتصر فيها نابليون على الجيوش الروسية وكان هذا النصر بسبب المارشال لما أظهره من الشجاعة والمعرفة فى فنون الحرب

وسبب محاكمته انه لما كان نابليون عائدا من منفاه الاول أرسلته حكومة البوربون لمحاربته وأخذه أسيرا فسافر معترفا لها بذلك لكنه لما تقابل معه تذكر نعمته ومصاحبته له فى سائر

(١) ولد الدوك دى ولنجتون سنة ١٧٦٨ فى احدى مدائن ارلاندا من عائلة حديثة الشرف وتعلم الفنون الحربية فى مدرسة (انجير) من أعمال فرنسا ثم دخل الجيش الانكليزى برتبة ملازم ثانى سنة ١٧٨٧ ثم أرسل الى الهند مع شقيقه اللورد ولسلى الذى عين حكمدارا عاما لها سنة ١٧٩٦ واشتهر فى عدة وقائع حربية ثم عاد الى انكلترا سنة ١٨٠٥ وانتخب عضوا فى مجلس العموم وتعين سكرتيرا أولا لحكومة ارلاندا وفى سنة ١٨٠٨ عين قائدا للجيش الانكليزى الذى أرسل فى بلاد البرتغال لحمايتها فتمكن من اجلاء الفرنساويين عنها ثم اقتفى أثرهم فى اسبانيا حتى أكرههم على اجلائها بعد عدة وقعات أهمها وقعة (فتوريا) فى ٢١ يونيو سنة ١٨١٣ ولاجل هذا رقى الى رتبة مارشال الرفيعة وأعطى لقب دوك ثم اجتاز جبال (برنيه) وحاصر مدينة (تولوز) بفرنسا ولم يدخلها لمنعتها ثم توجه الى باريس حين دخلتها جيوش الدول أول مرة وعين تابعا عن انكلترا فى مؤتمر فيينا الذى عقد لتسوية حالة أوربا بعد سقوط نابوليون * ولما عاد نابوليون من منفاه فى شهر مارث سنة ١٨١٥ عين الدوك ولنجتون من قبل جميع الدول قائدا عاما لجيشها المحارب لنابليون فانتصر عليه فى وترلو يوم ١٨ يونيو سنة ١٨١٥ ثم اعتزل الاعمال العسكرية وعاش معتزلا ودخل فى وزارات روبرت بيل غير مرة وتوفى سنة ١٨٥١

الحروب ومشاركته اياه في غالب انتصاراته بل أشهرها وأمالته اليه عوامل المحبة التي كانت تجره نحوه من جهة وميل العساكر التي كانت تودّ الانضمام الى نابليون من جهة أخرى فانضم اليه بعسكره

ولما بلغه الخبر باصدار الامر بالقبض عليه لم يصدقه حيث انه معاهدة ٣ يوليو سنة ١٨١٥ أقرت بالامان لكافة الضباط الذين انحازوا الى نابليون ولم يجزم بأن حكومة متمدنة تقر على شيء ولم تنفذه فلذلك لم يبرح من بلده مع أن اخوانه وخلانه عرضوا عليه البراح وبذلوا له جميع ما يلزمه من المال والرجال للخروج من أرض فرنسا والالتجاء الى حكومة أخرى فلم يجبهم لذلك وبقي حتى قبض عليه في يوم ٥ أغسطس سنة ١٨١٥ وفي أثناء سفره محفورا بأنفار الشرطة الى مدينة باريز لايقاع الحكم عليه عرض عليه أيضا بعض أصحابه أن يأخذوه عنوة من الخفر ويهربوه من فرانسا فمنعته نفسه الأبية أن يأتي هذا الامر الذى ربما ينسب به الى الجبن والنذالة فلما وصل الى باريس وسجن بها ألف بعض الضباط عصبة قوية وكان المحرض عليها (سيف) وتشعبت فروعها في اكناف باريس قصد تخليص المارشال (ني) من القتل فلم يقبل ذلك وآثر الموت على الحياة مع الهرب فحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص ونفذ عليه الحكم في يوم ٧ دسمبر سنة ١٨١٥ فمات على شهامته وفرط شجاعته مأسوفا عليه من كل وطني الامن على بصرهم غشاوة

ومما يحسن ذكره هنا انه أثناء المرافعة والمدافعة قام أحد المحامين المكلفين بالمدافعة عنه وطلب عدم اختصاص المجالس الفرانساوية بمحاكمته لانه ليس فرانساويا لكون البلدة التي ولد فيها سلخت عن فرانسا وألحقت بالمانيا فقام عند ذلك المارشال (ني) وقال انى لم أزل فرنساويا واني أود الموت كذلك وأوثره على أن أعيش أجنبيا عن وطني الذى تربيت فيه واستظللت تحت سمائه ونلت الرتب العالية في الدفاع عنه

وبعد موت المارشال (ني) ضاق بسيف الحال ولم يكن عنده ما يسد به رمقه لانه أراد الدخول في عداد الجيش الذى ألف بعد حل الجيش الذى ساعد نابليون فلم يجد لذلك سبيلا ولم يقبل في مصالح الحكومة أيضا لتشيعه للامبراطور فاشتغل آخر الامر بالتجارة في الخيول والعربات فنجح فيها قليلا ولكن لم يكفه ربحه من ذلك لما كان متعودا عليه من كثرة النفقة

والميل

والميل للالادفتر كهاودخل فى احدى العزب مديرا وكان ذلك فى ١٠ ابريل سنة ١٨١٦
لكنه لم يرض بهذه الوظيفة لحقارتها بالنسبة لما كان فيه أولا من علو الرتبة والدرجة فعاد
الى تجارة الخيول ثانيا ولم يزل فى هذه المهنة حتى نفد ما كان عنده من المال وبلغ من حاله
انه لم يقدر على دفع أجرة منزله الذى كان يسكنه
ولما يئس من بلوغ الثروة التى كان يسعى دائما وراءها فى باريس باع ما بقى عنده من العربات
والخيول ورحل الى مدينة (ليون) وأقام عند عمه مدة مختفيا خشية من مطالبة غرمائه له
ومضايقتهم اياه فلما علموا بمكانه ذهبوا اليه وصاروا يطالبونه ويعنفونه ويهددونه بالمرافعة
أمام الحاكم حتى ضايقوه مضايقة شديدة حملته على المهاجرة الى بلاد ايطاليا وكان ذلك فى
أوائل سنة ١٨١٩ وأقام فى مدينة ميلان عميلا لاحد تجار مدينة ليون بشئ تافه هذا
وفى أثناء هذه المدة بلغه أن شاه العجم يريد أن يستخدم بعض الضباط الاوروباويين لتنظيم
جيوشه على الطراز الاوروبى الجديد فرغب فى ذلك ولكن رأى أنه لا يمكنه السفر الى مثل
هذه البلاد بدون توصية عظيمة فتحير فى أمره ثم أرسل خطابا الى الكونت (دى سيجور)
يطلب منه المساعدة فى هذه المسئلة فلم يمض الا أيام قلائل حتى ورد اليه من الكونت
خطاب يخبره فيه ان الاولى له العدول عن السفر الى العجم والتوجه الى مصر لوجود
كثيرين من الفرنساويين بها تسهل عليهم مساعدته وأرسل يوصى به الفرنساويين المقيمين
فى القطر المصرى ليقدموه الى محمد على باشا اذ كان آخذا وقتئذ فى عمل كل ما يعود على مصر
التى اختارها وطناله من الخير العميم والنفع الجزيل وكان يقبل كل من يساعده على انفاذ
مشروعاته من حيز الفكر الى حيز العمل من أى جنس كان غير مراع فى ذلك شيأ سوى مصلحة
البلاد المصرية فانه كان يستعمل الاجانب للوصول الى هذه الغايات ويستعين بهم كالا لات
لتقدم بلاده فى مدارج الكمال وتأسيس المدارس والمعامل والاسبتاليات وفتح الورش
وحفر الترع لتسهيل الرى وغير ذلك وكان من حسن ادارته أنه متى نشأ من المصريين
رجال أكفاء يقومون بما تقدم حتى القيام استغنى بهم عن الاجنبيين وولى مكانهم من
نبغ من المصريين

(**وصول سليمان باشا الى مصر**) وبمجرد وصول جوابات الكونت دى سيجور

اليه (وكان من ضمنها كتاب مخصوص لمحمد على باشا) قام من ساعته قاصدا ثغر الاسكندرية ومنه الى القاهرة ولما وصل اليها تقرب الى محمد على باشا بواسطة الفرنساويين المقيمين اذ ذاك بمصر وقدم اليه كتاب الكونت دى سيجور فقابله مقابلة خصوصية استفسر منه فى خلالها عن حقيقة أمره حتى وقف منه على سبب مجيئه الى مصر وبعد محاورة طويلة تفرس منه فى خلالها الشجاعة والشهامة والصداقة والولاء عرض عليه أن يستخدمه فقبل منشرح الصدر مستبشرا ببلوغ المأمول حيث نال مالم ينله فى فرانسا وايطاليا بعد السعى المديد والعناء الشديد فكانت عاقبة أمره خيرا وعند حسن الصبر كثيرا ما ينال الصابرون

وصادف مجيئه الى مصر انتصار الجيوش المصرية على الوهابيين كما تقدم فى موضعه ولا يخفى أن محمد على باشا وطد ملكه فى القطر المصرى بقصه بلاد العرب بناء على طلب الباب العالى صاحب السيادة فى هذه البلاد وكانت الصناعة والتجارة سالكتين سبيل التقدم والفلاح لاسيما بعد انشائه فوريقات فى سائر أكناف البلاد فضلا عن المعامل التى لم تزل آثارها باقية مشاهدة الى الآن مهملة فى زوايا النسيان وكانت القوة المصرية فى غاية الاستعداد ولم تنقص مصر فى ذلك الوقت شيأ الا جيشا منتظما على الطراز الاوربى الجديد وكان قد شرع فى ذلك مرارا قبل مجى سليمان باشا ولكن لم يتم مشروعه لمعارضة عساكر الترك والارنؤد له كما سبق ذكر ذلك فى موضعه ولكون السواد الاعظم من جيشه كان من كبارهم بعد أن قتل جميع رؤسائهم فى القلعة أول مارث سنة ١٨١١ لم يقو على اذلالهم وتنفيذ أغراضه بالرغم عنهم

ولما تم له النصر على الوهابيين ولم يكن ثمة احتياج الى مراعاة خاطرهم عزم على تنفيذ مشروعهم ولم يمانعوه ولم يعارضوه فى التنفيذ حيث قتل الكثير منهم فى بلاد العرب فاستخدم (سيف) ليكون هو المنفذ لهذا المشروع لما تفرسه فيه من الشجاعة والمثابرة على الاعمال التى لا يردها أعظم الموانع ولا أهول الوقائع مادية كانت أو أدبية ولكى لا يشعر احد بمقصوده أرسل (سيف) أولا الى جهات الحدود القبلية ليبحث عما يوجد هناك من معادن الفحم الحجرى بناء على اعلام بعض سكان تلك الجهات فتعجب (سيف) من هذا التعيين لكونه لم يكن له أدنى المام بمثل هذه المسائل العلمية لكن لم يتأخر عن الامتثال

لاوامر

لاوامر من أوقف نفسه لخدمته ظانا أن وراء هذا التعين أمورخفية لابدوأن تكشفها الحوادث والايام

فعاد من ساعته الى القاهرة ليتهيأ للسفر الى الحدود منشرح الصدر قرير العين لحسن المستقبل امامه ولكى يسهل عليه محمد باشا الامر والاجرا آت الادارية اللازمة لصرف مايلزمه من المال والميرة أرسل الاوامر الشديدة الى سائر الجهات باعطائه كل مايلزمه بدون احتياج الى الحصول على اذن خصوصى وبتجهيز كل طلباته بغاية السرعة حتى لايكون ثمة مانع من سفره ولما تم له تجهيز مايلزمه فى هذه الرحلة سافر من القاهرة فى شهر يوليو سنة ١٨١٩ فى احدى مراكب الحكومة الشراعية فوصل الى مدينة اسيوط بعد ثمانية أيام لمساعدة ريح الشمال له وعدم حدوث أنواء عاقته عن السير وكان معه فى هذه الرحلة أحد مأمورى الحكومة المصرية ليكون معيناله فى تنفيذ أوامره ومزيحا عنه مايعتريه فى سبيله من العقبات الشاقة هذا هو ظاهر مأموريته وفى باطن الامر انه يكون مراقبا عليه خشية من أن يكون مرسلا من قبل احدى الدول الاجنبية بمأمورية سرية لاكتشاف أمر ولبرى أيضا كفاءته ومقدرته على العمل وهل يمكن أن تحال عليه مهمة عظيمة كتشكيل الجيش المصرى وتدريبه على النمط الافرنكى ولم يعارض (سيف) فى استصحابه بل سر من ذلك عازما على الاستعانة به على معرفة طباع البلاد واطلاعه على أخلاق أهلها حتى لايحصل منه أدنى أمر مغاير لعوائدهم وأحوالهم الوطنية والدينية

ولم يزل سائرا حتى وصل الى أسوان حدود الحكومة المصرية وقتئذ بعد أن شاهد فى طريقه العجائب من آثار المصريين القدماء الموجودة على ضفتى النيل وبقايا مدينة طيبة التى كانت فى ذلك الوقت مطمح أنظار السائحين لقرب عهد أوروبا بمعرفتها فى اثر اعمال واكتشافات اللجنة الفرنساوية العلمية التى أتت مصر مع بونابرت قائد الجيوش الفرنساوية التى أغارت على هذه البلاد فى أوائل هذا القرن اذ كانت العلماء تؤم مصر من سائر أنحاء أوروبا لحل رموز الكتابة الهيروجليفية (لسان قدماء مصر) التى بقيت معماة حتى قيض

الله العالم الفرنساوى (شانبوليون) (١) فحل رموزها وفك عقودها وأزاح ظلماتها مع أن المصريين كانوا أحرى بذلك وأولى بما هنالك

فلما دخل أسوان واستراح من تعب أسفاره شرع فى البحث عن الفحم الحجرى الذى أرسل لاجله ولم يتأخر بسبب اعتقاده الجازم أنه لا يوجد فى مثل هذه الجبال الصوانية بل كان جل بغيته أن يؤدى مأموريته بالصداقة والامانة ولم يأل جهدا فى المرور على الحدود المصرية وما يكتنف أسوان من الجبال شرقا وغربا للبحث عن هذا المعدن الذى لا بد منه فى تقدم الصناعة فى مصر ولو كان البحث بدون فائدة ولا جدوى ثم سافر من أسوان الى مينا القصير الواقعة على البحر الاحمر مفتشا فى طريقه عما جاء للبحث عنه وقد أنهكت قواه هذه الرحلة الاخيرة لعدم تعوده على الاقامة فى البلاد الواقعة فى المنطقة الحارة حتى اعتراه المرض بسبب شدة الحرارة وثقل عليه حتى كادت روحه أن تزهق وتكون هذه الرحلة خاتمة أسفاره ولكن لقوة بنيته الاصلية أمكنه أن يقاوم المرض فاستراح اياما حتى رجعت اليه قواه وقفل راجعا الى أسوان

وفى أثناء هذه المدة أخذ الجيش المصرى فى العود الى مصر وذلك أن بطل مصر ابراهيم باشا بعد أن استأصل شأفة الوهابيين وأعاد الأمن الى طريق الحجاج أراد أن يريح عساكره من الاتعاب والاوصاب التى كابدوها أثناء هذه الحروب الهائلة التى استمرت عدة سنوات فترك مدافعه فى جدة وأرسل أوامره الى جزء من جيشه بالعودة الى مصر برا على طريق ساحل البحر الاحمر ثم سافر معه من بقى من جيشه من جدة بحرا الى القصير ومنها على طريق الصحراء

(١) ولد العالم الشهير المسيو شامبوليون سنة ١٧٩٠ وتعين مدرسا للتاريخ فى مدينة جرينوبل سنة ١٨٠٩. ومن وقتها خطر بباله حل رموز الكتابة المصرية القديمة فاشتغل بها وقدم نتيجة أعماله الى المجمع العلمى (اكاديمى) وفى سنة ١٨٢٨ و ٢٩ ساح ببلاد مصر لتتميم مشروعه وبعد عودته جعل عضوا فى الاكاديمى الفرنساوى وتوفى سنة ١٨٣١ وله كتاب يتعلق بمصر يتكلم فيه على الفراعنة وقدماء المصريين وتاريخهم وديانتهم ولسانهم وكتابتهم وألف أجرومية وقاموسا فى لسانهم القديم وقد جعل له أهل بلده تمثالا لبقاء ذكره وبعد موته تمم أخوه تأليفه وطبعها

الى قنا ثم ركب النيل من قنا قاصدا العاصمة وكان أمراء الصعيد ومأمورو الحكومة يتلونه أينما حل بالتبجيل والتعظيم مفتخرين بعوده منصورا على الفئة التى أعيت العساكر الشاهانية وما الفضل فى ذلك الا له ولعساكره المصرية التى كانت هذه النصرة مقدمة انتصاراتهم وفتوحاتهم كما سيأتى ان شاء الله

ثم وصل الى الجيزة فى ٩ دسمبر سنة ١٨١٩ وقابل والده فى سراى شبرا فى يوم ١١ فتلقاه فرحا به مسرورا ومفتخرا بما آتاه الله من الفوز والنصر على أعدائه بواسطة ابنه وبعد هذه المقابلة العائلية أمر محمد على باشا كما تقدم آنفا أن تزين العاصمة عدة أيام متوالية فلم يتأخر أحد من سكان البلد عن القيام بأداء الزينة الواجبة عليه احتفالا بهذا الشجاع الذى أعاد لمصر فخرها الاثيل وملأ الاصقاع بصيته وشهرته وشهرة الجيوش المصرية التى برهنت تحت امرته على أنهم قادرون على أن يدافعوا عن وطنهم مدافعة الاسود عن غاباتها لا بل ويفتحون ما جاورهم من البلاد اذا راعى رؤساؤهم الذمة والشرف وحب الوطن العزيز ولم يؤثروا المنفعة الخاصة على المنفعة العامة

ثم دخل شجاع مصر وفخرها الى العاصمة من باب النصر بموكب حافل اجتمع فيه كل من بالقاهرة من الاعيان والقواد يتقدمهم ابراهيم باشا تخفق فوق رأسه الاعلام التى اغتنمها من الوهابيين حتى وصل الى القلعة بين صفوف الاهالى وأصوات النساء التى كانت تملأ الآفاق برنينها استبشارا بقدومه موكبه الميمون وتعلو عليها أصوات المدافع التى كانت تطلق من القلعة أثناء مرور الموكب من شمال البلد الى جنوبها ولم يظهر محمد على باشا فى هذا الموكب ليكون الاستقبال لولده فقط بل توجه الى جامع السلطان الغورى يشاهد موكب ولده العزيز و يتمتع برؤيته محفوفا بأعيان البلدة وتجارها فيا لها من حفلة يعجز عن وصفها الواصفون وتقصر عن تسطيرها الاقلام ثم اشتهر بعد ذلك ابراهيم باشا وتحدثت بذكر أعماله الركبان وانما أعدنا ذكر الاحتفال برجوعه لان فى الاعادة ثمرة وافادة ولنرجع الى المترجم (سيف) فنقول انه عاد الى أسوان (١) وأخذ فى التفتيش عن الفحم الحجرى فعثر على بئر غاز أرشده اليها العرب القاطنون بين القصير وأسوان

(١) أسوان قال ياقوت فى معجمه بالضم ثم السكون ووجدت بخط أبى سعيد السكرى سوان بغير همزة اهـ

وكتب عنها تقريرا مبينا فيه فوائد استعمال القار فى الاستصباح بدل الشمع والزيت وأنه أيسر من غيره ثمنا ولو التزمت الحكومة باستخراجه لعاد عليها منه ربح عظيم فلما وصل الى أسوان لم يجد البيك الذى كان معينا لمصاحبته فانه رجع الى مصر لمقابلة ابراهيم باشا غير مفكر فيما عين لاجله وكذلك لم يجد فى البلدة أحدا من الاعيان فلما رأى أن الكل هرعوا الى العاصمة رجع هو أيضا ليقابل من اشتهر صيته فى الآفاق مؤملا انه ربما يجد عنده وظيفة أو مأمورية يظهر فيها معارفه العسكرية والحربية

(رجوع سيف الى القاهرة والابتداء فى تنظيم الجيش) لما عاد المترجم الى العاصمة قابله محمد باشا بالبشاشة والترحاب ولم يسأله عن مأموريته ولا عن نتيجتها بل قدمه الى ولده ابراهيم باشا وقال له انه ضابط من جيش فرنسا ويمكنه أن يثق به فى سائر أعماله ويستعين بمعارفه فى جميع مشروعاته فقابله ابراهيم باشا من الاكرام والاعتبار منزلا رحيبا وأسر بما كان فى عزمه وعزم والده من تشكيل جيش جديد مدرب على الحركات العسكرية والامور القانونية على وفق الطراز الاوروبى ليمكنه باستخدامه من اتمام ما يقصده من الغزوات والفتوحات وأن ذلك هو غاية مرغوبه ولولا معارضة العساكر الباشبوزق له والارنؤد لما كان فيهم من القوة لحصل ذلك المشروع ولكن الآن وقد ضعفت شوكتهم وقل عددهم فيمكنه تتميم هذا المشروع الجليل الفائدة الكثير العائدة لعجزهم اليوم عن المعارضة فى ذلك لاسيما مع وجود الجيش المنصور فى العاصمة بعدما اشتهر به من الاعمال فى بلاد العرب ثم شرعا فى تدبير وسن ما يلزم لذلك من القوانين والتنظيمات وبعد أن أتما كل ما يلزم ابتدآ فى تنفيذ هذا المشروع وعين (سيف) بوظيفة ضابط (آغا) معلم للجيش

وبمجرد أن شاع خبر تعيينه تذمر ضباط الباشبوزق وتآمروا على معاكسة هذا الاجنبى الذى أتى لتنظيم وتغيير ما تعودوا عليه من عدم النظام والاخلال بشؤون وظائفهم وسعوا فى القتل به للتخلص من أعماله التى يرون أنها تعود عليهم بالضرر على زعمهم غير ناظرين الا الى المصلحة الخصوصية التى يهدرون فى سبيلها كل منفعة عمومية ولولا عزم محمد على باشا ونجله وثباتهما على تنفيذ مشروعهما المفيد فائدة حسنة رغما أنف كل مقاوم ومعاند لنصروا فى مشروعهم السيئ

ولم يلبث المترجم أن أخذ فى تعليم العساكر حتى أتم تعليم فرقة واستعرضها فى ميدان الرميلة أمام القلعة بحضرة محمد على باشا وجميع أعيان البلد وكثير من المعارضين لهذا المشروع المعتقدين عدم نجاحه وانما أتوا بأنفسهم ليتحققوا نجاحه من عدمه * فلما رأوا أن المشروع قد أخذ فى النجاح صاروا من جهة ينفرون الاهالى منه ويفهمونهم أنه لو نجح هذا المشروع لكان سببا فى أخذ أولادهم ونفريبهم عن أوطانهم وتصير الخدمة العسكرية بتجبرية على كل شاب مصرى سواء كان حزارعا أو من أهل العاصمة ومن جهة أخرى يحرضون العلماء ويلقون فى أذهانهم كلاما يفهم منه الحث على عدم تنفيذ هذا المشروع ويلبسون عليهم الامر ويرونهم أن هذا المشروع عبارة عما يكون سببا لتداخل الاجانب فى مصر خصوصا فى الادارة العسكرية وأن ذلك مخالف للقرآن الشريف والشرع المنيف

فصار العلماء يلقون هذه الاوهام فى أذهان تلامذتهم وهم ينشرونها بين العامة فازداد بذلك الكلام فى هذه المسئلة ولكن لم يزعزع هياج العلماء والقواد وتذمرهم شيأ من أركان ثبات محمد على باشا لكنه توقيا مما عساه يقع عمد عقباه صار يحضر التمرينات بنفسه كل يوم هو وولده ابراهيم باشا وبقية أعضاء عائلته وحاشيته * ويحكى أن الامير ابراهيم باشا كى يكون قدوة للعسكر ويعودهم على تحمل مشاق النظام العسكرى والطاعة لرؤسائهم طاعة عمياء فى كل ما يؤمرون به انتظم فى سلك العساكر الذين كانوا يتعلمون فأخذ بندقية ووقف أمام الصف فلما رآه (سيف) أمام الصف وبخه على ذلك وقال له ان كنت تريد التعلم فاتبع أحكامه وقف فى آخر الصف مع أترابك فامتثل وهو كاره ليظهر بذلك التحمل للحاضرين معه من الجند ويعلمهم أن التحمل هو الطاعة وهى أول الواجبات المفروضة على الجندى وبدونها لا يستقيم نظام الجيش واستمر التعليم عدة أيام على هذا المنوال

وأما التذمر فكان آخذا فى الازدياد يوما عن يوم حتى خيف أن هذه الفتنة تسرى الى العسكر فانها لو وصلت اليهم لكانت الحاسمة والقاصمة لهذا المشروع فجمع محمد على باشا مجلسا خاصا للتروى والمشاورة فى اتخاذ الطرق المؤدية الى اتمام ميدون تشوش

ولاحصول فتنة تؤدى الى سفك الدماء فقر رأيهم على أن يرسل سيف وفرقته الى أسوان فى الصعيد ليتم تعليمهم هنالك وبعد ذلك ينظر فيما يكون اجراؤه وكانت تلك الفرقة مؤلفة من ثلاثمائة أو أربعمائة شاب من المماليك الخاصة بمحمد على باشا وكان جلهم من الجراكسة وما جاورهم ممن لم يعرفوا من النظامات العسكرية شيأ بل هم متعودون على الحروب بدون انتظام فى جبالهم الشامخة التى يكسو بعضها الثلوج الدائمة وكانوا احسان الصور أقوياء أجسام سريعى الحركات أخفاء مطيعين لاوامر سيدهم فى كل ما أمرهم به بدون أدنى معارضة وقد اختارهم محمد على باشا ليكونوا أول فرقة نظامية لما يعهده فيهم من الاستعداد والنباهة حتى اذا أتموا تعليمهم صاروا رؤساء ومعلمين لغيرهم ممن يراد انتظامه من أولاد المصريين

فسافر بهم سيف الى أسوان ليكون بعيدا عن العاصمة وعن دسائس المعارضين للنظام الجديد وعن غواية الغاوين وفساد المفسدين واشتغل بتعليمهم هنالك الحركات العسكرية على النمط الاوربى وما يلزمها ويتبعها من ركوب الخيل والضرب بالسيف الى غير ذلك وكان دائما يلقى فى نفوسهم حب هذه المهنة الشريفة ويذكر لهم ما حدث لنابليون وكيف ارتقى الى أن صار امبراطورا على فرنسا واستولى على أغلب عواصم أوربا وكيف أن سائر القواد الذين ساعدوه على ذلك كانوا من أولاد الفقراء وتقدموا بجدهم واجتهادهم وحصلوا على هذه الرتب العالية لينشطهم ويبث فى قلوبهم الحمية العسكرية والنخوة الحربية ليكونوا امثالا للعساكر الذين سيكونون تحت امرتهم فى المستقبل ولقد أثر كلامه هذا فى بعضهم ولم يؤثر فى البعض الآخر الذين كانوا يفضلون المعيشة ضمن الخدم على الاتعاب والتمرينات العسكرية غير ناظرين لما ينالون فى المستقبل فأبغضوه وتآمروا عليه وهموا بقتله تخلصا منه ظانين أنهم لو قتلوه ربما يرجع محمد على باشا عن عزمه ويردهم الى خدمته الخاصة فيقضون عمرهم بين أسافل الخدم وأدنيائهم لكن لحسن حظ المترجم أخبره أحد محبيه منهم بذلك فأسرّها فى نفسه الى صباح الغد حتى اذا كان معهم فى ميدان التمرين خاطبهم بما نمى اليه وقال لهم ان القتل غدرا وخيانة هو من أكبر الكبائر وأشنع الرذائل وأفظع القبائح الذى لا يقدم عليه أحد فى جيوش أوروبا بل اذا أهان أحد آخر استدعاه

للمبارزة (الدويلو) جهاراو يعرض حياته فى الدفاع عن شرفه ثم ختم كلامه بأن قال ان كنت أهنت أحدكم أوأسأت اليه عن غير قصد فليبارزنى اماقتلته أوقتلنى فبهتوا جميعا ولم يجسر أحدمنهم على مبارزته من هيبته وشدة فراسته وتعجبوا من قوة جنانه وثبات جأشه ولكن يزدهم كلامه هذا الا كراهة وبعضا فخنقوا عليه وعزموا على قتله متى سنحت الفرصة وبعد مضى عدة أيام بينماهو يمرنهم على اطلاق البنادق وضبط النيشان أراد أن يتحقق من نظامهم فركض جواده حتى وصل أمام العسكر وبعد اجراء جميع الحركات اللازمة لتعمير البنادق أمر باطلاقها على هدف كان قد أقامه ونصبه لهم وكان هذا الهدف حرتفعا عنه ببعض أقدام فبدلا عن اطلاق البنادق على الهدف صوبوها نحوه وأطلق الجميع بنادقهم قاصدين قتله لكن لطول أجله لم يصب بوا حدمنها فغضب لذلك غضبا شديدا وهجم عليهم بجواده ولم يهمهم بل طفق يضربهم بكرباج كان بيده على رؤسهم ووجوههم ويخالهم على عدم اتقان النيشان وبعد أن فرقهم فى كل جهة ودون أن يجسر أحد على معارضته أمرهم بالانتظام ووقف أمامهم راكبا جواده وبعد أن انتظم عقد اجتماعهم نادى عليهم باطلاق النار عليه فبهت الجند وبعد أن ترددوا رموا بنادقهم على الارض وأسرعوا نحوه يقبلون رجليه فى الركاب طالبين أن يعفو عنهم ويغفر ما كان منهم وأقسموا بان لا يعودوا لمثل ذلك بل يطيعونه اطاعة محضة فتبسم وصفح عن ذنوبهم بشرط أن يمتثلوا له فى كل ما يأمرهم به مما لا يخالف الذمة والشرف وقال لهم ان المستقبل هو لكم وانكم ستكونون رؤساء الجيش المصرى عن قريب فأثرت فيهم هذه الافعال والاقوال تأثيرا حسنا ولم يقع بعد منهم ما يخل بالنظام العسكرى حتى صاروا فى غاية الطاعة لرئيسهم

(دخول سيف فى الديانة الاسلامية) وبسبب هذه الحادثة اشتهر المترجم وذاع صيته حتى صار لا يجهله أحد فى القطر المصرى عموما وفى حاشية محمد على خصوصا وانتقل خبر ذلك الى أوروبا فنشرته الجرائد هنالك وصارت بحيث لا يتكلم الابها فى الاندية والمجتمعات العمومية وكانت هى باكورة أعماله ومن وقتئذ طلع نجم سعده فى أفق البلاد المصرية فى ظل حامى حماها ومعلى كلمتها المغفور له محمد على باشا لكن بقيت عقدة مانعة من وجود الاخلاص القلبى والولاء الصحيح بينه وبين عساكره وهى اختلاف الدين وهذا

أمر لم يفتكر فيه المترجم لعدم تدينه بدين دون آخر فكان في الحقيقة لادين له الاما يسمونه بالدين الطبيعي وهو الاعتقاد بالخالق والايمان به وبقدرته ونعيمه وعذابه ورفض أقوال الانبياء جميعا واتباع الذمة والشرف في كل الامور وأهل هذا الرأى قوم يدعون أن الاديان لم توجد أو أوجدتها العقلاء لتكون رادعة للانسان عن وقوعه في المحظورات وارتكابه المنكرات والاضرار بالناس ومادام للانسان وادع ووازع من نفسه وذمة فلا حاجة له باتباع أوامر هذا الدين أو اجتناب منهيات ذاك

لكن المترجم منعا للمساعي أن يكون باقيا في قلب عسكره من الضغائن المسببة عن اختلاف الدين وموافقة لهم على أفكارهم وعوائدهم اعتنق الدين الاسلامي ودان له بواسطة أحد البيكوات المحبين لموتزبا برى التولى الذى كان شائعا وموجودا وقتئذ في البلاد المصرية ومن يومئذ سمى بسليمان أغا وسنذكره من الآن بهذا الاسم تاركين الاسم الافرنكي وكان دخوله في الدين الاسلامي ظاهريا فقط بدليل حضوره الصلاة التى أقيمت على روح والدته حين سفره الى ليون كاسيجيء فلما أسلم ازدادت محبة عساكره واطاعتهم اياه وأقبلوا حينئذ على تعليمه باخلاص النية وصفاء الطوية وأكبوا على تمريناته العسكرية حتى صاروا بعد قليل من الزمن أحسن الجيوش الاوروباوية نظاما وشجاعة واقداما

(فتح السودان)

وكان العزيز محمد على باشا في أثناء هذه المدة يدبر حيلة لشن الغارة على بلاد النوبة وفتحها لاتصال أسباب التجارة بينها وبين مصر ولجمع جيش من سكانها المشهورين بالشجاعة والاقدام وكان له قصد آخر في اثارة هذه الحروب وهو استئصال شأفة من بقى من عساكره الارنؤد وغيرهم من الاخلاط والتخلص من شرهم والتملص من كيدهم فانه كان لا يعوق الاعلى المصريين الذين ألقيت محبته في قلوبهم لما لدفعه عنهم ودفعه من جور المماليك وتعديهم عليهم وظلمهم المتراكم لهم ونشره لواء الامن بين ظهرانيهم وسعيه آناء الليل واطراف النهار فيما يعود عليهم بالنجاح والفلاح ❁ ولقد كانت لديه فرصة مناسبة لدخوله السودان بخيله ورجله وهى التجاء بعض المماليك بعد قتل أغلبهم في القلعة الى مديرية دنقلة

خارجاعن الحدود المصرية حتى اتخذوها حصنا حصينا لهم ولاجل أن يثير خاطرهم أرسل لهم أحد أعوانه ليدعوهم للرجوع الى مصر والاقامة فيها بشروط أهمها أن لا يدخلوا الحدود المصرية الا بعد الاذن لهم بذلك وارسال أحد الضباط ليأتي بهم الى العاصمة وأن لا يأخذوا شيأ من المصريين أثناء مرورهم في أرض مصر كما كانت عليه عادتهم بل يكون الضابط الذي يرافقهم هو الذي يقوم بجميع ما يلزم لهم من الميرة وغيرها وأنهم اذا أتوا القاهرة يقيمون في جهة مخصوصة ومنها أيضا أن يتنازلوا عما كان لهم من الامتيازات والحقوق وان لا يطلبوا ما أخذ منهم بحق أو بدونه بعد مذبحة القلعة من عقار وأثاث وغير ذلك ❁ فأبى المماليك تلك الشروط الصارمة كما كان يتوقعه محمد علي باشا ولم يكتفوا بإبائهم بل تهددوه بالدخول الى الحدود المصرية وايقاد نار الوغى وادارة رحاها

فبمجرد وصول جوابهم الى الوالي عزم على فتح النوبة لاذلالهم وقطع دابرهم وأمر بحشد الجيوش في جهات مصر القديمة للزحف على السودان وجعل هذا الجيش تحت امرة اسمعيل باشا ثالث أولاده وكان اسمعيل باشا المذكور متصفا بالشجاعة بارعا في ضروب القتال لكن أنى له أن يماثل أو يشابه أخاه ابراهيم باشا الذي قهر العرب الوهابيين ودوخهم حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة مع كون العرب مشهورين بالبسالة وشدة البأس وهم الذين فتحوا معظم البلاد في صدر الاسلام ولولا ما وقع بينهم من انفصام عرى الاتحاد وتفرق الكلمة لملكوا سائر الاقطار وتغلبوا على جميع ما فيها ❁ أما السودانيون فهم قوم متوحشون لا علم لهم بفنون القتال عزل لا سلاح لهم الا الرماح ولا علم لهم بقوة نيران البنادق والمدافع اذ لم يسمعوا بها قبل ذلك الوقت ولا واقي لهم من مقذوفاتها الا جلودهم أو الدرقة المصنوعة من جلد حصان البحر فشتان بين هذه الامم المتبربرة والعرب الذين كأنهم لم يخلقوا الا للقتال ومع ذلك فقد تمكن ابراهيم باشا من قهرهم وكبح جماحهم

وكان هذا الجيش الذي تحت قيادة اسمعيل باشا مؤلفا من ثلاثة آلاف وأربعمائة راجل وألف وخمسمائة فارس واثني عشر مدفعا وخمسمائة من عرب العبابدة تحت رياسة شيخهم عابدين كاشف الذي وعده المرحوم محمد علي باشا بان يوليه على دنقلة بعد فتحها

فلما اجتمع الجيش في جهة مصر القديمة أرسلت العساكر المشاة وباقي الميرة والذخيرة الى

أسوان على طريق النيل وأما الخيالة والمدفعيون فسافروا اليها على طريق البر وكانت المقدمة تحت قيادة محمد بيك الدفتدار صهر الوالى

وأما اسمعيل باشا ومعيته فسافروا من القاهرة فى ٢٠ يوليو سنة ١٨٢٠ وبمجرد وصوله الى أسوان اجتازهو ومن معه الحدود المصرية ودخلوا أرض دنقله وكان قد احتلها الدفتدار وجيوشه المؤلفة من خمسمائة فارس ولم يعارضهم أحد من المماليك فى حال سيرهم بل أخلوا البلاد ورحلوا الى مدينة (شندى) فلم يقبلهم ملكها ولما وجدوا أن بلاد السودان قد أغلقت فى وجوههم وانهم لايمكنهم الرجوع اليها لاقتفاء الدفتدار أثرهم أيسوا من الحياة وتفرقوا بين القبائل المتبربرة فمات أغلبهم جوعا وصار السودانيون يسلبون أسلحتهم وملابسهم حتى انقطعوا عن آخرهم فيا أسوف عليهم لما تركوه فى مصر من قبح السيرة وسوء السريرة ولما ارتكبوه فيها من السلب والنهب مما سبق ذكره

وقد ظن النوبيون أن المصريين يرجعون الى بلادهم بعد تشتت شمل المماليك ولذلك لم يستعدوا للقائهم ولا لمحاربتهم بل استمروا على اختلافاتهم الداخلية فانتهز المصريون هذه الفرصة لاحتلال بلاد دنقله حتى دخلوا هذه المدينة وحينئذ شكل فيها اسمعيل باشا حكومة منتظمة باسم أمير المؤمنين لا باسم محمد على لانه لم يكن واليا الا على مصر من قبل دار الخلافة العظمى

ثم خرج بجيشه الى مدينة (شندى) فاعترضه فى الطريق النوبيون الذين كانوا قد جمعوا شتات قواهم واتحدوا للدفاع عن وطنهم ومع ذلك لم يجد دفاعهم شيأ أمام القوة المصرية لانها منتظمة مسلحة بالاسلحة النارية والمدافع القهرية بل اضطروا الى القهقرى بعد مادافعوا عن وطنهم دفاع الابطال ومات أغلبهم شهدا موطنهم العزيز فاقتفى اسمعيل باشا أثر الباقين حتى فرقهم أيدى سبا ولم يجد بعد هذه المقاومة العظمى معارضا فى طريقه فتقدم بخيله ورجله ومدافعه تتقدمه وألقى فى قلوب السودانيين ما ألقاه من الرعب حتى وصل الى مدينة بربرة (١) فألقى فيها بعض قنابل

(١) مدينة واقعة على شرق النيل وتبعد مسيرة يوم من مصب نهر (عتبارا) ومنها تسافر قوافل التجار الى سواكن الواقعة على البحر الاحمر والى وادى حلفا الواقعة على حدود مصر

لتحقق

ليتحقق من عدم وجود من يدافع عنها فدخلها وكان دخوله بموكب حافل فى ٨ خلت من شهر مارث سنة ١٨٢١ وفى ٨ مايو من هذه السنة دخل مدينة (شندى) وهى واقعة فى منتصف الطريق بين بربر والخرطوم على البر الشرقى للنيل وفيها استسلم الى اسمعيل باشا من يدعى (شاويش) أحد أمراء بربر ودخل مع قومه فى عداد العساكر المصرية ليأمن بذلك على روحه وماله ولينتقم من باقى الامراء الذين كانوا معادين له وبعد ذلك تقدم فى داخلية السودان حتى وصل الى ملتقى النهرين الازرق والابيض وأسس هناك مدينة الخرطوم لما لهذا الموقع من الاهمية التجارية والحربية لسهولة الوصول منه بواسطة النيل الى مصر ولامكان ارسال الجيوش منه لفتح السودان الشرقى حتى الحبشة حيث يخرج نهر (عتبارا) والنهر الازرق أو لفتح السودان الجنوبى حتى خط الاستواء بركوب النهر الابيض وبعد أن حصن هذه المدينة وجمع فيها المؤن والذخائر الكافية ترك فيها بعض عسكره لحمايتها وسار بقية جيشه لفتح بلاد (سنار) الواقعة بين النهر الازرق ونهر (عتبارا) ففتحها وخلع أميرها واحتل تخته عنوة ثم أراد أن يستريح ويريح جيشه مما كابدوه من الاتعاب والاوصاب وتحمل المشاق فى هذه البلاد الحارة لاسيما وكان قد فشا فى عسكره المرض وأهلك كثيرا منهم

هذا ولم يجد اسمعيل باشا ما حمل والده على فتح السودان وهو تبر الذهب وانما وجد بعض رمال يمكن أن يستخرج منها ذهب لكن الذى يحصل منها لايفى بما ينفق لاستخراجه ولما لم يجد مرغوبه استعاضه بأسر كل الشبان السودانيين القادرين على حمل السلاح وارسالهم مصفدين بالسلاسل والاغلال الى أسوان ليندرجوا فى سلك العساكر المنتظمة الذين كان يمرنهم سليمان أغا المتقدم ذكره فزاد عدد الوارد منهم بعد من يموت منهم فى الطريق إما بالامراض الناشئة عن تغير حالتهم وطبيعتهم من المأكل والمشرب أو لعدم موافقة طقس البلاد لهم ازديادا عظيما حتى اضطر سليمان أغا الى طلب مساعدين له على القيام بواجبات وظيفته وكتب بذلك الى محمد على باشا فأجابه وعين معه ضابطين فرنساويين آخرين ومن يومئذ أخذ جيش أسوان المنتظم فى التقدم يوما عن يوم فى سبل الفلاح والنجاح

ولم يقدر اسمعيل باشامع علوهمته وشدة سطوته على منع الامراض عنهم بل هاجمته بقوة عظيمة حتى أبادت أغلب عساكره وكان هذا حاملاله على العدول عن فتح بلاد كردفان وكان قدعزم على فتحها بعدان أتم فتح (سنّار) والتزم بالاقامة فيهاحتى يأتيه من مصر ماطلبه من المدد والمؤن وكان جنده حينئذ في غاية الضعف مادياالقلتهم وأدبيا لفتور عزيمتهم باقامتهم بين قبائل معادين لهم ولا يمكنهم المدافعة عن أنفسهم لوثار واعليهم وهاجوهم قبل مجيء المدداليهم

(*سفر ابراهيم باشا الى السودان*) وبقي اسمعيل باشامشغول البال زائد البلبال لازدياد الوفيات في جيشه ولكون أغلب الباقين مرضى بالمستشفيات ولا يثمر فيهم علاج لتسلطن اليأس عليهم واستمر على هذه الحال حتى أتاه المدد وماطلبه من المؤن فسرّ بذلك ومما زاده سرورا قدوم أخيه ابراهيم باشا الى سنّار لمساعدته على اتمام فتح السودان وتوطيد الأمن بمع أنه كان يود الانفراد في مثل هذه المهمة بدون مشاركة أحد له فيما يكتسبه من أنواع الفخر وعلو القدر ولما انتشر في الجيش خبر قدوم ابراهيم باشاوعسكره انبثت فيهم روح جديدة وشفي كل مريض بلا علاج لما استولى عليهم من الفرح والانشراح وذهب عنهم اليأس والخمول وسرت في عروقهم الرغبة في القتال ومايتبعه من كسب الغنائم فاغتنم ابراهيم باشاوأخوه هذه الحركة لتنفيذ مشروعهما وقسما الجيش الى فرقتين بعد ان تركا حامية قوية في مدينة (سنّار) احداهما تحت قيادة اسمعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على البحر الازرق الى حدود الحبشة والأخرى تحت قيادة ابراهيم باشا لفتح بلاد كردفان ودارفور وبعدأن أتما مايلزم لهما من الاستعدادات جمعا الذخيرة والمؤن وتوجه كل منهما لوجهته فقام كل منهما بماعهد اليه أحسن قيام ونشر علم التمدن في هذه الاصقاع واستبق كل منهما الخيرات ماسبق اليه وقام باداء مايجب عليه وانبثت الراحة في هذه البلاد المتبربرة التي أرخى التوحش عليها سدوله وضرب الجهل بين أهلها أطنابه فلما اعتراهما التعب من المشاق الشديدة أرسلا الى والدهما يطلبان منه العودة الى الاهل والوطن وكان ذلك في شهر يوليو سنة ١٨٢٢ فلم يقع طلبهما هذا عند والدهما موقع الاستحسان وأمرهم بالاقامة في السودان حتى ينتظما فيه حكومة ثابتة لايخشى عليها

من

من طوارق الزمان وبواعث الحدثان وآثار المنفعة العمومية على المحبة الوالدية فبمثل هؤلاء الرجال تسهل المسالك وبضدهم تزول الممالك فلبثا بعد ذلك شهرين فى أقاصى هذه البلدان ثم سافر ابراهيم باشا الى مصر توا مستصحبا معه بعض الجند

وأما اسمعيل باشا فمكث بعد أخيه عدة أسابيع لترتيب أمور هذه المملكة الواسعة المفتتحة حديثا وبعد تمام دبر أمورها أرسل بعض الجند ومعهم أسرى الزنج الى مصر على طريق البر واستعد للسفر من طريق البحر فبلغه فى أثناء ذلك ان أهالى دنقلة وبربر وما جاورهما أخذوا يتآمرون على معاكسة الحكومة المصرية لما انتشر بينهم من الاخبار الكاذبة والاراجيف الملفقة التى كان يبثها بينهم ذووا الاغراض الفاسدة مما يتعلق بانكسار المصريين فى (سنار) وبلاد البحر الابيض فشدوا أزرهم وتكاثروا وتجمعوا حوالى بربر وشندى وهجموا على قوافل الاسرى التى أرسلها اسمعيل باشا الى معسكر أسوان قبل مبارحته السودان وهددوا من كان معهم من العساكر حتى تخلصت الاسرى من أيديهم ورجعوا الى شندى فرحين مسرورين بما أوتوا من النصر والظفر على جيوش المصريين

(موت اسماعيل باشا) لما وصل هذا الخبر المشؤم الى اسمعيل باشا قام من ساعته ومعه باقى الجيش قاصدا مدينة شندى وكان ملكها نمر باشا هذه الثورة فوصلها خفاة ودخلها بدون أن يقاومه أحد أو يعارضه معارض حتى احتلها مع عسكره ثم أمر باحضار ملك شندى أمامه فلما مثل بين يديه أخذ يرميه بأنواع الشتم والسب حتى اشتد غيظه وزاد بصفعه على وجهه فلم يقدر أن يفوه بنت شفة بل أسرها فى نفسه وعزم على الانتقام منه وأما اسمعيل باشا فعفا عنه بشرط أن يدفع غرامة قدرها خمسة آلاف بينتو يدفعها فى مدة خمسة أيام وألفان من الرقيق فامتثل لذلك ملك شندى وقبل هذه الغرامة ظاهرا مصمما على الاخذ بالثار

ثم أولم لاسمعيل باشا ومن معه من كبار القوم وليمة فى قصره ودعاهم اليها فأجابوا دعوته وتوجهوا الى منزله غير عالمين بما تكنه لهم صدور أعدائهم من المكايد فبينما هم على الطعام اذ أمر الملك أعوانه بأن يجمعوا حطبا كثيرا وقشا وتبنا وغير ذلك من المواد الجافة

السريعة الالتهاب وأمرهم أن يضعوه حول البيت فلما فرغ الاضياف من تناول الطعام وتأهبوا للخروج والذهاب الى معسكرهم أضرم الاعداء النار فيما جمعوه حول المنزل من المواد الالتهابية فلم يمض الا هنيهة حتى اتقد المنزل وما فيه من الاثاث وصار كشعلة من نار ولم يتيسر لاسمعيل باشا ورفقائه الخروج لشدة النار ولاحاطة جنود الملك بهم من كل جهة فسدت فى وجوههم المسالك حتى ماتوا حرقًا ولم يتيسر لعساكرهم أن يبسطوا لهم يد المساعدة ويخلصوهم من هذه الميتة الشنعاء لانقضاض باقى جنود السودانيين عليهم وذبحهم اياهم فلم ينج منهم الا من تمكن من الهرب تحت جنح الظلام وأستار الليل

فلما بلغ محمد على باشا نعى ولده تأثر جدًا وحزن على فقده ز منا طويلا لاسيما وكان قد توفى قبله ولده طوسون باشا ومع ذلك لم يلهه حزنه عن النظر فى أمور حكومته والسعى فى اتمام مشروعاته خصوصا ما يتعلق بتنظيم الجيش مع ما صادفه فى طريقه من العقبات التى كادت أن تحول بينه وبين نجاح مشروعه لولا ثباته ومثابرته على العمل وعدم تأخره عند حدوث مانع أو طروء صعوبة بل كان يلقى الصعوبات بقلب ثابت لا تزعزعه العواصف ولا ترهبه القلاقل ولما جئ بجثة اسمعيل باشا محرقة الى مصر احتفل بدفنها احتفالا عظيما ظهر به ميل المصريين للعائلة الحاكمة ومشاركتها لها فى فرحها وحزنها وسرائها وضرائها ولم يكن يشوب تلك المحبة الخالصة والالفة الصادقة الا مسئلة ادخال الشبان المصريين فى العسكرية وهو الامر الذى نسيه المصريون من عهد سقوط دولة الفراعنة واغارة الاجانب على مصر وحكمهم اياها حتى جهل المصريون فى هذه الاحقاب العديدة والقرون المديدة أن لهم وطنا يلزمهم الدفاع عنه والسعى فى كل ما يعود عليه بالسعادة والرفاهية لعلهم أنهم ليسوا آمنين على أرواحهم وأولادهم وأموالهم وأعراضهم من ظلم من أتى اليهم وطرأ عليهم من الاجانب بين عجم ويونان ورومان ومسلمين على اختلاف عائلاتهم بين عباسيين وفاطميين وأيوبيين وترك وجركس ومماليك مختلفى المشارب والمذاهب متحدين على امتصاص دم المصرى واستنزاف ثروته واحتقاره واستعباده الى غير ذلك مما يضيق عنه هذا الكتاب .

هذا وقد اتخذ العساكر الالبانيون (الارنؤد) اشتغال محمد على باشا بموت ولده والاحتفال بشأنه فرصة ووسيلة لتحريض الاهالى لاسيما المزارعين الذين هم أكثر المصريين عددا ان لم

يكونوا كلهم على مخالفة محمد على باشا حتى ان بعض البلاد امتنعت عن ادخال أولادهم فى العسكرية وأهانوا المأمورين المكلفين بجمعهم ولولا حكمة محمد على باشا لتفاقم الامر وعظم الخطب ونال الالبانيون بغيتهم من تقويض أركان حكومته وتلك دعائمها

هذا ولما كان الجيش الجارى تنظيمه باسوان بمعرفة سليمان أغا ورفقائه قد بلغ درجة عظيمة فى حسن النظام وصار بحيث يمكن الاعتماد عليه والاستناد اليه أراد محمد على باشا أن يجعله ركنا لدولته فأرسل الى سليمان أغا أن يحضر مع جيشه الى الخانقاه (الخنكا) فحضر وكان جيشه مؤلفا من خمس وعشرين ألفا ما بين مصرى وسودانى وهو منقسم الى ستة ألايات ضباطهم وصف ضباطهم من الاروباويين ومن مماليك محمد على باشا الذين كانوا أول من تدرب على التعليمات العسكرية

ولما حضر الوالى مناوراتهم فى ميدان الخانقاه وشاهدها ازداد بها سرورا وأنعم على سليمان أغا برتبة أميرالاى مع لقب بيك وجعله أميرالايا للالاى السادس وأقطعه أرضا واسعة وأموالا كثيرة مكافأة له على اتمام هذا المشروع واخراجه من حيز الفكر الى حيز الفعل ثم أمر بالغاء الجيش الغير المنتظم (باشبوزق) ورسم بان من يريد الدخول فى الجيش الجديد من الالبانيين يقبل والا يطرد من الحكومة المصرية ويرجع الى وطنه

أما سليمان بيك فأخذ من يومئذ فى اصلاح أطيانه وأمواله وبنى له قصرا جليلا على النيل فى مصر العتيقة وفرشه بالاثاث العربى وأحاطه بالبساتين والمروج حتى صار من أحسن أماكن مصر وأبهجها وأعلاها وصار يؤمه كل من دخل مصر من الفرنساويين فيلاقون من رب البيت ما تقر به أعينهم ويسر به خاطرهم وينشرح به صدرهم من اكرام الوفادة ولطف اللقاء

هذا ولما وصل خبر غدر ملك شندى باسمعيل باشا الى محمد بيك الدفتردار الذى كان اذذاك ببلاد دارفور قفل راجعا الى بلاد النوبة ليأخذ بثاره فأحرق القرى بعد قتل سكانها بين رجال ونساء وأطفال ولم يترك النوبة وشندى الا بلقعا لا يسكنها الا بنات آوى والوحوش الضارية والطيور الكاسرة لاكل جثث القتلى التى أفسدت الهواء بما تصاعد منها من الروائح الكريهة ومع هذا كله لم تمكن الدفتردار من قتل الملك ولا القبض عليه ولم

يقف له على أثر بعد أن بذل جهده في التفتيش والبحث عليه في جميع أنحاء السودان

(حرب اليونان)

ثم ان محمد على باشا لم يبق له شاغل بعد ترتيب الجيش المنتظم واستتباب الامن في ديار السودان بهمة ظهيره محمد بيك الدفتدار ونشر لواء العدل والمساواة في داخلية الحكومة الانشر التمدن وأسبابه بين الاهالى فأخذ في فتح المدارس التي هي أساس التمدن والعمران في كل الحكومات والممالك لتعليم الشبان مالهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات نحو انفسهم والعائلة والوطن وبث روح التعاضد والتساعد بين أفراد الامة وحب الاتحاد والارتباط اللازمين لنجاح أى مشروع كان ثم وجه التفاته الى اصلاح مجرى النيل واقامة الجسور لمنع الغرق وشق الترع والجداول لمنع الشرق وتأسيس الورش والمعامل لايجاد الصناعة في القطر والاستغناء بها عن المصنوعات الاجنبية وحصر ثروة البلاد في أيدى أهلها الذين هم أولى بها من غيرهم من الاجانب الذين جل بغيتهم جمع الاموال وحوزها والاثراء بأى طريق كان غير ناظرين الا لمنفعتهم الخاصة ومنفعة بلادهم تاركين منفعة البلاد التي يظلهم سماؤها ويروى غليلهم ماؤها لكن لالوم عليهم في ذلك ولا تثريب لكونهم أجنبيين من البلاد وبينما هو مشتغل بهذه الاصلاحات آمن على داخلية حكومته لعدم وجود منغص من جيش الالبانيين وخارجيتها لوجود الجيش المنتظم الذى يمكنه به أن يصد به كل مهاجم مع مساعدته بسفنه الحربية العديدة المسلحة بالمدافع على الطراز الذى كان مستعملا في ذلك الوقت اذ ورد اليه خبر تعيينه والياعلى ولاتى كريد وموره بشرط ارسال قوة كافية لاخماد ثورة اليونان الثائرين للحصول على الاستقلال السياسى المستدعى لطرح سلطة الدولة العلية * نستطرد هنا الى الكلام على الثورة اليونانية بشرح وجيز قبل التكلم على حرب موره فنقول

من عهد فتح العثمانيين بلاد اليونان لم يحصل من اليونانيين ما يخل بالراحة بل أذعنوا الحكم الاتراك بعد مقاومة يسيرة وامتثلوا الاحكام بالقوة واستمر هذا السكون الى سنة ١٨٢٠ حتى انتشرت في اوربا مبادى الثورة الفرنساوية المبنية على ثالوث الحرية والمساواة والاخاء على اثر حرب نابليون التي اشتد فيها بأسه ولم يمنعه تغلب الجيوش الاوروباوية عليه

وارجاعهم فرنسا الى حدودها التى كانت عليها قبل الثورة من غرس مبادى الثورة فى كل بلد دخلها أو مر بها فنبتت ونمت وامتدت فروعها الى سائر أنحاء أوروبا حتى وصلت الى اليونان فنبهتهم للطالبة بحقوقهم وعرفتهم أن لهم حقا فى المجمع السياسى وبثت فيهم الشوق الى أن يكونوا اسوة سويسرا مثلا

لكن لما علم أغنياء الامة اليونانية أن السواد الاعظم من أبناء جنسهم قد طمس على أعينهم الجهل وأن أساس الحرية هو الاستنارة بنبراس العلم الذى يعلم الانسان أن له حقوقا يطالب بها كما أن عليه واجبات يطالبه بها الغير أخذوا أولا فى ارسال أولادهم الى الممالك الاروباوية ليتصلوا بالعلوم والمعارف وليكونوا رؤساء الامة ودعاة حريتها فى المستقبل ثم ألفوا عدة جمعيات لنشر العلم بها بين سائر طبقات الامة من وجه ولبث روح الوطنية بينهم من وجه آخر وألفوا جمعيات أخر سياسية وجعلوا مراكزها فى الروسيا أو فى النمسا وأهم هذه الجمعيات الجمعية السرية المسماة جمعية (هيتيرى) (١) فانها تألفت فى مدينة ويانا سنة ١٨١٥ وقد قيل ان الاسكندر الاول قيصر الروسيا كان هو المحرض عليها تنفيذا لوصية بطرس الاكبر من الاستيلاء على القسطنطينية لكن حال دون نفاذه محافظة انكلترا خصوصا وأوروبا عموما على التوازن السياسى بين قوى الدول

وكان كل من يدخل هذه الجمعية يقسم على أن يبذل روحه وماله فى سبيل الحصول على الاستقلال السياسى والمحافظة على السر فى كل ما يتعلق بهذا المشروع أو نضمن نجاحه فكانت هذه الجمعية أشبه شئ بجمعية الكاربونارى التى انتشرت أثناء ذلك فى كافة الممالك اللاتينية فرنسا وايطاليا واسبانيا والبرتوغال ثم تشعبت فروع هذه الجمعية فى أنحاء الدولة العلية التى بها يونانيون حتى بلغ اعضاؤها فى أوائل سنة ١٨٢١ نيفا وعشرين ألفا أقوياء على حمل السلاح ومستعدين للقيام عند أول اشارة تصدر من رؤسائهم وكان من أسباب المساعدة على انتشارها اشتغال الدولة بمحاربة على باشا والى يانينا الذى ثار

(١) كلمة يونانية معناها جمعية أخوية أطلقت على جمعية اسسها اليونان فى مدينة ويانا تخت النمسا قصدا لنشر المعارف بين اليونان ظاهرا والسعى فى استخلاص الامة اليونانية من حكومة العثمانيين باطنا وبقيت سرية حتى سنة ١٨٢١ وهى السبب فى حصول ثورة اليونان وتحصيلهم على الاستقلال وأشهر رؤسائها الموسيو (كابوديستريا) و(ابسلانتى) وسيأتى الكلام عليهما

عليها طلبا في الاستقلال والاستيلاء على الجزء الغربي من تركيسة أوربا ولكنه لم ينجح في مشروعه لمضايقة خورشيد باشا له وحصره اياه في قصره الكائن بجزيرة في وسط بحيرة بالقرب من يانينا ومع ذلك لم يستسلم من أول وهلة بل دافع مع من بقي من رجاله حتى أصيب بعدة جراحات وخر قتيلا فامر خورشيد باشا بجز رأسه وارسالها الى دار الخلافة وكان ذلك في ٥ فبراير سنة ١٨٢٢ ولقد انتهز اليونانيون اشتغال عساكر الدولة بمحاربة على باشا المذكور وايقنوا أن هذه فرصة لهم فرفعوا راية العصيان وانتشر القتال بينهم وبين عساكر الدولة العلية فلم تشرع الدولة في قمع عصيانهم الا بعد قتل على باشا ثم أرسلت اليهم قوة عظيمة تحت قيادة خورشيد باشا قاهر والى يانينا فكانت له عليهم الغلبة أولا ثم انقلبت عليه الدائرة فانهزم في واقعة (ترموبيل) في شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ فلما تبدد جيشه آثر الموت على أن يعود الى دار الخلافة فتهور ومات بعدما نال من الشهرة فانتحر مسموما وبما زاد هذا الانكسار أهمية حرق الدونانمة التركية في جزيرة صاقس وذلك أنه بعد انتصار العسكر العثمانيين بحرا على مراكب اليونان الحربية واستيلائهم على جزائر صاقس وساموس صادف ذلك حلول عيد الفطر فبينما العثمانيون في فرح وحبور غير ملتفتين الى عدوهم انتهز اليونانيون هذه الفرصة وأحرقوا الدونانمة التركية عن آخرها ومات فيها ثلاثة آلاف بحري وقبودان الدونانمة وكان ذلك في ١٨ يونيه سنة ١٨٢٢ وبقى الحرب بعد ذلك بينهم سجالا الى سنة ١٨٢٤

فلما رأى السلطان محمود الثاني ما حصل من الاهوال في هذه الحروب التي قتل فيها أعظم قواده البرية والبحرية ونفدت في سبيلها الخزينة السلطانية وخشى من أن اشتغال محمد على باشا بما كان يجريه من الاصلاحات الداخلية ربما يكون سببا لحصوله على الاستقلال وتمكنه من مثل ما وقع من على باشا والى يانينا أصدر فرمانا بتاريخ ٦ مارث سنة ١٨٢٤ مشعرا بتعيين محمد على باشا والى مصر واليا على كريد وموره وكلفه باخضاع اليونان وادخالهم تحت الراية العثمانية بعد مجازاتهم على ما ارتكبوه من كفران نعمة الدولة العلية التي لم تعارضهم منذ استيلائها على بلادهم في شيء من ديانتهم ولا عوائدهم بل عاملتهم بالاحسان اليهم وان ما حصل لهم من الامور المغايرة لخواطرهم انما هي من بعض

الموظفين فكان الاجدر بهم أن يرفعوا شكاياتهم الى الباب الهمايونى بدلا من رفعهم راية العصيان ونبذهم طاعة أولى الامر واظهرهم اتباعا لذوى المفاسد الذين يسعون دائما فى احداث القلاقل والاراجيف المزعجة فى داخلية المملكة العثمانية لغرض يقصدونه أولب ينالونه لا لمنفعة تعود على من يغرونهم على المخالفة والعصيان.

فلما وصل لمحمد على باشا خبر تعيينه واليا على هاتين الولايتين حار فى أمره وصار يضرب أخماسا لاسداس ولم يدر ما يصنع ولا أى الامرين يختار أيقبل ما عين اليه ويتكفل بعهدة هذه الحروب التى أعيت الدولة العلية مع جلالة قدرها وعظم شأنها وأدواتها الغريبة وقوتها العجيبة أو يأبى التعيين فيغتنم أخصامه بذلك فرصة اقناع السلطان بأنه ينوى الاستقلال كوالى (يانينا)

فجمع أعضاء عائلته وكبار حكومته وتروى معهم فى أحب الامرين فتقرر رأيهم على قبول المأمورية والاستعداد الى السفر قبل أن يتفاقم الأمر ويعظم الخطب فى بلاد اليونان ويتسع الخرق على الراقع لكن حدثت فى هذا الوقت حادثة أوجبت تأخير سفر الارسالية وهى أن أحد الحجاج المغربيين عند عودته من مكة نزل بالقصير وأخذ يحرض الناس على عصيان محمد على باشا لما أتاه من محاربة الوهابيين الذين لم يقوموا على زعمه الا لنصرة الدين وأقنع سذج العقول عن اجتمع عليه بأن محمد على باشا خرج بذلك عن النصوص الشرعية وصار من الواجب على كل مسلم محاربته مجازاته على محاربته الوهابيين وقهره اياهم فتبعوه على ذلك وانقادوا وسار بهم قاصدا مدينة قنا وازداد عدد تابعيه ممن لقيه من العرب الذين انضموا اليه قصد النهب والسلب فوصل (قنا) بجيش عظيم أوقع الرهبة فى قلوب سكان تلك المدينة فتبعه أغلبهم وسار بهم الى مدينة (اسنا) وصادف وصولهم الى المدينة وجود بعض من العساكر المصريين مسافرين الى السودان فأراد حاكم البلدة أن يفرق بهم جموع العصاة فقاتلوهم قليلا ثم انضموا اليهم تخلصا من السفر الى السودان حيث كانوا مكرهين عليه

فلما بلغ محمد على باشا هذه الاخبار المشوشة للافكار وكان اذ ذاك مشتغلا بتجهيز جيشه للسفر الى بلاد اليونان اضطر أن يرسل الى جهة الصعيد الالاى السادس تحت قيادة سليمان بك فتوجه اليهم وحاربهم هو ومن معه من العساكر الابطال وهجموا عليهم حتى شتتوهم

فى أنحاء الجهات ثم اقتفوا أثرهم حتى أوصلوهم الى الصحراء فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ولقد برهن سليمان بيك فى هذه الواقعة على كفاءته واستعداده وأن العسكرى المنتظم يمكنه أن يقاوم عددا عظيما من غير المنتظمين وهذا هو الامر الذى زاد محمد على باشا تمسكا بالنظام الجديد

وبعد استتباب الأمن فى جهات الصعيد اهتم بالتجهيزات العسكرية وجمع سبعة عشر ألفا من العساكر المشاة وهم الالاى الثالث والرابع والخامس والسادس وأربع بلوكات من البلطجية وسبعمائة فارس تحت امرة من يدعى حسن بيك وعدة من مدافع القلاع والمدافع الخفيفة وكان هذا الجيش تحت قيادة ابراهيم باشا فاقلع من مينا الاسكندرية هو وعسكره فى ١٠ يوليو سنة ١٨٢٤ ومعه ستون سفينة حربية غير السفن الحاملة للعساكر وخيلها ومهماتها قاصدا جزيرة (رودس) ليجتمع هناك مع دونانمة الدولة العلية فوصلت الدونانمة المصرية الى جزيرة (رودس) قبل وصول الدونانمة العثمانية والسبب فى هذا التأخير أنه حال سير الدونانمة العثمانية قابلها الاميرال اليونانى ومعه خمسون سفينة حربية صغيرة وبعض حراقات أحرق بها سفينتان عثمانيتان احداهما بها ٣٢ مدفعا والاخرى ٥٤ مدفعا وأخذ عشر ونزور قا من زوارق الحمل بما فيها من المؤن والذخائر ولما لم يتيسر للاميرال العثمانى مقاومته أقلع عراكبه من وجه العدو والتجأ الى احدى مين آسيا الصغرى ثم أرسل أوامره الى الدونانمة المصرية بالحضور الى هذه الجهة لمساعدته على اليونانيين فلم يسمح ابراهيم باشا الانلبية طلبه وكان اجتماع الدونانمتين فى يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٨٢٤ وبعد قدوم المدرعات المصرية اطمأن جأش الجيوش العثمانية وهدأ روعهم وقد بهرهم العجب والاندهاش مما وجدوا عليه الدونانمة المصرية من الاستعداد والنظام الذى لم يروا مثله عندهم وشهدوا للمنشئ بعلو الهمة وحسن التدبير ومزيد السياسة وطول الباع وسعة الاطلاع

هذا وباجتماع الدونانمتين المصرية والعثمانية تألفت منهما قوة عظيمة بحرية لم يسبق وجودها فى بحر اليونان أثناء هذه الحروب لكن لم توقع هذه القوى المجتمعة الرعب فى قلوب البحرية اليونانيين لتدربهم على الحروب البحرية ومعرفتهم مسالك البحار ومفاوزها بل

جمع اميرال العدو سفنه الصغيرة السريعة السير وأتى بها في ٥ سبتمبر سنة ١٨٢٤ لمواجهة الدوننمات المتحدة وكانت تتقدمه الحراقات فلما قربت حضر منها المصريون لصغرها ولم يدر بخلدهم أنها تصل النار في جوانبها وتحرق كل ما تلمسه من السفن كبيرة كانت أو صغيرة أما العثمانيون فلمكابدتهم غير مرة نيران هذه الحراقات وما تجلبه من الضرر لجأوا الى الفرار وولوا الادبار فتبعهم العدو بحراقاته حتى لحقهم وتمكن من اضرام النار في السفينة الحاملة قبطان باشا وفي خمسة عمراكب أخرى فعجز العثمانيون عن اطفاء النار وقصروا في اطفائها واخماد سعيرها فتركوا سفنهم تستعر نارا ونزلوا في الزوارق قاصدين فرض الاناضول ليتخلصوا من كيد هذا العدو الذي لم يقدروا على مقاومته لشجاعة اليونانيين وتعريضهم أنفسهم للتهلكة لاحراق سفنهم ولو أفضى ذلك لاحراق السفينة ومن فيها ولا يخفى ما في ذلك من الخطر لان قواد الحراقة ملتزم بأن يكون بحذا سفينة العدو ويربط فيها سفينته بخطاطيف من الحديد بعد وضع النار في البارود الموجود بها والمعلق على جوانبها ثم ينزل هو ومن معه الى زورق صغير ويلجأ الى الفرار حين يكون عسكر العدو مشتغلين باطفاء النار والهرب فرارا من الموت حرقا

هذا ما كان من أمر الدوننمة العثمانية وأما ابراهيم باشا فانه ولو فقد مساعدة العثمانيين له فلم يخطر بباله الهرب من أمام العدو فقط بل قابل سفنه بنيران المدافع المحكمة الطلقات حتى أمكنه أن يتخلص من شرهم ثم أقلع قاصدا بلاد (موره) ولكن لسوء حظه لم يتيسر له انزال عساكره الى البر لمعاكسة العدو له لاسيما وقد أحرق العدو بالقرب من جزيرة (كريد) احدى سفنه وأخذ منه خمس سفن جسيمة فيها ألفا عسكري برى ولما لم يتمكن من انزال عساكره رجع الى جزيرة (رودس) وبعد أن استراح وأراح عساكره أقلع منها قاصدا جزيرة (كريد) وترك سليمان بيك مع فرقته لحماية (رودس)

وفي هذه الاثناء وقع الخلاف بين رؤساء دوننمة العدو وهياج عساكره البحرية لعدم صرف مرتباتهم وأبوا استمرار القتال ورجعوا الى اليونان لاجراء ما فيه الحصول على متأخر ماهياتهم فبمجرد وصول الخبر الى ابراهيم باشا بذلك أرسل توا الى سليمان بيك يستقدمه اليه من رودس فوصل اليه ثم أقلع من (خانيا) مينا جزيرة (كريد) وجد في السير واجتهد

حتى وصل الى مينا (مودون) وأنزل عساكره الى البر قبل أن يشعر بقدومه أحد وكان ذلك فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٢٥ ولما وصل ابراهيم باشا الى بلاد (موره) رأى العثمانيين فى أسوا حال من الضنك والضيق لتغلب اليونانيين عليهم فى كل المواقع البرية والبحرية ولم يكن ذلك بقوة اليونان فلولم يوجد أمام العثمانيين الاهم لأهلكوهم عن آخرهم وألزموا من بقى منهم بعد الحرب بالدخول تحت جناحهم وسلطتهم كما كانوا قبل ذلك وماساعدهم على مقاومة العثمانيين والاستظهار عليهم فى عدة مواقع مهمة الا اسعاف الاوروباويين لهم بالمال والرجال وان كان هذا عن غير رضا دولهم ظاهرا فتألف فى جميع ارجاء أوروبا جمعيات كثيرة دعيت بجمعيات محبى اليونان وأرسلت اليهم كثيرا من المؤن والذخائر بل وتطوع كثير من مشاهير أوروبا وقوادها مثل (وشنطون) نجل محرر أمريكا الشهير واللورد بيرون (١) الشاعر الانكليزى وغيرهما من فحول الرجال للدفاع عنها ووهبوا أنفسهم لخدمة الحرية فى أى مكان سعى أهله فى الحصول عليها ومما زاد فى استمالة الشبان الاوروباويين الى الدخول فى سلك العسكرية اليونانية ما أذاعه وأشاعه فى ربوعهما من المكاتبات والقصائد الحماسية الحبيبة فى ذلك كل من (فكتور هوجو) و (كازيميردى لافين)

وبعد ظهور اليونانيين على العثمانيين وقع الخلاف والشقاق بين رؤس الثورة لحب كل منهم الاستقلال برأيه ولكن منعهم نزول ابراهيم باشا وجيشه ببلادهم لانه لما نزل اتحدوا على مقاومته والدفاع عن وطنهم

هذا ولما وصل الباشا المذكور الى بلاد اليونان لم يكن مع العثمانيين الا مينا (مودون) التى نزل بها ومينا (كورون)

(١) ولد (بيرون) سنة ١٧٨٨ وتعلم فى كلية (كامبردج) ونبغ فى الشعر من صغره لكنه اشتهر بقبح السيرة وتزوج سنة ١٨١٥ وفارق زوجته بعد سنة فثار عليه الرأى العام فنزح من انكلترا وساح فى بلاد البلجيك وسويسرا وايطاليا واشترك فى جمعيات ايطاليا السرية التى تشكلت لجمع الوحدة الايطالية ولما لم تنجح مسعاه سافر الى بلاد اليونان ووقف حياته على استخلاصها من حكومة الاتراك وشهد أشهر مواقعها وتوفى سنة ١٨٢٤ فى وقعة ميسولنغى

(حصار)

(حصار ناوارين) لم يلبث ابراهيم باشا بعد نزوله (مودون) أن رتب عساكره وأصدر الاوامر اللازمة وخرج مع نخبة جيشه وآلاى سليمان بيك في اليوم الثاني من مارث سنة ١٨٢٥ وقصد مينا (كورون) برا ليخلصها من محاصرة اليونانيين لها فتمكن بانتظام عسكره من الانتصار على العدو وادخال المدد والمؤن والرجال الى البلد المحصورة ثم أرسل في ٢٣ مارث الالاى الثالث والرابع لمحاصرة مدينة (ناوارين) فحاصرها المصريون وضايقوها بالحصار رغم أنف اليونانيين الذين قاوموهم مقاومة عظيمة الاهوال وعندذلك قام ابراهيم باشا مع بقية جيشه من (مودون) قاصدا (ناوارين) لتعزيز الجيش المحاصر فهاجمه في طريقه فرقة من اليونان يبلغ عددها ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل كانت آتية لمساعدة (ناوارين) فهزمها الباشا وأسر قائدها وشتت جمعها أدراج الرياح وبالجملة فقد قاومت حامية المدينة وهجمت غير مرة على الجيش المحاصر ولولا انتظام المصريين لنال اليونانيون مرامهم بالغلبة لكن ابراهيم باشا عهد فيه من ثباته الذى لا تزعزعه هجمات الاعداء ولا تروعه شجاعتهم وقوة جأشهم ذلل هذه الصعوبات وشدد الحصار على المدينة برا وبحرا وكادت حاميتها تستسلم لولا مساعدة حظها الهابة دوم تسعة آلاف من شبان اليونان قصد تخليصها من محاصرة المصريين وقهرهم وارجاعهم من حيث أتوا

وقبل وصول هذا الجيش بعشرة أميال سمعهم ابراهيم باشا يتغنون بنشيدهم الوطني فلم يعبأ بهم بل ترك جزأ من جيشه لاستمرار الحصار وتركيب المدافع القوية حول المدينة وقابلهم بعسكره على مقربة من البلد فهجموا عليه بقوة وشجاعة لكن بدون انتظام وأما هو فأمر عساكره بالثبات مكانهم بدون اطلاق النيران حتى اذا قرب العدو منهم أطلقوا بنادقهم دفعة واحدة ليلقوا في قلوبهم الرعب وهجموا عليهم بالسلاح الابيض على هيئة صفوف منتظمة فلما صار العدو على بعد نحو مائة متر قابله المصريون بالنيران الصائبة كالشهب المنقضة وهجموا عليهم هجوم الابطال فلم يمض الاقليل زمن حتى قتل أغلب عساكر العدو وفر الباقون منتشرين في أنحاء اليونان ومن وقتئذ أفل نجم سعدهم وغربت شمس استقلالهم بعد اشراقها وأيقنوا أنه لولم تدخلهم أوروبا

يد المساعدة وتنصرهم بعساكرها الهلكوا عن آخرهم ان لم يقبلوا العودة الى ما كانوا عليه قبل ذلك ولقد ربح المصريون من هذه الواقعة غنائم كثيرة وأخذوا عدة من الاسرى وكان فيهم كثير من الضباط والقواد الذين كان عليهم المعول فى الشدائد المهمات بل وسائر الملمات

ولقد شهد الاعداء للمصريين بالانتظام والثبات لما شاهدوه أمام نيرانهم ومما يزيد المصريين فخرا أنهم لم يرتكبوا الفظائع فى هذه الحروب وكانوا يحسنون المعاملة للاسرى ولا يقتلون من سلم نفسه اليهم وألقى سلاحه بين أيديهم وكانت أطباء الجيش المصرى تضمد جراح الاسرى وتعولهم كما تعول جرحاهم اتباعا للاوامر ابراهيم باشا التى أصدرها الى جيوشه واستمال بصنيعه هذا قلوب اليونانيين اليه ولولا ما حصل بين العثمانيين واليونانيين من جهة وتحريض ذوى الغايات من جهة أخرى لفاز ابراهيم باشا بأمله ونشر لواء الامن فى انحاء اليونان ولكن أبى محبو الفساد على أنفسهم الا استمرار القتال بين الفريقين لنيل ما تريدهم غير ناظرين الى ما يترتب عليه من سفك دماء البرآء وترميل النساء وتيتيم الاطفال

وكانت هذه الوقعة فاتحة انتصار المصريين وبها أمكنهم تتميم الحصار برا على مدينة (ناوارين) لكن لما كانت تلك المدينة واقعة على البحر وكان يأتيها المدد والمؤن كلما نضبت علم ابراهيم باشا أنه لا يتيسر له اذلالها الا اذا احتل جزيرة صغيرة واقعة فى مدخل المينا ليتمكن بواسطة ما يضعه فيها من المدافع من قفل مدخل المينا ومنع المدد عن الوصول اليها أما هذه الجزيرة فكانت ذات أهمية عظيمة عند اليونان وكانت تحميها نيران قلاع البلد فلذلك كان دخولها من أصعب الامور الشاقة ان لم يكن مستحيلا ومع ذلك فقد صمم ابراهيم باشا على احتلالها بعد أن أجمع هو وأركان حربه وفى مقدمتهم سليمان بيك على أن الاستيلاء على مدينة (ناوارين) مستحيل ما دامت هذه الجزيرة فى يد الاعداء فندب ابراهيم باشا سليمان بيك لهذه الخطة المهمة المحفوفة بالاخطار وكلفه بأخذ الاستعدادات اللازمة للاستيلاء على هذه الجزيرة وأطلق له الحرية الكاملة فى العمل وكان ذلك فى أوائل شهر مايو سنة ١٨٢٥

فانتخب

فانتخب من العساكر كل من اشتهر بالشجاعة والاقدام وفاز على أقرانه بمزايا التعليم التام وحسن الانتظام ثم سافر من (مودون) بحرا قاصدا (ناوارين) فلما رأى العدو هذه القوة قادمة عليه حصل له من الرعب ما حصل واستعد للدفاع وحصن الجزيرة وعزز حاميتها بنخبة الشبان وكان من ضمن المدافعين عن هذه الجزيرة الكونت (سانتاروزا) أحد بلغاء الطليانيين الذى وقف نفسه وحياته لمساعدة اليونان على الاستقلال ابتغاء مرضاة الحرية والاميرال اليونانى (تسومادوس) الذى نزل الى البر مع مائتين من عسكره لتعزيز حامية الجزيرة وتقويتها

وبمجرد وصول السفن المصرية على مقربة من قلاع العدو ابتدر باطلاق المدافع عليها من سائر القلاع لكن لم تزعزع هذه النار القوية قلوب المصريين ولم تثنهم عن عزمهم بل جاوبت مدافعهم مدافع العدو ونزلت العساكر البرية فى الزوارق تحت نيرانه

فلما كان ظهر ذلك اليوم تمكن سليمان بيك ومن معه من النزول الى البر وبعد تبادل اطلاق البنادق قليلا من الطرفين هجم المصريون وفى مقدمتهم سليمان بيك على استحكامات العدو هجوم الاسود ودخلوها عنوة واستمر القتال اذ ذاك بالسلاح الابيض ودافع اليونانيون دفاع الابطال لكن لم تفدهم شجاعتهم شيأ بل تغلب المصريون عليهم بحسن انتظامهم وبديع صنعهم وبعد قليل كانت لهم الغلبة ورفعوا العلم المصرى على هذه الاستحكامات التى كان يظن العارفون ان أخذها بعيد جدا لحصانة الموقع من أصله ولزيادة حفظه بالقلاع المسلحة بالمدافع الضخمة من جهة ولقرب نيران قلاع البلد اليمن جهة أخرى فكان المهاجم له تحت نيران قلاع الجزيرة وقلاع البر المتبادلة

وبعد هذه الواقعة اشتهر صيت المصريين فى جميع أنحاء اليونان وانتقل بسرعة عظيمة الى بلاد أوروبا فاضطربت لذلك جمعيات محبى اليونان وأيقنوا أن كل ما بذلوه من مال ورجال قد ذهب سدى أمام صفوف العساكر المصرية وأنهم ان لم يستميلوا لهم الرأى العام الاوربى وتجتمع الدول الاوروباوية على مساعدة اليونان مساعدة مادية لا أدبية فقط أفل نجم اليونان ووقعوا تحت سلطة المسلمين كما كانوا مدعين أنه لا يليق بل لا يجوز أن تكون أمة

مسيحية تحت وطأة المسلمين ولعمرى ان ذلك لمناف لمبادئ التمدن والحرية التى من دعائمها عدم النظر الى دين زيد أو اعتقاد عمرو بل النظر الى أعمال كل منهما بقطع النظر عن المعتقد فكم شاهدنا فى التواريخ القديمة والحديثة أن المسلمين أحسنوا معاملة رعاياهم من المسيحيين وغيرهم وقد رأينا أن الحروب قد استمرت أجيالا بين الكاثوليك والبروتستانت ولم تزل قائمة فى الروسيا بين الارثودكس ومن عداهم من الطوائف المسيحية وغيرها ومع كل فليس الغرض من هذا الكتاب الخوض فى هذا الموضوع الذى لو أردنا فتح بابه لملأنا مجلدات ضخمة فالتاريخ مشحون بما ارتكبه مسيحيو اسبانيا (الاندلس) ضد المسلمين فى عصر الملكة (ازابلا)

هذا ولقد قتل فى هذه الواقعة كثير من الفريقين وكان من قتلى اليونان الاميرال (تسومادوس) الذى آثر الموت على النجاة هربا كى لا يرى وقوع بلاده فى يد المصريين والكونت (سانتاروزا) الايطالى وغيرهما من أبطال اليونان والتجأ اثنان منهم وهما (استافوس) و (ساهنيس) مع كثير من العساكر الى كنيسة هنالك وجعلا فيها كمية عظيمة من البارود ثم أحرقاها فسقط البناء عليهم وهلكوا عن آخرهم وجرح من الجيش المصرى أميرالاى المشاة السادس وهو سليمان بيك ولزم الفراش مكرها ولم يمكنه بذلك استمرار القتال

وكانت نتيجة هذه الواقعة التسليم بحصر مدينة (ناوارين) براوبحرا وأما سفن العدو التى كانت فى الميناء فانها تمكنت من الهرب الا اثنتين وقعتا فى يد المصريين مع من فيهما من جرحى العدو وأما اليونانيون فلم يزالوا على قوتهم فى القتال براوبحرا وتمكن (ميوليس) القائد البحرى فى يوم ١٧ مايو سنة ١٨٢٥ مع حراقاته من الدنو من مينا (مودون) وأشعل النار فى السفن الراسية خارج الميناء وفرهاربا فامتدت النار الى باقى الدونانمة ولشدة الهواء استحكمت حتى تعسر اطفاؤها ولم ينج من كان فيها الا بجهد عظيم وعناء شديد ومما زاد فى الطين بلة أن الهواء حمل الشرر الى داخل المدينة حتى أحرق جزأ منها والتهبت مخازن البارود (الجبخانة) فأدى ذلك الى هدم كل ما جاورها من المساكن وهلاك من فيها ومع كل فان هذه الحادثة الهائلة لم تؤثر شيأ فى عزم ابراهيم

باشا

باشا شجاع مصر وفخرها بل كان مشتدا للحصار على مدينة (ناوارين) وصد هجمات العدو وهزم كل من جاء لمساعدتهم سواء كان على طريق البر أو البحر وفى احدى المناوشات العديدة أسر مطران (مودون) الذى كان يحض الاهالى على مقاومته ومحاربته وأسر غيره من دعاة الثورة لكنه أحسن معاملتهم وأكرم وفادتهم ❁ ولما أيقنت حامية البلد أن لا مناص لها من الموت أو التسليم لعسر مجىء المدد لهم من الخارج بل لعدم امكانه بالكلية لتشديد الحصار وتيقظ المصريين دائما طلبت من ابراهيم باشا أن تسلم اليه المدينة مع قلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والاسلحة بشرط أن يضمن لهم حياتهم فأذعن لمطالبهم وانقاد لمرغوبهم ودخل المدينة فى السادس عشر من شهر مايو سنة ١٨٢٥ وقد كان لهذه الوقعة تأثير مهم فى قلوب اليونان اذ أيقنوا بالفشل والخيبة لكنهم لم يألوا على أنفسهم أن يدافعوا فى سبيل الحصول على الحرية والاستقلال السياسى ولو يموتون عن آخرهم فداء الوطن وشهداء الحرية

(فتح مدينة كلاماتا) وبعد سقوط (ناوارين) جمع (بيتروبك) خمسة آلاف مقاتل من سكان الجبال المشهورين بالشجاعة والبأس وتحصن فى مدينة تدعى (كلاماتا) وسورها باسوار منيعة وحصنها بالتحصينات المحكمة فذهب ابراهيم باشا لمحاربته واحتل فى مسيره مدينة (أركاديا) المشهورة بخصب أرضها واعتدال هوائها وسائر البلاد الواقعة على البحر واحتل أيضا كل الطرق المارة بين الجبال الموصلة للاودية بعضها ببعض وقبل أن يصل الى (كلاماتا) لحقه سليمان بك وكان قد تماثلت جروحه ولم ينتظر تمام شفائه بل خرج من الاسبتالية وقصد الجيش ليشهد وقعة (كلاماتا) ❁ فوصل الجيش الى هذه البلدة ودخلها بعد قتال شديد دافع فيها اليونانيون دفاع الابطال لكنهم لم يقووا على الثبات أمام هجمات المصريين بل ولوا الادبار وركنوا الى الفرار بعد أن خضبوا الارض بدمائهم وأفعموا الاودية بجثثهم التى ذهبت فريسة للوحوش والطيور

وبعد ذلك دخل ابراهيم باشا جميع القلاع الصغيرة والبلدان والقرى المحصنة وهدم أغلبها وقتل أو أسر حامياتها فلم يقم لليونانيين بعد هذه الوقائع قائمة ولم يجسروا على

مواجهة المصريين فى الحروب المنتظمة بل التجؤا الى جبالهم وعمدوا الى حرب القادى معتمدين على شموخ جبالهم وعدم تمكن الجيوش المنتظمة من صعودها والوصول اليهم

(فتح تريبولتسا) ولما لم يجد ابراهيم باشا مايعوقه عن السير الى الامام شرع فى اجتياز جبل (تايجيت) الفاصل بينه وبين وادى (لكونيا) الذى به مدينة (تريبولتسا) مقر الحكومة الثورية لعلمه أنه لو دخلت هذه المدينة فى قبضته كان ذلك من أكبر دواعى تقويض أركان الثورة اليونانية ولم يبق بعد ذلك ملجأ للثائرين الا الجبال

ولاجل تتميم هذا المشروع المهم واجتياز مضايق هذه الجبال الوعرة السلوك الصعبة الصعود قسم ابراهيم باشا الجيش الى طابورين جعل أحدهما تحت قيادة نفسه ووجه أولهما على طريق (أركاديا) والثانى على طريق (ليوناردى) فصادف طابور ابراهيم باشا فى مسيره عند مضيق (كورشيكورا) الثائرين الشهيرين (كولوكترونى) و (بترا كو) ومعهما عدد عظيم من سكان هذه الجهات قصدا اعتراضه فى طريقه وارجاعه القهقرى فقهرهم وقتل منهم نيفا وخمسمائة مقاتل ورئيسهم (بترا كو) ثم دخل مع جيشه مدينة (تريبولتسا) فى ٢٣ يونيو سنة ١٨٢٥ فوجدها خالية من السكان اذ أخلاها ساكنوها وحاميتها وأضرموا النار فيها قبل خروجهم وأووا الى الجبال لعلها تعصمهم من نيران المصريين حيث لاعاصم اليوم لهم منها الا الطاعة والاذعان والرجوع عن مخالفة الدولة العلية التى لولا سعاية أولى الاغراض والفساد لما أمكنهم الخروج عن طاعتها

وبعد أن حصن البلد داخلا وخارجا ووضع فيها حامية كافية لصد هجمات الاعداء ليكون آمنا على امن غوائل الزمان وطوارق الحدثان خرج منها ببعض جيشه فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٢٥ قاصدا وادى (ارجوس) فهزم طليعة من الاعداء يبلغ عددها ثلاثمائة مقاتل تحت امرة (ابسيلانتى) وبعد ذلك أجرى حصد الغلال المزدرعة فى هذا الوادى الخصيب ونقل سائر المحصولات الى (تريبولتسا) ثم فى يوم ٧ يوليو سنة ١٨٢٥ وصل الى وادى (لاكونيا) وكان معه سليمان بك ثلاثة آلاف ونفر قليل من السوارى فاعترضه فى طريقه فرقة من الاعداء يبلغ عددها ثمانية آلاف متحصنين فى بعض المعاقل فرتب ابراهيم باشا عسكره على هيئة قول (طابور) وهجم على حصون الاعداء بالسلاح الابيض

فهزمهم

فهزمهم وأخرجهم من استحكاماتهم وكانت نتيجة هذه الواقعة أن صار كل اقليم (موره) في قبضة ابراهيم باشا الامدينة (نوبلي) وبينما هو يستعد لحصارها اذ ورد اليه خطاب من رشيد باشا قائد الجيوش العثمانية الذي كان اذ ذاك محاصرا لمدينة (ميسولونجي) منذ عدة أسابيع بلا فائدة ولا عائدة لوقوع هذه البلدة على خليج (ليبانته) ودوام ورود المدد لها بحرا وعدم تمكن الدونانمة العثمانية من حصرها لوجود (ميوليس) القائد اليوناني البحري وحراقاته التي كثيرا ما سببت خسائر فادحة لسفن الدولة يطلب منه المساعدة على فتح هذه البلدة التي أعيا أمرها فارسل لوالده بمصر يخبره بهذا الامر ويطلب منه ارسال المدد فأرسل له الالاى السابع والثامن من الجيش المنتظم وبعض فرق من الارنؤد من حامية كريد

(فتح مدينة ميسولونجي) وفي أثناء هذه المدة ورد الى ابراهيم باشا أمر بمساعدة رشيد باشا وفرمان مؤذن بتعيينه وزيرا لولاية (موره) فقام من ساعته مع عشرة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان ولم يترك في (موره) منها الا ما يكفي لحمايتها ثم سافر بحرا قاصدا مدينة (ميسولونجي) فلما وصل اليها هاجمها متبعا مشورة رشيد باشا فلم ينجح ورجع منهزما فاستمر بعد ذلك في حصار هذه البلدة الخطة التي سلكها في حصار (ناوارين) بأن شدد الحصار عليها برا واستولى على الجزائر الواقعة في فم الميناء وبنى فيها قلاعا حصينة وأغلق بذلك الميناء وأتم الحصار برا وبحرا حتى لم يعد من الممكن وصول المدد اليها بأي صفة كانت ثم أرسل الى حامية المدينة يطلب منها أن تستسلم بدون حرب ولا قتال لتحققه أن امتناعهم لا يجديهم نفعا فلم يقبلوا اذ أنهم صمموا على عدم التسليم ولو ماتوا عن آخرهم ثم أرسل أهل المدينة الى القائد (كرايسكاكي) وكان على مقربة من المدينة يعلمونه بأنهم عزموا على الخروج في ليلة ٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦ بجميع سكان البلد من رجال ونساء وأطفال وطلبوا منه أن يهاجم المصريين في وقت معلوم ولكن لسوء حظهم لم يقو (كرايسكاكي) على مهاجمتهم لما كان به من المرض الشديد ولم يشعرهم بذلك فظنوا أنه قد أجاب طلبهم وخرجوا في الوقت المعلوم من اليوم المعهود وهم في غاية السكون مستترين تحت جناح الليل فلما أحس بهم ابراهيم باشا وعسكره قابلهم بنيران البنادق وأوقع بينهم

الفشل فرجعوا الى المدينة بدون انتظام واتبع المصريون أثرهم حتى دخلوا المدينة وأعملوا في أهلها السيوف والبنادق وأبلوا في قتالهم بلاء حسنا ولقد جمع أحد رؤساء اليونان ما ينيف عن ألفين ما بين شيوخ وأطفال ونساء في احدى الكنائس حتى اذا وصل المصريون هدم الكنيسة بلغم من البارود كان قد صنعه وأعده لهذه الغاية فهلك هو ومن معه عن آخرهم

هذا ولقد تمكن بعض حامية المدينة من اختراق صفوف المصريين والاتراك بعد قتال عنيف وأووا الى أحد الجبال المجاورة بعد ان قتل أو جرح ثلاثة أرباعهم ولما علم هؤلاء الشجعان أنه قد استولى اليأس على قلوب رؤس الثورة بعد سقوط مدينة ميسولنجي كتبوا اليهم في ٧ مايو سنة ١٨٢٦ أن لا يخافوا ولا يحزنوا ولا يقنطوا من مساعدة الله فان يد الله مع محبي الحرية والذابين عنها وانهم لم يزالوا ولن يزالوا مستعدين للدفاع عن استقلالهم الى آخر رمق من حياتهم

ولقد حدث في اثناء هذه المدة أمران مهمان أحدهما موت اسكندر الاول امبراطور الروسيا فأعقبه تولية الامبراطور نقولا خلفا عنه وثانيهما قتل السلطان محمود العثماني للجيش الانكشارية في ١٦ يونيو سنة ١٨٢٦ اقتداء بما فعله محمد علي باشا بمصر مع المماليك ليتخلص من شرهم ويأمن كيدهم ويطهر مملكته من هذه الفئة الباغية التي اشتهرت في سائر أنحاء المملكة العثمانية بعدم الانتظام وارتكاب أنواع المنكرات فضلا عن الرذائل بدون أن يجسر أحد على معارضتهم أو يقوى على مقاومتهم وكثيرا ما عصوا السلاطين العثمانيين وخلعوهم من مناصبهم بل وقتلوهم وغير ذلك مما لا دخل له في موضوع هذا الكتاب

ثم أعقب سقوط مدينة (ميسولونجي) سقوط باقي مدن موره ويقال ان ما قابله ابراهيم باشا من الصعوبات أمام (ميسولونجي) حدث تغييرا مهما في طباعه فبعد أن كان يعامل اليونانيين بالرفق واللين ويمنع الايذاء عن أسراهم ويكرم مثواهم صار يعاملهم بالقسوة والشدة ويأمر بقتل الاسرى أولا فأولا وبنهب كل ما يمر عليه من البلدان قبل حرقها وغير ذلك مما لا يقبله العقل ولعل هذه أمور أشاعها بعض أصحاب الغايات لمقاصد وأغراض يريدون

التوصل

التوصل اليها والحصول عليها بالقاء الفتن ودس الدسائس فى داخلية البلاد والتداخل فى أمورها مما لا يخفى على رجال الدولة العلية الذين حنكتهم التجارب ولنرجع الى ما نحن بصدده فنقول

(فتح العثمانيين مدينة أثينا) انه بعد سقوط مدينة (ميسولونجى) انفصل الجيش المصرى عن الجيش العثمانى فعاد الاول الى ولاية (موره) وقد نسب اليه البعض من ارتكاب الفظائع ما لا يمكننا ذكره لعدم ثبوته وأما الثانى فقصد مدينة أثينا وحاصرها ولم يكن فيها اذ ذاك ما يصد هجمات العثمانيين فأسرع (كرايسكاكى) والكولونل (فابفيه) الفرنساوى الى هذه المدينة المهددة ومعهما سبعة آلاف عسكرى يونانى وتمكنا من الوصول اليها قبل أن يشدد رشيد باشا الحصار عليها وبعد مناوشتين خفيفتين وقعتا بالقرب من المدينة فى ١٠ وفى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٢٦ التزم رشيد باشا باخلاء بيراوس وما جاورها أما (فابفيه) فاخترق صفوف المحاصرين ودخل المدينة بألف وخمسمائة مقاتل واحتل قلعة (اكروبول) التى تعهد بالدفاع عنها وكان اللورد (كشران) قومندانا للسفن الحربية اليونانية والجنرال (شرش) رئيسا للجيوش البرية وهما انكليزيا الجنس وكان السبب فى تقليدهما هذه الوظائف الرئيسة مع وجود شجعان اليونان الذين اشتهروا فى هذه الحروب من أولها هو عدم اتفاق رؤس الثورة ووجود الغيرة والحسد بينهم وهو الامر الذى أفضى الى تقليد رئاسة الجمهورية اليونانية الى الكونت (كابودى استريا) .(١)

وفى يوم ٤ يونيو سنة ١٨٢٦ هاجم اليونانيون عساكر العثمانيين ولولا موت (كرايسكاكى) لفاز اليونانيون بالغلبة ثم فى ٦ منه اتفق رأى رؤس جيش اليونانيين على معاودة الهجوم على صفوف العثمانيين ولكنهم لم يتحدوا فى العمل ولم يساعد بعضهم بعضا ومتى تفرقت الكلمة تفرقت القلوب ولذلك لم ينجحوا فيما عزموا عليه ولم يتمكن اللورد (كشران) والجنرال (شرش) من الالتجاء الى سفنهم الا بكل صعوبة أما الجند

(١) ولد هذا الرجل الشهير فى جزيرة كرفو ببلاد اليونان وتوصل بمهارته وحذقه الى أن صار وزيرا أولا للروسية فى عهد اسكندر الاول ثم انتخبه اليونان رئيسا لجمهوريتهم سنة ١٨٢٧ ومات مقتولا سنة ١٨٣١

فهلكوا الا قليلا منهم وبعد ذلك اتفق الجنرال (شرش) مع رشيد باشا على تسليم المدينة وأمر الكولونيل (فابغيه) باخلاء قلعة الاكروبول وتسليمها الى العثمانيين لكن اضطره نفاد المؤن وتذمر العساكر فاخلى القلعة وبهذا تم استيلاء العثمانيين على مدينة أثينا تخت حكومة اليونان الآن

ولم يبق بعد ذلك لليونان في أنحاء بلاد موره الا ثلاث قلاع أما المال المتحصل من القرض الذي أبرم في مدينة لوندرة ومن تبرعات محبي الحرية فقد نفد أغلبه في الشقاقات الداخلية وما ترتب عليها من الحروب وسفك الدماء

(تداخل الدول) بينما ابراهيم باشا يستعد لفتح ما بقي في يد اليونان من القلاع اذ تداخلت أوربا لاسيما فرنسا وانكلترا والروسيا بين الفريقين وطلبت من اليونان والباب العالي توقيف الحركات العدوانية حتى يتم الاتفاق على أمر مرضي مختار لدى الطرفين فأبى الباب العالي ذلك وأمر قواده باستمرار القتال على ما كانوا عليه ولقد انتهزت الروسيا هذه الفرصة واستعانت بدولتي فرنسا وانكلترا على الجاء الباب العالي الى اتباع المعاهدات فتهددوه وتوعدوه بالقتال ان لم يقبل مطالب الروسيا فبعد محاولات ومناقشات طويلة أمضى الباب العالي في ٢٦ دسمبر سنة ١٨٢٦ على اتفاق (اكرمان) الذي من شروطه أن يؤيد كل ما جاء في معاهدة بوخارست (١) و يبيح لسفن الروسيا المرور من بوغاز البوسفور الى البحر المتوسط في أي وقت شاءت ومنها استقلال امارتي الافلاق والبغدان (رومانيا) واستقلال الصرب مع حفظ الحق للباب العالي في وضع حامية عسكرية في مدينة (بلغراد) وثلاث قلاع أخر ولم يذكر في هذه المعاهدة شيء في شأن اليونان واستقلالهم لايجاد سبيل للتداخل في مسئلتهم وحسمها طبق مرغوبهم

هذا ولنأت على ذكر هذه المسئلة تفصيلا فنقول * ان (دولة ولنجتون) وزير

(١) لما شرع نابليون الاول امبراطور فرنسا في محاربة الروسيا سنة ١٨١٢ كانت الروسيا تقاتل مملكة السويد بجهتها شمالا والدولة العثمانية بجهتها جنوبا فلاجل أن تتمكن الروسيا من جمع كل قواها لمحاربة فرنسا سعت جهدها في ابرام الصلح بينها وبين محاربيها فأمضت اتفاق الصلح مع السويد في ٥ ابريل سنة ١٨١٢ ومع الدولة العثمانية في ٢٨ مايو سنة ١٨١٢ ولكون التوقيع على هذا الوفاق حصل في مدينة (بوخارست) سميت هذه المعاهدة باسم المدينة المذكورة.

خارجية انكلترا اذذاك وهو القاهر لنابليون كما سبق وكونت (نسلرود) (١) وزير خارجية الروسيا كانا قد اتفقا عقب اجتماعهما فى شأن بطرسبورج على التداخل بين الدولة العلية واليونان وانالة الاخيرة استقلالها طوعا أو كرها فقررا بلاغ الباب العالى فى ٢٦ مارث سنة ١٨٢٦ بالنيابة عن دولتيهما وبعضد فرنسا وقدموه بالاشتراك الى السدة السلطانية طالبين به استقلال اليونان استقلالا اداريا لا سياسيا بحيث يكون تعيين الحكام والمستخدمين فيها بمعرفة أهلها تحت ملاحظة الباب العالى وأن يدفع اليونانيون خراجا معينا للدولة العلية وأن المسلمين المقيمين فى بلاد اليونان يهاجرون منها ويعطون عوضا عما يكون لهم بها من المال والعقار فرأى الباب العالى هذه المطالب فادحة ورفضها رفضا كليا فعند ذلك اتفق كل من فرنسا وانكلترا والروسيا بمقتضى معاهدة أمضيت فى مدينة (لندن) فى أوائل يوليو سنة ١٨٢٧ على الجاء الباب العالى الى قبول تداخلهم فى مسئلة اليونان فأصر الباب العالى على عدم قبول تداخلهم فارسلت الدول الثلاث المتحدة سفنها الحربية الى مياه اليونان

(واقعة ناوارين البحرية) لما علم محمد على باشا بتداخل الدول الاجنبية أرسل الى ولده بموره الدونانمة المصرية حاملة أربعة آلاف عسكرى وكانت السفن المصرية والعثمانية حاملة ألفين ومائتى مدفع وتسعة عشر ألف شخص واصطفت داخل مينا ناوارين على هيئة نصف دائرة يرتكز أحد طرفيها على قلعة البلد والآخر على قلعة جزيرة (سفاكتيرى) الواقعة عند مدخل المينا التى كابد ابراهيم باشا وسليمان بك العناء الشديد والتعب المديد فى الاستيلاء عليها كما ذكر ذلك فى محله ❁ أما الدونانمة المتحدة فكانت

(١) هو سياسى روسى ولد سنة ١٧٨٠ بمدينة (لسبون) عاصمة البرتغال حيث كان والده سفيرا واشتغل هو أيضا بالسياسة فعين بسفارة الروسيا بباريس سنة ١٨٠٧ واشترك فى كافة المخابرات السياسية التى سبقت وأعقبت سقوط نابوليون الاول وكان من أكبر المساعدين على مكافحة أحزاب الحرية فى جميع أرجاء أوروبا فكافأه الامبراطور الاسكندر الاول بتعيينه وزيرا للخارجية فوجه اهتمامه الى التداخل بين الدولة العثمانية وبين محمد على باشا كما سيجىء وبمسعاه تم الاتفاق بين الدول ماعدا فرنسا على ارجاع المصريين الى حدودهم الاصلية وشهد حرب القريم الذى كانت الدائرة فيه على الروسيه وسعى كثيرا فى الصلح الذى تم بباريس سنة ١٨٥٦ وتوفى سنة ١٨٦٢

أضعف من الدونانمة الاسلامية من حيث عدد المدافع لكنها كانت أقوى منها بكثير بالنسبة الى المتانة وانتظام الجنود وسرعة الحركات وكانت السفن الفرنساوية تحت امرة الاميرال (ريني) والانكليزية تحت قيادة الاميرال (كودرينجتون) وكان قائد سفن الروسيا الاميرال (هيدن) لكن كانت السفن المتحدة تحت إمرة الاميرال الانكليزى لتوحيد الرياسة وعدم تفرقة الكلمة واختير هو دون غيره لكونه الأقدم فى الدرجة ثم دخلت الدونانمة المتحدة الى المينا واصطفت للقتال دون أن يجسر أحد الطرفين على تحمل المسؤلية فى الابتداء بالعداوة ﴿ ومع ذلك لم يمض نصف ساعة حتى انتشب القتال بينهما بدون اعلان حرب كما هى عادة الامم المتمدنة ولا سبب يوجب العدوان بين الطرفين الاغراء الروسيا الدولتين الاخيرتين على تدمير الدونانمة التركية المصرية وكان يقصد الفرنساويون بذلك الفخر والشرف بعد ما ألم بهم سنة ١٨١٥ ولم يرغب الانكليز أن تنفرد فرنسا بهذا العمل خوفا من زيادة نفوذها فى هذه الجهات فكان الرابح فى هذه الحروب البرية الروسيا فقط كما سيجئ.

والسبب فى اشتعال نيران القتال كما نشره ثقات المؤرخين هو أن أحد الحراقات التركية اقتربت فى أثناء المناورات الابتدائية من احدى البوارج الانكليزية فأرسلت هذه لها ضابطا فى زورق يطلب منها البعد عنها فانطلق اليها وتهدد احدى عساكرها بفدارة كانت فى يده فأطلق العسكرى التركى على الضابط الانكليزى بندقيته فقتله فانتشب حينئذ القتال بالبنادق بين هاتين السفينتين ثم أطلقت احدى البوارج التركية مدفعا أصابت كلته مقدم السفينة الفرنساوية (سيرين) ولم تصب أحدا فعند ذلك أطلقت هذه السفينة مدافعها على السفن التركية فانتشب القتال بين الطرفين بحال هائلة حتى لقد عدت هذه الواقعة التى كانت نتيجتها تخريب أغلب الدونانمة التركية والمصرية من أكبر الوقائع البحرية وأهمها وكان ذلك فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ ﴿ ويدعى الاوروباويون انه لم يكن قصدهم حصول الحرب والقتال بل كان قصدهم الوحيد الزام الدولة العلية بمنح اليونان الاستقلال وإيقاف القتال بأى وجه كان ولو أدى ذلك الى الحرب

أما ابراهيم باشا فكان في داخل بلاد (موره) لاتمام نشر الامن والسكينة بها فحين بلغه خبر تخريب سفنه في واقعة (ناوارين) عاد الى هذه البلدة وأبرق وأرعد لكن لم يجد ذلك نفعا ولذا اختار خطة الدفاع عن خطة الهجوم وتحصن في مين (كورون) و (مودون) وماجاورهما وأمر سليمان بيك بالبقاء في (تريبولتسا) وكان قد عين حاكما لها ريثما تأتيه أوامر جديدة

ولما وصل خبر هذه الواقعة الى دار الخلافة أرسل الباب العالي الى الدول الثلاث المتحدة بلاغا يطلب به عدم التداخل فيما بين رعاياه اليونانيين وأن يدفعوا له عوضا عن السفن التي فقدت في الواقعة المذكورة ويعتذروا له عما وقع منهم ✽ فعند ذلك أعلنت الروسيا بحرب الدولة العلية وبارزتها عدة وقائع كان الحرب فيها سجالا بين الطرفين وكانت الغلبة للروسيا وانتهت الحرب بالتوقيع على معاهدة (أدرنة) وسنأتي على ذكرها في محلها ✽ وفي هذه الاثناء تمكن اليونانيون بمساعدة الدول الادبية ومساعدة فرنسا المادية اذ أرسلت لمساعدتهم جيشا عظيما تحت امرة الجنرال (ميزون) من استرجاع أهم مواقعهم الحربية

ثم في ٣ أغسطس سنة ١٨٢٨ اتفق محمد علي باشا والي مصر مع الدول المتحدة على اخلاء (موره) بشروط وهي أولا أن والي مصر يتعهد باعادة من أسر من اليونان وغيرهم في واقعة (ناوارين) وبتحرير من بيع منهم للاهالي ثانيا أن الاميرال الانكليزي يتعهد بارجاع من أسر من المصريين وكذلك السفن التي أخذت أثناء الحرب ثالثا أن الجيوش المصرية تخلي (موره) في أسرع وقت وينقلهم أمير مصر الى الاسكندرية على سفنه رابعا أن السفن المصرية في حالتي ذهابها وايابها تكون مخفورة بسفن فرنساوية وانكليزية خامسا أن اليونانيين المقيمين بمصر باختيارهم لا يجبرون على تركها ماداموا غير مكرهين على البقاء فيها وكذلك من يريد أن يعود مع المصريين بدون اكراه ولا اجبار سادسا يجوز لابراهيم باشا أن يترك في (موره) عددا من العساكر لا يزيد على ألف ومائتين للمحافظة على (مودون) و (كورون) و (ناوارين) و (بتراس) و (كستل تورنيز) أما باقي النقط الأخر فلا بد من الجلاء عنها بدون امهال

(رجوع ابراهيم باشا الى مصر وانتهاء حرب اليونان) فلما عرض هذا الوفاق على ابراهيم باشا أخذ الغيظ منه كل مأخذ لما رأى من أن تعبه لم يعد عليه بأقل نفع ولم يمكنه الامتناع لتهديد سفن الدول له بحرا وجيش فرنسا برا فأصدر أوامره لسائر الفرق التى فى داخل بلاد اليونان بالسير الى الثغور للرجوع الى مصر ولسليمان بيك وكان مقيما بالايه فى مدينة (تريبولتسا) بترك المدينة بعد هدم قلاعها وأسوارها فأخلى المصريون سائر البلاد تدريجا ودخلها الفرنساويون بدون معارضة ولا ممانعة الا (بتراس) فدخلها الجنرال (ميزون) عنوة بعد مقاومة خفيفة

هذا ولنذكر تتميما للفائدة ما فعلته الدول الاوروباوية لتحرير اليونان بعد رجوع ابراهيم باشا الى مصر فنقول ان الدول الثلاث المتحدة وهى فرنسا والروسيا وانكلترا عقدت مؤتمرا فى مدينة (لندن) فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٢٨ ودعت الدولة العلية لارسال مندوب ينوب عنها ويقوم مقامها فيه فلم يقبل الباب العالى ارسال مندوب خوفا من اعتبار ذلك اقرارا على ما أتمه هذه الدول من مساعدة اليونان ❁ أما مندوبو الدول الثلاث فاجتمعوا بلوندرة فى اليوم المعين وقرروا استقلال (موره) وجزائر (سيكلاده) وتشكيلها على هيئة حكومة مستقلة تحت أمير مسيحى تنتخبه الدول وتكون تحت حماية وضمانة الدول الثلاث وتدفع للباب العالى مبلغ خمسمائة ألف قرش فى كل سنة لكن لم يعترف الباب العالى صاحب السيادة بهذه المعاهدة واستمر القتال فى بلاد اليونان لارجاعها اليه فأعلنت الروسيا الحرب عليه وبعد قتال شديد فاز الروس بالنصر والتزم الباب العالى بالتوقيع على معاهدة (أدرنة) فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩ التى كان منها اباحة الملاحة للروسيا من البحر الاسود الى البحر الابيض المتوسط والاعتراف باستقلال اليونان

(حرب الشام)

فعادت بقايا الجيش والدونانمة المصرية الى ثغر الاسكندرية متوجة بالنصر المبين والفوز العظيم لا عار عليها اذا لزم ابراهيم باشا باخلاء بلاد اليونان بعد أن فتحها ونشر لواء الامن فى جميع انحائها وبالعودة الى مصر بعد أن فنى معظم رجاله فى هذه الحروب والمناوشات

وسكف

وكيف يتسنى أولا بتهى بالنسبة الى الدول الاوربارية كلا شئ أن تقاوم حكومتى فرنسا وانجلترا فضلا عن مساعدة الحكومة الروسية لهما * أيلحق مصر والدولة العلية عار أن هزمتا فى واقعة (ناوارين) البحرية التى سبق لنا شرحها والدوناغة التركية لم تكن لتقاوم دوناغتى أعظم الدول الاوروباوية بحرا او براوكيف يمكن الجيوش المصرية أن تقاوم قوة تفوق الدولة العلية مع مالهما من القوة العالية والعظمة السامية على صدهجماتها لعمرى ان مجرد وقوف قوة مصر متحضنة أمام احدى هاتة الدول العظام ليكسبها فخرا جليلا ونبلا جزيلا وشرفا أثيلا ولو خرجت من هذا الموقف الحرج مكسورة لاسيما وان المصريين لم يتعودوا منذ استيلاء العائلات الاجنبية على بلادهم أعنى منذ نحو أربعة آلاف سنة أن يبذلوا أرواحهم بل ولا أموالهم للمدافعة عن استقلالهم وانهم قبلما التئلو دعوا لبذل الارواح فى نيل الشرف والسمعة كما كان سبب الحرب فى بلاد اليونان * تالله ان تغلب المصريين على اليونانيين المشهورين بالبسالة والشجاعة فى مواقع شتى وفتحهم بلادهم لمن أكبر البراهين على ما للمصريين من قوة البأس وثبات الجأش فى الحروب سيما لو علموا أن ذلك يعود على وطنهم بأقل فائدة وأيسر عائدة وبالجملة فلا يمكننا أن نقول ان حرب اليونان لم تفد مصر شيأ فانها ولو لم تعد عليها بفائدة مادية فقد أفادتها فائدة أدبية ألا وهى تدرب عسكرها وبحريتها على أبواب القتال وفنون الحرب لان اقتحام الاخطار وبذل الارواح بغير زاد فى الجندى بريا كان أو بحريا حب الشرف والمخاطرة بالروح فى سبيل نيله لاسيما اذا رأى من رؤسه وضباطه سيرة حسنة فى الشجاعة والنظام العسكرى فانه وان توفى أواستشهد كثير من العساكر المصرية واغتنم أو أحرق أكثر سفنها الحربية فى واقعة (ناوارين) فان ما بقى فيه كفاية لتدريب من ينضم اليهم من الشبان لما اكتسبه فى مواقع القتال من التجربة واتقان هذا الفن الذى عليه المعوّل ومدار حماية الوطن وحفظ أهله فلذلك لم تفترهمة محمد على باشا بل ازدادت عزيمته بعد حرب اليونان فأخذ فى تتميم نظام جيشه واستعداد دوناغته ليعيد ما فقد فى هذه الحروب الهائلة

ولما انشرح صدره مما سمعه من نجله ابراهيم باشا من حسن نظام الجيش الفرنساوى والدوناغات الاوروباوية أمر بانشاء آلايات من السوارى الذين يحملون المزاريق ويلبسون

الزردو الدروع على هيئة جيش فرنسا واستدعى من يسمى المسيو (دى سريزى) لتنظيم الدونانمة والموسيو (بوسون) لتعليم العساكر البحرية وأعطى كلا منهما رتبة بيك وكان الطبيب (كلوت بيك) فى ذلك الوقت باذلا جهده فى ايجاد الاسبتاليات وتحسينها للزومها عند الضرورة

وأما سليمان بيك فكان فى هذه الاثناء بينه و بين ابراهيم باشا بعض حزازة ربما كان سببها حسد الحاسدين ووشى الواشين لانه كيف يظن أن ابراهيم باشا يشكر ما لسليمان بيك من الاعمال المشكورة فضلا عن أياديه فى تنظيم الجيوش المصرية على نظام حسن لانها لم تكن مؤلفة قبل الامن أوباش الارنؤد واخلاط الترك الذين كانوا لابغية لهم الا السلب والنهب ونشر الفساد بين العباد بما كانوا يقترفونه من المحرمات على رؤس الاشهاد كنهب الاموال وسبى الفتيات والنساء زيادة عن خطف الولدان لارضاء شهواتهم البهيمية بدون رادع يردعهم أو قامع يقمعهم عن ارتكاب الآثام الى غير ذلك مما يأبى القلم تسطيره أما جيوش سليمان بيك فكانت مؤلفة من أبناء البلاد الذين يعود عليهم نعيمها وشقاؤها ويلزمهم الدفاع بما لهم وأرواحهم عنها لانها وطنهم ولا يخفى ان حب الوطن من الايمان وكل انسان يجب عليه حب اتساع وطنه لانه كلما ازداد ازدادت الخيرات ونمت البركات وكان سليمان بيك هو ناظم عقدهم وموثق بردهم ولم يكتف بتنظيمهم وتعليمهم بل بث فيهم روح الانتظام وحب الشرف لكن أبى الحاسدون الا ايقاع النفرة بينه و بين نجل سيده الكريم ابراهيم باشا حتى هجره مدة من الزمان ولم يسلمه قيادة الجيش التى كان هو أحق بها من غيره واستمر هذا النفور الى أواسط سنة ١٨٢٩ حتى تداخل بينهما محمد على باشا وأزال ما كمن فى صدر ولده من البغضاء من جهة سليمان بيك مؤكدا له أنه هو أول معضد للجيش ولا يمكن الاستغناء عنه فلذلك صفح ابراهيم باشا عنه وقلده وظيفته فى الجيش فعادت المياه الى مجاريها

هذا ويسوؤنا أن نقول ان مصر مع كونها قد تقدمت فى زمن المغفور له محمد على باشا عما كانت عليه فى زمن المماليك ماليا وعسكريا لكن لم يصب الفلاح من هذا التحسين الا كثرة الضرائب وأعمال السخرة لاتمام الاعمال العمومية التى لم تعد بالفائدة على فلاحى ذلك

الوقت بل على من أتى بعده فكأنه غرس ليجني غيره ولكثرة الضرائب هاجر بعض فلاحى الوجه البحرى الى جهة الشام والاقطار السورية انقيادا لاغراء بعض أمراء هذه الجهات وهمامنهم ان من يلتجئ الى هؤلاء الامراء تكرم وفادته وتحسن مقابلته لكن لسوء حظهم لم ينالوا ما كانوا يسعون وراءه من طلب المنافع الزائدة والخيرات الوافرة ومهاجرة هؤلاء كانت هى السبب فى اضرام النار واشتعال الحرب بين والى مصر وعبد الله باشا الجزار والى سورية ثم بين مصر والباب العالى

وبيان ذلك أن محمد على باشا طلب من عبد الله الجزار أن يرد الى مصر كل من هاجر منها خوفا من ازدياد عدد المهاجرين لو وجدوا سورية بلدا آمنا يمكنهم الاقامة فيه مع عدم دفع الضرائب الثقيلة مثل ما يدفعونه فى مصر لجمع الاموال اللازمة لاعمال الترع واقامة الجسور وسائر الاعمال العمومية الاخرى فأما عبد الله الجزار فأبى ذلك ولم يرض به فاغتاظ لذلك محمد على باشا وعزم على ارجاعهم بالقوة ومما زاد فى غيظه أنه له الايادى البيضاء والنعم الجزيلة على الجزار فانه توسط بينه وبين الباب العالى فى سنة ١٨٢٢ لارضاء السلطان عنه حين أراد الجزار ادخال مدينة دمشق فى دائرة ولايته رغم أنف الدولة العلية وآل ذلك الى أن قهرته العساكر الشاهانية حتى ردته على عقبه بعد ما قتلت وأسرت غالب جيشه ولم يرض عنه الباب العالى الا بتوسط محمد على باشا وبشرط أن يدفع ستين ألف كيسة غرامة فدفع عنه والى مصر جلها ان لم يكن كلها

وفى سنة ١٨٣١ ورد كتاب الجزار الى محمد على باشا بعدم اجابته الى ما طلبه فأخذ فى زيادة عدد الجيش وجمع المؤن والذخائر والخيل اللازمة لنقلها ونقل العساكر المشاة بين مصر والشام وبينما هو مشتغل بجمع رجاله اذ دهمت مصر داهية دهماء وهو تطرق الوباء اليها نعوذ بالله منه وانتشر بسرعة غريبة بين الاهالى وأنفار العسكر

ولما لم يكن اذ ذاك ما لدينا الآن من الوسائط الصحية المانعة لانتشاره وكثرة أذاه فتك بالعباد فتكا ذريعا حتى قيل ان عدد من توفى من المصريين فى شهرى أغسطس وسبتمبر بنيف على مائة وخمسين ألفا وكان عدد سكان القطر حينئذ لا يزيد عن ثلاثة ملايين

(١) ولما اضمحلت وطأة الكوليرة رجع محمد على باشا الى الاستعداد لاجل محاربة الجزار فلم يكن الا قليل حتى سافر من مصر الى العريش الواقعة على الحدود الشامية ست آلايات مشاة وأربعة خيالة ومعهم أربعون مدفعا صغيرا وعدة من مدافع الحصار الضخمة مع ما يلزم من المؤن والذخائر وكان معهما المياه لعدم وجود ما يطفئ لهيب العطش فى هذه الرملة المحرقة الفاصلة بين مصر والشام فقد قاسى الفرنساويون فى اجتيازها أنواع آلام العطش وقت سفرهم لمحاربة البلاد الشامية سنة ١٧٩٩

(حصار عكا) وفى هذا الوقت سافر ابراهيم باشا قائد الحملة مع حاشيته بحرا تخفره الدونانمة المصرية فى أكمل نظام وأحسن ترتيب وأبدع شكل وأغرب وضع حتى وصل مدينة (حيفا) وكانت احتلتها العساكر المصرية قبل قدومه بعد أن فتحوا فى طريقهم (غزة) و (يافا) و (بيت المقدس) و (نابلس) ثم جعل مقره (حيفا) وجمع فيها الميرة والذخيرة وابتدأ فى محاصرة مدينة (عكا) برا وبحرا فكان يحصرها من جهة البحر عدة من البوارج الحربية المسلحة بالمدافع الكبيرة ومن جهة البر ثلاثون ألفا من العساكر المنتظمة وابتدئت أعمال الحصار فى ستة وعشرين خلون من شهر نوفمبر سنة ١٨٣١ وأما عبد الله الجزار فلم يعبأ بهذه الاستعدادات لوثوقه بمنعة المدينة لقوة أسوارها وقلاعها المحيطة بها من كل جهة لاسيما وانه لم يمكن (بونابرت) فتحها فدخل فى نفسه الغرور بذلك ولاعتقاده ان الباب العالى لا يتركه بدون مساعدة وكان كذلك فان الباب العالى أرسل لوالى مصر مندوبين يامرانه أن يكف عن محاصرة عكا وأن يخلى البلاد الشامية ويهددانه بتداخل الباب العالى لو لم يكف عن عدوانه لكن لم يصغ محمد على باشا الى تهديداتهم لعلمه أن الباب العالى لا يمكنه تحقيق هذا الامر لاشتغاله اذ ذاك بمحاربة الروسيا ألد أعدائه لكنه أظهر لهما الامتثال وكتب سرا الى ولده ابراهيم باشا بمضايقة المدينة وتشديد الحصار ليضطر أهلها الى التسليم قبل وصول العساكر السلطانية اليهم لو أرسلت الدولة العلية جيوشها اليهم لالزامه القهقرى

(١) ذكر المسيو (فلكس مانجان) فى كتابه على تاريخ مصر ان عدد السكان كان فى سنة ١٨٠٠ حين احتلال الفرنساويين مليونين ونصفا ولا يخفى ان مصر استمرت فى حروب داخلية وخارجية من ذلك العهد الى التاريخ الذى نحن بصدده فتقدير نا عدد السكان فى سنة ١٨٣١ بثلاثة ملايين يكون أقرب للحقيقة من تقديره باكثر من ذلك

وأمامدينة (عكّا) فلم تكن من المنعة بالمكان العظيم الذى كان يظنه الجزار لان عدم نجاح (بونابرت) أمامها انما كان نتيجة كسة الدونانمة الانكليزية له وقطعها المواصلات بين الشام ومصر من جهة وأخذها مدافع الحصار التى أرسلها قائد الفرنساويين على طريق البحر من جهة أخرى لتعسفر ارسالها برا لوجود صحراء العريش وعدم استيفاء لوازم النقل وكذلك تأخر ابراهيم باشا عن دخولها لم يكن ناشئا عن منعتها بل لعدم وجود مهندسين محنكين بالجيش لارشاد المدفعيين الى الجهة التى يلزم توجيه نيران المدافع اليها لان الشجاعة فى مثل هذه الاحوال لا تكفى على حدتها بل للعلم فيها مدخل لا ينكر ❁ ومما كان يزيد فى ارتباك الجيوش المصرية وعدم تفرغهم لمحاصرة المدينة تمنعا كسة سكان لبنان لهم ومهاجمتهم اياهم فى مناوشات صغيرة متعددة وقد زادت قوتهم حين وصلهم خبر قدوم العساكر الشاهانية لمحاربة الجيوش المصرية والزامها بالعودة الى مصر

(انتصار المصريين بقرب حمص) كان الباب العالى قد تمكن فى هذه الاثناء من جمع عشرين ألف مقاتل وأرسلها لمحاربة والى مصر تحت قيادة عثمان باشا والى حلب فزحف بالفعل هذا الجيش الجرار قاصدا (عكّا) ومستصحبا فى طريقه كل ما لاقاه من عساكر وأعراب ودروز سواء كانت منتظمة أو غير منتظمة ولما بلغ هذا الخبر قائد الجيوش المصرية جمع مجلسا عسكريا من نخبة ضباطه الوطنيين والاجانب للتروى فى أحسن الطرق لرد هجمات العثمانيين فتقرر رأى هذا الجمع على رفع الحصار مؤقتا وارسال الجيوش الا قليلا لحفظ خط الرجعة الى (عكا) لمهاجمة الجيش العثمانى فى طريقه والانقضاض عليه بغتة وتفريق شمله قبل أن يأتيه المدد فقبل ابراهيم باشا هذا المشروع وجعل نفسه رئيسا عاما على الجيش ووكل أمر الترتيبات اللازمة لسليمان بك فلما عهد اليه هذا الامر جمع ستة آلاف من نخبة عسكره وعددا كثيرا من المدافع القوية وتقدم على طريق دمشق لمحاربة الاتراك وفى هذه الاثناء علم عبد الله باشا الجزار بتضعضع قوة المصريين عقب سفر نخبته وقضبة قواده الى دمشق خرج من المدينة وهاجم المحاصرين فتظاهر عليهم وأخذ الكثير من مدافعهم وقاتلهم بها لكن ابراهيم باشا لم يعبأ بهذه الغلبة بل جد فى طريقه لملاقاة العثمانيين حتى اذا عاد بالنصر شدد الحصار على (عكّا) وفتحها عنوة

ثم وصل الى مدينة (حمص) حيث التقى فى ضواحيها مع جيش عثمان باشا وكان هذا الجيش مؤلفا من فرسان العرب والاكراد فأحاطت بالعساكر المصرية احاطة الهالة بالقمر حتى كان يخيل للناظر أن الجيش المصرى لايلبث أن يتفرق أيدى سبا ولكن قام حسن نظامه ومهارة ضباطه وشجاعة عساكره مقام كثرة العدد وأغنت عن وفرة العدد وذلك أن سليمان بك رتب العسكر على هيئة صفوف منتظمة ووضع وراءها بطاريات المدافع حتى لايراها المهاجم فانخدع القائد التركى بهذه الحيلة وهجم بكل قوته على الصفوف المصرية فلم ترد هجومهم بل ثبتت مكانها الى أن صارت العساكر التركية على مسافة قليلة فتقهقر المصريون خلف المدافع وأطلقت هذه قنابلها فاكتسحت كل من بالسهل من مشاة وركبان وبعد ذلك اقتفى أثرهم المشاة المصريون عدوا وأبلوا فيهم بلاء حسنا وأعملوا فيهم السيف والرمح الى أن أوصلوهم الى نهر العاصى حيث غرق كثير من الاتراك أما عثمان باشا وباقى الضباط فالتحقوا فى مدينة (حماه) وكانت هذه الواقعة فاتحة الفتوحات الشامية وباكورة النصر على الجيوش التركية كما سيجيى مفصلا ان شاء الله تعالى

(فتح مدينة عكا) ثم سار ابراهيم باشا حتى احتل بعلبك بجيشه بعد أن أبقى فى جميع الطرق من العسكر مايلزم لحفظ خط الرجعة ومكث هناك مدة خوفا من رجوع العثمانيين الى الكرة ولما علم أن عثمان باشا أرسل الى الباب العالى يطلب المدد وأنه لا يأتيه الا بعد شهرين أو أكثر اذا أسرع فى ارساله ولم يعقه عائق توجب البطء رجع الى مدينة (عكا) وجدد الحصار عليها بكل شدة برا وبحرا بمساعدة العرب والدروز والمارونية الذين أتوه بأنفسهم طوعا بعد أن ظهر على الاتراك وكذلك الامير بشير أكبر أمراء لبنان وأعظمهم شأنا أتى الى معسكر ابراهيم باشا وطلب الدخول تحت حمايته

وأخذ الحصار حينئذ وجهة أخرى واستمر اطلاق المدافع القوية بغاية الدقة والاتقان والاحكام ولم يزل الاطلاق مستمرا حتى تهشم السور وفتحت فيه فتحتان متسعتان وفتحة ثالثة صغيرة وحينئذ لم يتردد ابراهيم باشا فى مهاجمة المدينة وأخذ فى وضع الاستعدادات اللازمة وعين يوما للهجوم وكان يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ وعند الصباح انقضت الجيوش المصرية على الفتحات الثلاث فاستولت على اثنتين منها وترددت قليلا أمام الثالثة

فبادر

فبادر ابراهيم باشا وتقدم بجزء من جيشه الاحتياطي لمساعدة هذا القول فدبت فيهم الحمية العسكرية وساروا عدوا حتى وصلوا الى الفتحة المذكورة وصعدوا الى السور واستمر القتال هناك بالسلاح الابيض بينهم وبين من بقي من الحامية الى المساء فاستسلم الباقون وألقوا سلاحهم وأخذ في هذه الوقعة عبد الله الجزار أسيرا وأرسل توا الى مصر فأكرم محمد علي باشا مثواه وأحسن لقياه

ولما انتشر بمصر خبر فتح (عكا) لاسيما وقد أعيت (بونابرت) الحيل في أخذها زينت المدينة عدة أيام متواليات وكان البشر اذ ذاك يتلألأ على وجوه المصريين ويعلن عما ملأ قلوبهم من الفرح والسرور اذلم يعهد من ابتداء تولي العائلات الاجنبية على مصر أنها انتصرت مثل هذا الانتصار الذي توسم المصريون به التقدم والنجاح تحت ظل العائلة المحمدية العلوية وطفقوا يدعون الله أن يديم لهم محيي مجد مصر ويطلبون منه سبحانه أن يحفظ الذي أحياها من موتها حتى يتم مشروعاته وينيلها استقلالها الاداري تحت رعاية الدولة العلية الاسلامية

(انتصار المصريين بقرب حلب) كان لسقوط مدينة (عكا) في أيدي المصريين موقع عظيم في قلوب العثمانيين فاضطرب الباب العالي وخشي من تعاظم الخطب وازدياد مطامع المصريين فأراد تلافي الامر قبل اتساع الخرق على الراقع فأمر بحشد الجيوش والكتائب وجمع بكل عناء وتعب ستين ألف مقاتل وأرسلهم لمحاربة ابراهيم باشا تحت قيادة حسين باشا مبيد الانكشارية ولقبه بلقب (سردار أكرم) ووهب له ولاية مصر وولاية (كريت) لكن سوء حظه لم يساعده على دخول مصر لحسن حظها كما سترى

فتقدم حسين باشا المذكور بجيشه مع البطء والتواني حتى انه لم يصل الى مضايق جبال (طوروس) الا في أوائل شهر يوليو وكان لم يزل بالبعد عن مدينة (أنطاكية) خشية من ملاقاة ابراهيم باشا ومن معه من أسود مصر بل أرسل محمد باشا والي حلب مع مقدمة الجيش وأمره أن يتحصن في مدينة حمص هذا ولم يخف على ابراهيم باشا انفصال معظم الجيش العثماني عن مقدمته وكونه على مسافة بحيث يتعذر عليه الاسراع في مدد المساعدة

اليها اذا مست الحاجة لذلك من أكبر الغلطات العسكرية وأعظم الهفوات الحربية بل تنبه لذلك وأراد انتهاز الفرصة وضرب المقدمة أولا ثم محاربة حسين باشا وجيشه ثانيا فتوجه بسرعة نحو دمشق ودخلها بدون عناء وترك فيها حامية قليلة ثم أخذ يجد ويجتهد فى السير نحو مدينة حمص حتى وصل أمام معسكر محمد باشا والى حلب بثلاثين ألف مقاتل قبل أن يشعر به أحد واستعد للنزال فلما رأى قائد الجيوش التركية مندوحة عن القتال أخذ فى الاستعداد والتأهب له

وأما ابراهيم باشا فانه سلم قيادة الجند الى سليمان بيك لما شاهد منه من الحنكة والدراية فقسم الجيش الى ثلاثة صفوف متوازية وجعل يمينه مرتكزا على صحراء وشماله على بحيرة صغيرة ووضع جنوده الخيالة فى الجناحين وثلاث بطاريات طوبجية فى الامام وأربعا خلف الجيش لتتقدم عند الضرورة وبعدما أتم هذه الترتيبات ابتدأ باطلاق النيران من البطاريات الامامية

أما محمد باشا والى حلب قائد الجيوش التركية فلم يرتب جيشه الا على صفين فقط ولا يخفى ما ينشأ عن ذلك من ضعف نار المشاة ولم يحسن ترتيب الطوبجية لانه فرقها ووضع بين كل أورطة من المشاة مدفعا واحدا فكان عدم الاحتياط فى ترتيبها سببا فى اضاعة قوتها ثم ارتكب غلطة أخرى أعظم من الأولتين وهى وضع جناحه الأيمن فى نقطة بحيث يتعذر عليه الخروج منها بسرعة لمساعدة الجناح الآخر أو القلب وهذه النقطة كانت محاطة بترعة وبركة وطريق عام فلما رأى سليمان بيك هذه الترتيبات وعلم أن جناح الترك الأيمن فى حيز العدم وجه كل قوته نحو الجناح الايسر والقلب فصوب اليهما مدافع بطارياته الامامية وفى أثناء اطلاق القنابل ذهب ببطارياته الاحتياطية وبعض من الخيالة وسار والجميع حتى وصلوا الى طرف الجيش من جهة اليسار وهناك هجم بخيالته وخيله فشتت شمل الجناح الايسر والقلب ومزقهم أيدى سبا حين كان الجناح الايمن لا يقوى على التحرك من مكانه فانهزم الجيش التركى ورجع محمد باشا وما بقى من جيشه الى مدينة حلب ووجد بالقرب منها حسين باشا مع بقية الجيش وكانت هذه الواقعة فى ٩ يوليو سنة ١٨٣٢ وبلغ عدد القتلى من الترك ألفين والاسرى ثلاثة آلاف وكانت الغنيمة فيها للمصريين اثنى

عشر

عشر مدفعا وكثيرا من الذخائر والخيام فتقهقر محمد باشا الى حلب حيث التقى بحسين باشا وجيشه ولما أراد حسين باشا الدخول فى مدينة حلب ليتحصن فيها منعه سكانها خوفا من انتقام ابراهيم باشا منهم فاضطر حسين باشا أن يتقهقر ليبحث عن مكان حصين يمكنه فيه أن يوقف سير المصريين ويصدهم عن بلاد الاناطول واستمر فى رجوعه حتى وصل جبال (طوروس) الفاصلة بين الشام والاناطول وتحصن فى مضيق هناك يقرب من مدينة تدعى (بيلان) حيث جمع شتيت قواه مع الاحتياطى من جيشه وهذا المضيق هو الطريق الوحيد بين الشام وبلاد الاناطول وهو مشهور فى التاريخ لمرور الاسكندر المقدونى منه فى الجيل الرابع قبل المسيح حين زحف بجيشه لفتح بلاد الشام ومصر ولمرور الافرنج حين أتوا على طريق قسطنطينية فى زمن الحروب الصليبية لفتح بيت المقدس

(واقعة بيلان) فى أثناء هذه المدة تقدم الجيش المصرى بغاية السرعة حتى وصل مدينة حلب فدخلها فى يوم ١٧ يوليو سنة ١٨٣٢ بدون أن يجد أدنى مقاومة من الاهالى وترك بها جزأ من المهمات العسكرية وخفرا قليلا من الجنود ولم يزل مجدا فى طلب العدو مرسلا فى أثره طلائع الجيش حتى عثر على حسين باشا مع جيشه متحصنين فى جبال (طوروس) حيث أقيمت القلاع الحصينة على قمم الجبال حتى صار الممر صعبا فوصل ابراهيم باشا مع جيشه يوم ٢٩ يوليو من هذه السنة الى معسكر الجيش التركى فاندهش من مناعة الممر لكن لم يلبث أن جمع مجلسا حربيا مركبا من كبار ضباط الجيش وتداولوا الرأى فى الطريق التى يمكن بها الاستيلاء على هذا المضيق بدون أن يعرض جيشه الى مدافع العدو المركبة على قمم الجبال فبعد أن استكشفوا مواقع العدو والنقط التى نزل بها وتحققوا أنه يوجد قمم أعلى من هذه القمم استقر رأى هذا المجلس على الاسراع فى احتلال هذه القمم العليا بدون تأخير حتى يتمكن الجيش المصرى من اطلاق بنادقه ومدافعه على الجيش التركى الذى يكون اذ ذاك فى موضع حرج فصدرت الاوامر الى العساكر المصرية بالصعود واحتلال القمم المذكورة بدون أن تستريح من التعب وما ذاقوه من النصب ورفعت المدافع الضخمة مع العناء والمشقة الى هذه القمم الشامخة وبمجرد ما تمت هذه التجهيزات الابتدائية صوب المصريون نيرانهم على العدو من أعلى الى أسفل فوقع

الفشل فى الجيش التركى ولم يدر كيف يقاوم عدوا نصاله مقذوفاته ولا يمكنه أن يجاوبه بمثلها ولم يمض كثير من الزمن حتى تقهقر الاتراك وتركوا المعاقل والحصون وأرادوا النزول الى الوادى فقابلتهم سوارى المصريين بالسيوف وأخذوا فى ضربهم حتى تفرق شملهم واغتنم المصريون فى هذه الواقعة خمسة وعشرين مدفعا وألفين من الاسرى وكثيرا من الذخائر والتجأ كثير من الترك الى ضواحى مدينة اسكندرونة للهرب على الدونانمة لكن لسوء حظهم كانت الدونانمة قد سافرت فلما علم المصريون بذلك اقتفوا أثرهم وتبعوهم الى اسكندرونة حيث لحقوهم فى اليوم التالى وطردوهم من المدينة وغنموا منهم أربعة عشر مدفعا وجماعة كبيرا من الاسرى وكانت هذه الواقعة هى الطامة الكبرى والخيبة العظمى لحسين باشا وجيشه ويقال ان حسين باشا ترك جيشه ليلا واختفى حتى لم يوقف له على أثر خوفا مما يلحقه من العار بسبب انخذاله أمام جيوش أحد اتباع الدولة العلية وفرارا مما يحكم عليه به من العقاب والقتل بسبب ذلك واختلف الناس فى كيفية فراره على أوجه شتى فقال فريق انه فر على مركب يونانية بعد ان أخذ كل ما كان معه من ماله الخاص ومال حكومته لكن غدر به ربان السفينة واغتال ماله وألقاه ومن معه على جزيرة صغيرة من جزائر الارخبيل حتى أهلكهم الجوع فيها وقال فريق انه اختفى فى احدى قرى الاناطول وأمضى فيها ما بقى من عمره فى عيشة بسيطة كأحد أفراد الرعية ولم يرد الظهور بعد ذلك وكل هذا رجم بالغيب أما الحقيقة الحقة فلا يعلمها الا موجد الكائنات وبارئ النسمات سبحانه جل جلاله وعظم سلطانه

(واقعة قُونِيَه) ثم ان ابراهيم باشا اجتاز بعد ذلك جبال (طوروس) وجاوز حدود بلاد سوريا ودخل ولاية (أَطَنَه) ولكن لم يسغ التقدم الى الامام بل بذل جهده فى تنظيم ما فتحه من الولايات بعد أن أدخل فى دائرة فتوحاته مدائن انطاكية وطرسوس وأطنه وأقام مع جيشه فى هذه المدينة الى ١٣ اكتوبر سنة ١٨٣٢ ثم انتقل بخيله ورجله الى الامام لمقابلة الجيش التركى الجديد الذى أرسله السلطان لمحاربته لانه لم يكن من عاداته أن يدع العدو يهاجمه بل كان هو يقابله فى سيره ويهجم عليه من حيث لا يشعر فضلا عن أن يوقع فى صفوفه الفشل وكان هذا الجيش مؤلفا من جميع الشعوب المكونة للدولة العلية ولا رابطة

بينهما من الروابط التى يتحرك بها الجيش حركة واحدة كرجل واحد لان الدولة العلية لم تتمكن من التأليف بين قلوب رعاياها حتى تكون منهم أمة واحدة عثمانية بل لم يزل كل شعب محافظا على تقاليده وعوائده ولا تجمعه مع باقى الشعوب الا جامعة الخضوع لسلطان واحد ذى بأس وبطش ومن المعلوم أن تباين الشعوب واختلاف أهوائهم ومشاربهم لا تزيله قوة السلطة ولا تمنعه من أصله وان كانت تخمد ناره وتكسر أواره ألا ترى ان السلطة التى تجمع هذه الاضداد وتؤلف بينهم بحسن ايالتها وتلم شعث ما بينهم من تنافر الجنسية واختلاف المشارب اذا أحسوا منها لوهنا أو قصورا فى القوة والثروة طمحت أبصارهم وتشوقت نفوسهم الى مبارزتها بالعداوة وأسرع كل شعب الى بنى جلدته وأهل مشربه وحسبك دليلا على ذلك معاهدة برلين وما اشتملت عليه من استقلال بعض الشعوب أو انضمامها الى احدى الدول الاوروبية ولنقتصر على ذلك خوفا من الخروج عما نحن بصدده ونرجع الى ما كنا فيه فنقول

كان هذا الجيش تحت قيادة رشيد باشا الذى اشترك قليلا مع ابراهيم باشا فى محاربة (موره) وخصوصا أمام مدينة (ميسولونجى) وامتاز بعد ذلك فى محاربة من يدعى مصطفى باشا والى (اشقودره) ببلاد الارنؤد ولما اجتمع هذا الجيش العرمرم بمدينة (استانبول) استعرضه السلطان بنفسه وضم اليه ستة آلايات من المشاة المنتظمة مع اضافة عدد وافر من المدافع حتى بلغ عدده ستين ألف مقاتل ثم تقدم رشيد باشا الى بلاد الاناطول لصد هجمات ابراهيم باشا عن مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة العلية وكان ابراهيم باشا قد تقدم حتى وصل مدينة (قونيه) وجعلها مقرا لاعماله الحربية ومركزا للذخائر والمؤن وبث طلائع جيشه الى سائر ضواحى البلد وتفقد بنفسه كل النقط المهمة واستعرض جيشه فوجد من حسن نظامه ما انشرح منه صدرا وقربه عينا وأمل الظفر على رشيد باشا كما انتصر على حسين باشا وما النصر الا من عند الله

وفى ١٨ دسمبر من سنة ١٨٣٢ وصلت مقدمة الجيش التركى تحت قيادة رؤف باشا الى شمال مدينة (قونيه) وكانت هذه المقدمة مؤلفة أغلبها من الجيوش الغير المنتظمة فناوشهم ابراهيم باشا ليتحقق قوة انتظامهم ودرجة ثباتهم ولما آنس منهم الضعف أراد أن يظفر بهم

ويفرق شملهم ويشتت جمعهم قبل وصول الجيش فلم يقبل رؤف باشا الحرب لتحققه من عدم الثبات أمام الاسود المصرية فانقضى يوما ١٨ و ١٩ في مناوشات خفيفة كانت نتيجتها أخذ بعض مدافع وبعض أسرى من الاتراك ثم في صبيحة يوم ٢٠ من الشهر انتشر خبر وصول رشيد باشا وجيشه الى مقربة من (قونيه) وحينئذ تحقق الكل أن هذه الوقعة ستكون خاتمة الحرب وانه لو انهزمت العساكر التركية خيف على الدولة العلية من تقدم المصريين نحو القسطنطينية وبمجرد وصول رشيد باشا أخذ يتأهب للقتال فرتب جيشه المركب من ستين ألف مقاتل على أربعة صفوف وجعل الخيالة لوقاية الخلف والاجنحة لكنه ارتكب الخطأ الذى كان سببا فى انخذال حسين باشا أمام حلب وهو تفريق المدافع بين كل أورطة وأخرى وتشتيت قواها وتفريقها حتى لا يعود لنيرانها تأثير ومن البديهى ان نفس الاسباب تنشأ عنها نفس المسببات

وأما ابراهيم باشا فلم يكن معه اذ ذاك الا ثلاثون ألف مقاتل مدربون على فنون القتال وحضروا كل الوقائع الحربية التى حصلت بين الترك والمصريين من ابتداء الحرب مع أن الجيوش التركية كانت مؤلفة من أحداث مختلطى الاجناس مختلفى الملل ومع ذلك لم يسبق لاغلبهم اقتحام نيران الحرب ومشاهدة أهوالها ومما قوى فى قلوب المصريين الامل فى الفوز والانتصار ثقتهم برئيسهم وتعدد النصر لهم المرة بعد المرة فى سائر الوقائع التى شهدوها وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين

وبعد أن انتظم كل من الجيشين تقدم الجيش التركى الى الامام أما المصرى فمكث فى مكانه لا يبدى حراكا وكان الضباب الكثيف الكثير الوجود فى بر الاناطول خصوصا فى مثل هذا الشهر سادلا أستاره على الجيشين ومخفيا كلا منهما عن أعين الآخر ولذلك لم يبدأ ابراهيم باشا بالضرب كى لا يعرف العدو مكانه أما رشيد باشا فبمجرد وصوله على مسافة خمسمائة متر ابتدأ باطلاق البنادق والمدافع فعلم ابراهيم باشا وسليمان بك ترتيب جيش العثمانيين وتفريق مدافعهم ثم شاهد سليمان بك المشاة التركية انفصلت بسبب الضباب عن الخيالة فأمر فى الحال المشاة من المصريين بالدخول بين الفريقين ليستحيل اجتماعهما أو رجوعهما الى ما كانا عليه من الالتئام والانضمام ولقد أوقعت هذه الحركة العسكرية الرعب والفزع

فى قلوب الاتراك فوقفوا مبهوتين يتقدمون رجلا و يؤخرون أخرى الى أن فاجأت الخيالة المصرية الخيالة التركية وأعملت فيها السيف حتى بددتها ووجهت المدفعية المصرية قنابلها على المشاة التركية فأهلكتها ودمرتها

ولما رأى رشيد باشا أن لامناص من الانهزام أراد أن يستقتل فى الحرب فنزل بنفسه فى وسط المعركة يقاتل كجندى ولكن لم يفز ببغيته بل وقع أسيرا فى أيدى المصريين فجاؤا به الى ابراهيم باشا فأحسن وفادته ولما انتشر خبر أسره وقع الفشل فى صفوف الاتراك فولوا الادبار وركنوا الى الفرار وفاز المصريون بفوز لم يسبق له مثيل فى تاريخهم واغتنموا من هذه الوقعة نيفا ومائة مدفع وكثيرا من الذخائر وأسروا عشرة آلاف عسكرى كان من ضمنهم كثير من القواد العظام والضباط الكرام

وكان لهذه الوقعة تأثير مهم فى قلوب سكان الاناطول وصار المصرى أو من يتبعه مهيبا معظما أينما حل ومما يؤيد ذلك ما روى أن شخصا يدعى محمد أغا دخل مدينة أزمير ومعه أربعة رجال واستولى عليها باسم ابراهيم باشا وطرد حكامها واستبد فيها بأمره ولم يقدر أحد من السكان ولا من غيرهم على اخراجه لكنه مالبث أن اضطرته العساكر الشاهانية الى الهرب واخلاء المدينة أما ابراهيم باشا فلم يرد أن يزيد شواغله باحتلال (أزمير) لما يترتب عليه من سلخ جزء من جيشه وارساله اليها فانكر معرفة محمد أغا المذكور وبذلك زالت هذه المسألة الغريبة التى ليس لها أدنى أهمية حربية ولكن أوردناها اثباتا لما وقع فى قلوب الاتراك من بأس المصريين وهيبتهم

(تداخل الدول) ولقد اضطربت لذلك الدولة العلية فخشيت من تقدم ابراهيم باشا مع جيشه وأوجست خيفة من سوء العاقبة ولم يبق لها من الجيوش المنتظمة ما تعترضه به فى طريقها فاستعانت بالسياسة الاوروباوية فتداخلت الدول العظام فى المسألة لتسويتها بحل مرضى للطرفين خشية من دخول ابراهيم باشا اسلامبول واستفحال أمره

* وأما الروسية فانتهزت هذه الفرصة للتداخل بالفعل بين الدولة العلية ورعاياها المصريين فارسلت سفنها الى شواطئ الاناطول الشمالية لمنع تقدم ابراهيم باشا نحو القسطنطينية وأنزلت الى البر بضا الباب العالى نيفا وخمسة عشر ألف نفس من جيشها

لمحاربة ابراهيم باشا اذا اقتضى الحال وكان ذلك منها لما خشيت من انه لو استولى محمد على باشا على تخت الدولة العلية لم يتيسر لها حينئذ تنفيذ وصية بطرس الكبير فتداخلت فرنسا وانكلترا وعارضتا الروسيا فى نزول عساكرها فى أرض الدولة العلية وبعد مخابرات طويلة التزم الروسيون بسحب عساكرهم الى الحدود وتوصلتا أيضا الى ابرام الصلح بين السلطان محمود ومحمد على باشا بأن يعطى ولاية مصر مدة حياته ويقلد ولايات كريد والشام وقسم اطنه

وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة (كوتاهيه) نسبة الى البلد التى كان ابراهيم باشا بها وقت الاتفاق ولم يتجاوزها اتباعا لاوامر الدولة وصدرت ارادة السلطان الشاهانية بذلك فى مايو سنة ١٨٣٣ وبعد ذلك أخلى ابراهيم باشا بلاد الاناطول واجتاز جبال (طوروس) عائدا الى الشام حيث أخذ فى تنظيم البلاد ونشر أسباب الراحة والامن بين العباد

أما الباب العالى فأجاب الى هذه المطالب اتباعا لمشورات الدول الاوروباوية عموما وفرنسا وانكلترا خصوصا فانهما بذلتا جهدهما فى اقناع الباب العالى بمصالحة تابعه بدون تداخل الروسيا دخولا حربيا فانه أمر لا يؤمن أن يعود على تركيا بالارضاء فقبل الباب العالى ذلك ظاهرا وأخذ فى الاستعداد سرا فى تدريب الجيوش وتجهيز العدد والعدد لاسترداد ما سلب من أملاكه كما سيجىء ذلك مفصلا

هذا أما الروسيا فتمكنت فى مدة نزول عساكرها بأرض الدولة من ابرام معاهدة مع الباب العالى تدعى معاهدة (أنكار اسكله سى) كان من أهم شروطها أن كلا من المتعاقدين يتعهد بالذب والمدافعة عن الطرف الآخر عند حصول خطر داخلى أو خارجى له ومنها غير ذلك من الشروط التى لا تخلو من الاذلال والاجحاف ولكن بمساعدة المقادير لم تنفذ شروط هذه المعاهدة مطلقا لاحتجاج الدول الاوروباوية عليها ولتنبه الباب العالى الى مضارها

وأما ابراهيم باشا وسليمان بك فأخذا ينظمان البلاد الشامية تنظيما اداريا وسياسيا وحربيا وعسكريا حتى ساد الأمن فى ربوعها وانتشرت السكينة فى أنحائها وأمن على النفس والمال من أن تعبث بها أيدى الظلم والاعتساف وراجت التجارة واتسع نطاقها وكثرت المعاملات بين الشام والبلاد الاوروباوية وازدادت الصادرات والواردات ضعفى ما كانت

عليه مقبل ضمها الى مصر وعمت المحصولات وصار كل انسان واثقا بانه يحصد ما يزرع بدون أن يشاركه العرب أو تقاسمه فيه الحكام كما كان حاصلا قبل حلول ابراهيم باشا بها ثم أمر ابراهيم باشا بزرع كثير من شجر التوت اللازم لازدياد محصول الحرير فغرس نحو مائة ألف شجرة وغرس فى ضواحى مدينة أنطاكية أشجار الزيتون وقطعت جبال سوريا وهضباتها بكروم العنب لتصدير الخمر فزهت البلاد الشامية وأينعت وعادت الى بعض ما كانت عليه فى أعصر الفينيقيين والرومانيين وتحقق الثقات أنها لو استمرت تابعة لمصر لصارت من أخصب بقاع الدنيا وأكثرها زراعة وتجارة وفى هذه الاثناء أنعم العزيز محمد على باشا على سليمان بك الفرنساوى بلقب باشا مكافأة له على خدمته الصادقة أثناء هذه الحروب لكن لم يستقر أمر البلاد الشامية فى قبضة محمد على باشا اذ لم يأل الباب العالى جهدا فى استرجاعها اليه فأخذ يستعد برا وبحرا ويتروى مع الدول فى الطريق المؤدية الى ارجاع الشام اليه خصوصا قسم أطنة الواقع خلف جبال (طوروس) لان المصريين باحتلال مضايق هذه الجبال يمكنهم الاغارة على بلاد الاناطول فى أى وقت شاؤا

(**عصيان لأهل الشام أول مرة**) استمرت الشام على هذا التقدم الى أوائل سنة ١٨٣٤ فأصدر محمد على باشا أوامره المشددة الى نجله ابراهيم باشا باحتكار جميع أصناف الحرير لجانب الحكومة وبضرب جزية جديدة على كل الاهالى بدون تمييز بين الجنسية أو الديانة وبتجهيز عدة آلايات من سكان البلاد الشامية ومما زاد أهل الشام انحرافا عن محمد على باشا أمره بنزع السلاح من جميع الاهالى لانهم من شعوب غير مؤتلفة وديانات مختلفة وعادات ليست بمتفقة ولذلك لا ينقطع الشقاق من بينهم الامر الذى يفضى غالبا الى استعمال السلاح لاسيما وأن البلاد الشامية تحفها من جهة الشرق صحارى رملية يسكنها بعض قبائل العرب الرحل الذين لا طريق لتكسبهم ولا سبيل لتعيشهم الا السلب والنهب والتعدى على القرى الواقعة على حدود الصحراوات وربما توغلوا فى داخلية البلاد لهذه الغاية المشؤمة والسجية المذمومة فلذلك صارت الاسلحة النارية وغيرها من ضروريات السكان ولوازمهم للدفاع عن أنفسهم والذود عن أولادهم والذب عن أموالهم فالزامهم بعدم حمل السلاح بمثابة جعلهم هدفا لسهام تعدى الغير عليهم وهم عزل ولم يدر بخلدهم

أنه بحسن ادارة ابراهيم باشا وسهره على راحة الاهالى صار لم يخش من هؤلاء العرب على تكدير كأس الراحة العمومية وأن ابراهيم باشا لما عرف به من الشجاعة وحسن السياسة كان كفؤاً للذود والدفاع عنهم واذا تقرر ذلك فقد صار حمل السلاح مضراً بالهيئة لعدم الاحتياج اليه للدفاع عن المال والنفس واستعماله حينئذ لا يكون الا فى المخاصمات الخصوصية بين أفراد الطوائف المختلفة ولما كان لواء الامن منشوراً والعدل منتشراً صار أمر نزع السلاح ضرورياً لاستتباب الامن وتوطيد أركانه بين هذه الامم مختلفى الديانات والمذاهب والاجناس والعقائد لكن اتخذ المفسدون هذا الامر ذريعة لالقاء المفاسد بين الاهالى وتوغير صدورهم من الادارة المصرية التى لم يروا فى باقى الولايات مثلها فى الانتظام والعدل بين الرعية وأفهموهم أن محمد على باشا لم يأمر بهذا الامر الا ليستعبدهم ويغتصب أملاكهم وأموالهم بعد تجريدهم من السلاح

فلما وصلت هذه الاوامر الى ابراهيم باشا وكان اذ ذاك فى مدينة (يافا) لم يتردد فى نشرها بين القبائل وفى سائر البلاد مشدداً فى تنفيذها بدون امهال ولا توان متوعداً من يبدى أدنى معارضة بصارم العقاب وشديد الجزاء فتأثر لذلك كل الاهالى ما بين صغير وكبير وشريف وحقير وأخذوا فى التعصب ولما لم يجدوا ثمرة لتعصبهم ورأوا أنه لابد من نزع السلاح من أيديهم طوعاً أو كرهاً عزموا على الامتناع وشق عصا الطاعة وساعدهم على ذلك أرباب الغايات وأطمعوهم فى المساعدة مادياً وأدبياً اذا اقتضاها الحال فصغوا لوسوسة هؤلاء الشياطين وغواية الغاوين

وابتدأت الثورة بجوار البحر الميت (بحيرة لوط) وعلى شواطئ نهر الاردن بجوار مدينة أُورِيشَلِّم (١) (بيت المقدس) وأعلن قبائل هذه الجهات أنهم لم يذعنوا ولم يمتثلوا قط لاوامر الباب العالى فكيف يتبعون أوامر والى مصر الذى هو تابع له وأنهم يريدون المحافظة على استقلالهم ولو كان فى ذلك هلاكهم عن آخرهم وكان ذلك فى شهر ابريل سنة ١٨٣٤

(١) قال ياقوت فى معجمه أوريشلم بالضم ثم السكون وكسر الراء وياء ساكنة وشين معجمة مكسورة ويروى بالفتح وميم وهو اسم لبيت المقدس بالعبرانية ويروى أوريشلوم وأوريشلم أى بتشديد اللام المفتوحة اهـ

فلما

فلما وصل الى ابراهيم باشا خبر عصيانهم قام لوقته مستصحبا معه فرقة من جيشه وسار قاصدا وادى الأردن لمعاقبة العاصين وجدّ فى سيره حتى وصل مدينة أورشليم قبل أن يبلغهم خبر قيامه من (يافا) فاستدعى اليه أعيان القوم وأكابرهم فمثلوا بين يديه وسألهم عن سبب توقفهم فى الامتثال لأوامر الوالى وهل هم مصرّون على التمادى فى العصيان فاجابوه بأنهم غير معارضين فى احتكار الحرير لكنهم معارضون كل المعارضة فى أخذ شبانهم الى العسكرية وأنهم مستعدون لدفع الضريبة ولو ضعفين ولارسال بعض أولاد المشايخ بصفة رهينة تأمينا على طاعتهم بشرط اعفاء شبانهم من العسكرية أما نزع السلاح فلم يذعنوا له مطلقا

فلم يقبل ذلك منهم ابراهيم باشا بل أخبرهم أنه لابدّ من تنفيذ أوامر والده بدون تغيير أو تبديل فلما رأوا أن لا مناص استأذنوا فى العود الى المدينة وعرض ما تم بينه وبينهم من الحديث على الاهالى وأوروا أنهم فى حد ذاتهم مذعنون للاوامر وسيبذلون جهدهم فى اقناع القوم بالامتثال لكنهم يرجون منه لو خاب مسعاهم ولم يقبل الاهالى هذه الطلبات أن لا يؤاخذهم ولا ينسب ذلك الى سوء نيتهم وفساد طويتهم فأذن لهم بالذهاب مظهرا اعتقاده بحسن نيتهم وكان يريد باظهار البشاشة لهم وعدم الشدّة عليهم التخلص من الحرب فرارا من عدوّ هو أنكى وأشدّ بطشا من عصيان الاهالى ألا وهو الهواء الاصفر الجالب للموت الاحمر الذى أتى مع الحجاج عند عودتهم من تأدية الفريضة وفشا بأورشليم وفتك بأهلها فتكا ذريعا حتى خيف امتداده وتعديه الى خارجها فقفل ابراهيم باشا راجعا الى (يافا) ومكث ينتظر جواب أهالى المدينة ولم يظهر الوباء فى مدينة (يافا) ذلك الوقت

ولقد كان لمجىء ابراهيم باشا أمام مدينة القدس تأثير حسن فألقى الرعب فى قلوب القبائل المجاورة وهدأ الاهل وعادت السكينة كما كانت لكن هذا الهدوء لم يكن الا ظاهرا لان ادخال شبان البلاد فى الخدمة العسكرية وزيادة الضرائب عما أوغر صدور السكان على الادارة المصرية فلم يكن سكوتهم الا انتظار الفرصة مناسبة يشقون فيها عصا الطاعة

ولقد ساعدهم الحظ فلم يمض عليهم طويل زمن حتى سنحت لهم تلك الفرصة المنتظرة وذلك انه شاع ان الدولة العلية تجمع الجيوش وتؤلف الكتائب فى بلاد آسيا الصغرى وان رشيد

باشا الذي كان قائد الجيوش التركية في واقعة (قونيه) وأسرفيها كما سبق لنا ذكره في محله ولي قيادة هذا الجيش الجديد ليعوض ما فقده من شهرته في تلك الواقعة فلما شاع ذلك الخبر وعلم به العرب النازلون على ضفات البحر الميت نزعوا الى العصيان وامتدت تلك الثورة بسرعة عجيبة الى جبال يهوذا حتى تفاقم الخطب وتعسر الخلاص لولا ما اتصف به ابراهيم باشا وقائده سليمان باشا من العزم في الخطوب والحزم في الكروب

(عصيان الشيخ قاسم وأبي غوش) وكان من المحرضين على هذه الثورة الشيخ قاسم حاكم مدينة (نابلس) وهو من عائلة شريفة شهيرة بشممها وعراقتها في النسب ومن مآثر المرحوم ابراهيم باشا أنه بذل له ولاولاده جزيل نعمه وولى أكبرهم مدينة (حبرون) ليستميل اليه هذه العائلة المسموعة الكلمة في سائر أكناف المدينة وضواحيها لكن هذا الشيخ أنكر الجميل وكان أول مناد بالعصيان وأول محرض على الثورة فلبى نداءه سكان الجبال المجاورة الذين لا يودون ان يكونوا تابعين لاي حاكم ولو كان أعدل الحكام وكذلك عائلة من يسمى (أبا غوش) النازلة في الاودية الواقعة بين أورشليم ويافا فانها رفعت راية العصيان وقطعت الطريق بين المدينتين باحتلالها كل مسالك الجبال ومضايقها لكن ربما يلتمس لهذه العائلة عذر لانها تجد ما وجده الشيخ قاسم وأولاده من ابراهيم باشا من حسن المعاملة واسداء النعم والعطايا الجمة فضلا عن الحجر على رئيسها بدمشق عقابا لما اقترفه من سوء معاملة الحجاج وعدم السماح لهم بالمرور من أرضه ما لم يعطوه جعلا معلوما مع تنبيه ابراهيم باشا عليه بابطال هذه العادة فهاجت عائلة (أبي غوش) واعوانها النقط المصرية المعينة لحفظ الطريق من قطاع الطرق ولما كانت حامية هذه النقط غير كافية لمنع تصدي هؤلاء الطغاة قفلت راجعة الى مدينة يافا بعد أن دافعت دفاع الابطال وقاومت مقاومة الاسود في الجبال وكذا الحامية أورشليم لما لم تستطع ايقاف حركة العصيان ولا اطفاء لهيبها المستعر تركت خطة الهجوم وتحصنت في قلعة المدينة حتى يأتيها المدد

فلما بلغ ابراهيم باشا هذه الاخبار المكدرة للبال المهيجة للبلبال المزعجة لابطال الرجال أرسل في الحال الآلايين الفرسان لكبح جماح الثائرين لكنه لم يقدر على مقاومة قبيلة

(أبي غوش) المحتلة الطريق الموصلة بين (يافا) و (أورشلم) فبعد أن قتل في القتال قائد هذه الفرقة والسواد الاعظم من رجالها عاد الباقون الى يافا في حالة لو شاهدها العدو لرثى لها

فلما رأى ذلك ابراهيم باشا هم في الحال وتوجه بنفسه ومعه العدد الكافي من الجند لمنع تجمع الثائرين في مدينة (نابلس) حيث استدعاهم الشيخ قاسم للاجتماع للمفاوضة في تدبير ما يلزم لنجاح مشروعهم وأرسل أيضا الى مشايخ القبائل يخبرهم بأن الشيخ قاسم لم يقصد التخلص من الادارة المصرية العادلة الا ليستعبدهم ويسومهم سوء العذاب

فلما عرف حاله بعض القبائل المصافية له نفروا منه وتضعضعت بذلك شوكته وزالت سطوته وانهدمت قوته وأمكن لابراهيم باشا وسليمان باشا اتخاذ خطة الهجوم فقاما من يافا في ٤ يوليو سنه ١٨٣٤ ومعهما ستة آلاف جندي واقتربا من الجبال فرأياها مغطاة بالعرب ثم وصلا الى قرية تدعى قرية (أبي عنب) حيث كانت عائلة (أبي غوش) متحصنة تحصنا عظيما كاد يتعذر معه أخذها بل يستحيل ولكن لم يعبأ ابراهيم باشا بهذه التحصينات بل هاجمها بعسكره بكل شدة وثبات واستمر القتال ثلاثة أيام متوالية تدافع في خلالها الثائرون دفاع الابطال ولولا ما اشتهر به ابراهيم باشا من الحزم والعزم والثبات في مواقع القتال لفاز الثائرون بالغلبة وفي اليوم الثالث دخل المصريون القرية واجتازوا جبالها وفاوا احتلوا كل الطرق ووصلوا الى مدينة أورشلم (١) بدون أن يتعرض لهم أحد في طريقهم لتبدد شمل الثائرين بعد سقوط قرية (أبي عنب) التي كانت قلعتهم الوحيدة ومانعتهم الحصينة

وحين وصل المصريون الى أبواب المدينة وقع الرعب في قلوب سكانها الاتراك لانهم كانوا يساعدون الثائرين على محاربة المصريين لما انتشر خبر تجمع العساكر العثمانيين في جهات الاناطول ولعلمهم بأنه لابد من انتقام ابراهيم باشا منهم ومحاربته لهم ليكونوا عبرة

(١) يبلغ عدد سكان هذه المدينة عشرين ألفا وتنقسم الى أربعة أقسام تختلف بالجنسية والطباع والعقائد وكراهة بعضهم بعضا يسكن في جهتي الشرق والشمال الاتراك وفي الجنوب اليهود وفي الغرب اليونان والارمن

لغيرهم ولكى لايعودوا الى الثورة مطلقا قسرا أو جهرا التجأ كثير منهم الى الفرار هربا مما سينزل باخوانهم من العذاب الشديد ثم ان ابراهيم باشا كان يسعى بجهده فى استعمال الطرق السلمية ويعفو عن كثير ممن كان يقاومه لكنه ليس فى مثل هذه الحالة فان استعمال الحلم فى هذه الاحوال مما يجرئ المفسدين على نشر فسادهم ويعين الطغاة على طغيانهم

ولقد تحقق ما كان يخشاه أترالك (أُورْيشَلَم) فقتل ابراهيم باشا كثيرا من زعمائهم هذا ولم يكن لاستيلاء ابراهيم باشا على مدينة (أُورْيشَلَم) فائدة تذكر لموت كثير من عساكره من كثرة المناوشات التى كانت دائمة بينه وبين العرب ولعدم وجود العدد الكافى من الجند فى هذه البلاد حتى كان يستمد منهم ما يلزم لتعزيز حامية المدينة وحفظ خط الرجعة الى يافا ومضايق الجبال والطرق الموصلة بين المدينة وغيرها فأخذ فى التحصن بالمدينة كى لايهلك كثير من جيشه فى المناوشات وأرسل الى مصر يطلب منها المدد حتى اذا وصله تمكن من مهاجمة العدو وتبديدهم فى واقعة مهمة لايقوم لهم بعدها قائمة

وفى خلال ذلك لم يأل جهدا فى ايقاع النفرة بين رؤس الثورة وتحريض بعضهم على بعض كى يتوصل الى مرغوبه ويتحصل على مأموله اذا وقع بينهم الفشل فنجح فى مشروعه هذا كل النجاح حتى ان الشيخ قاسم حاكم (نابُلُس) لما رأى ان أغلب مشايخ القبائل أوشكت تنسلخ عنه أراد التقرب من ابراهيم باشا وأرسل اليه يخبره أن النابلسيين يرغبون فى الرجوع الى طاعة المصريين لو وعدوهم بعفائهم من الخدمة العسكرية فقبل ابراهيم باشا المخابرة فى هذا الموضوع لو حضر الشيخ بنفسه الى معسكره فحضر الشيخ طائعا مختارا لكن لسوء حظه لم ينجح فى هذه المخابرات لان سليمان باشا كان فى أثنائها قد تمكن من ابرام وفاق مع أولاد الشيخ (أبى غوش) بأن يسلموا اليه معاقل جبالهم وذا فى مقابلة اطلاق سراح أبيهم والعفو عما حصل منه ومن قبيلته ومكافأتهم ماديا على المساعدات التى قدموها الى المصريين فقبلوا ذلك وصار الطريق آمنا بين يافا وأُورْيشَلَم

(سفر محمد على باشا الى الشام) ولما علم ابراهيم باشا بسفر أبيه أغلق باب المخابرات بعدم قبوله اعفاء سكان نابلس من الخدمة العسكرية وعاد الى يافا فى اواخر يوليو

سنة

سنة ١٨٣٤ الا قاتو الده محمد على باشا الذى كان توجه الى الشام مع المدد اللازم لاخماد الثورة قبل انتشارها

فلما يئس الشيخ قاسم من الاتفاق مع المصريين عاد الى نابلس وأخذ فى تحصين المدينة و بناء الاسوار والقلاع حولها وعاهد نفسه أن لا يسالم المصريين مادام حيا بل يحاربهم حتى يقضى الله أمرا فاستعد محمد على باشا بنفسه لمحاربته وأرسل الى الامير بشير أمير الدروز أن يحضر الى (يافا) ويرسل جيوشه لمحاربة الشيخ قاسم فخاف الامير بشير ولم يتوجه بنفسه الى (يافا) بل أرسل أحد أولاده ليخبر محمد على باشا بأن الدروز سيسافرون عن قريب لمهاجمة نابلس فاكتفى محمد على باشا بهذا الجواب وأمر باخضاع مدينة (صَفَد) التى أخذ سكانها فى ارتكاب الفظائع وقطع الطرق اعتمادا على مناعة مدينتهم فامتثل الامير بشير وتوجه لساعته قاصدا (صفد) وحاصرها لكن لم يحتج الحال لاخذها عنوة فانه قبل أن يهاجمها أرسل الى سكانها يتهددهم باحراق مدينتهم وقتلهم عن آخرهم ان لم يسلموا له سلاحهم ويأتوا اليه خاضعين ولما تأكد لهم من أن الدروز لا يتأخرون عن انفاذ ما يتوعدونهم به سلموا المدينة للامير بشير وأعطوه سلاحهم فدخل المدينة واستلم زمامها وأخذ رؤس الثورة وأرسلهم الى سجن (عكا) وبعد أن وطد الامن فى ضواحى (صفد) زحف برجاله الى مدينة نابلس من جهة الشمال حين كان المصريون يتقدمون من جهة الجنوب فهال النابلسيين مرأى هذين الجيشين ولكن الشيخ قاسم مع تحققه عجزه عن مقاومة المصريين آلى على نفسه ان يقاتلهم الى آخر رمق من حياته ومما زاد فى غيظه أن ابراهيم باشا والده محمد على باشا أجزلا النعم على عائلة أبى غوش وأمر الباشا باخراج رئيسها من سجن عكا وأهدى اليه هدايا فاخرة وأرجع ولده الاكبر الى منصبه واعترف له بالرياسة على قبيلته وولى ولاية (أورشلم) أحد أولاده الاخر بشرط ان يتكفل بمؤنة حامية المدينة وما تحتاج اليه من مأكل ومشرب وملبس

ولشدة تحنق الشيخ قاسم على المصريين لم يستطع صبرا حتى يأتى اليه عساكر الدروز بل خرج لقتالهم خارجا عن اسواره وحصونه وكان ذلك سببا فى ضعف قوته اذلا طاقة للمحاربين الغير المنتظمين على مقاومة المنتظمين فمن المعلوم ومما أيدته التجارب أن العسكرى

المنتظم بعدبعشر مرة من غير المنتظمين فكيف اذا كان القائدون لهم رجالا مثل ابراهيم باشا وسليمان باشا لكن الشيخ قاسم لم يتدبر هذه الحقيقة فعاد عليه وخيم عواقبها وذلك أنه التقى بجيش المصريين في موقع يبعد عن (نابلس) بضع ساعات وبعد قليل لم يستطع الوقوف امام نيران المدافع وتقهقر بعدما قتل من رجاله نيف ومائة رجل الى أحد التلال المجاورة للمدينة فتبعه المصريون ودخلوا المدينة عنوة أما هو فهرب مع من بقي من رجاله وكان مثخنا بالجراح هو وأحد أولاده فالتجؤا الى مدينة (حبرون) حيث عزم على ان يقاتل ويدافع عن نفسه حتى يموت فاقتفى أثره ابراهيم باشا مع جيشه ولم يلبث أن وصل (حبرون) وأمر عساكره بأن يهاجموها بدون أن يتركوا للعدو أدنى وقت لتحصينها وكان ذلك في ١٤ أغسطس سنة ١٨٣٤ فانقض المصريون عليها كالليوث الضارية بقوة لا يقوى على مقاومتها انس ولا جان ودخلوها بعد قتال عنيف كانت الدائرة فيه على الشيخ قاسم ورجاله مع كونهم دافعوا دفاع الابطال وساعدتهم على ذلك الاشجار المغروسة بالبساتين المحيطة بالمدينة من كل طرف مما عاق المصريين في هجومهم وكان سبب الموت كثير منهم بين أنفار وضباط اذ كان الضباط في مقدمة الجند يشجعونهم على القتال

(اقتفاء ابراهيم باشا أثر الشيخ قاسم) ولما دخل ابراهيم باشا المدينة عفا عن سكانها وأمنهم على أموالهم واعراضهم لكنه أقسم باستئصال عائلة الشيخ قاسم من أولها الى آخرها فلما رأى الشيخ المذكور ذلك فر هاربا من المدينة عند دخول المصريين فلم يتمكن ابراهيم باشا من القبض عليه مع ما بذله من العناية في ذلك فخرج الباشا من المدينة لاقتفاء أثره بعد أن ترك بها حامية قوية تحت قيادة سليمان باشا خوفا مما عساه يحصل من الفتن فيها وبث الجواسيس في سائر أنحاء فلسطين ليقف على المحل الذي اختفى فيه الشيخ المذكور ورجاله وبعد قليل عاد بعض الجواسيس اليه وأخبروه بأنه في قرية يقال لها (الكرك) واقعة في جنوب بحيرة لوط (البحر الميت) وهي مدينة حصينة بها قلعة منيعة مبنية على قمة شاهقة يتعذر الوصول اليها لوعورة الطرق الموصلة اليها وبذلك يمكن لحامية قليلة ان تصد عنها كل مهاجم وترد كل عدو بعدده وعدده فلما علم ابراهيم باشا بذلك آلى على نفسه ان يأخذ الشيخ المذكور أسيرا ولو جر ذلك على اهلاك معظم جيوشه

لانه ان لم يضحل ظل ظن أهل الشأم أنه غير قادر على اخضاعهم وعلى عجزهم دفعهم الى العصيان فكان قصد ابراهيم باشا بمحاربة الشيخ قاسم وقتله هو أن يكون ذلك مثالا وعبرة لسكان الشام كي يعلموا علم اليقين أن كل من عادى ابراهيم باشا لابد أن ينال جزاءه عاجلا لا آجلا

فلما تيقن ابراهيم باشا وجوده في مدينة الكرك قام لوقته موجهًا في السير واصلا الليل بالنهار في قطع الصحراء المحرقة من شدة الحرارة حتى مات جملة من عسكره في أثناء السير من شدة العطش لقلة المياه في الطرق و يقال انهم لما وصلوا الى البحر الميت القوا أنفسهم فيه لشدة ما كان بهم من الظما المحرق مع شدة ملوحة مائه ومن الثابت أن ماء هذا البحر لكثرة ملحه يزيد ثقله النوعي حتى يحمل الانسان بدون سباحة ولقد قال بعض السائحين ان المسافر بعد ان يتحمل مالا يوصف من المشاق والاوصاب و آلام الجوع والعطش و يتطلع من بعد لون مائه يتخيل له الظما أنه عذب فرات لكن لا يلبث أن يشم رائحته الكريهة الناشئة عن كثرة ما فيه من الاملاح والكبريت فيزول عنه هذا التخيل

ولما وصل ابراهيم باشا الى مدينة (الكرك) لم ينتظر قدوم مدافعه بل أمر بالهجوم على القلعة بعد أن أراح عساكره مدة ومن ولم يتمكن الجند من أخذ القلعة عنوة لتعذر الوصول اليها فعاد المصريون بلا طائل والتزم ابراهيم باشا ان ينتظر المدفعين فلما وصلت المدافع ابتدأت باطلاق القنابل على أسوار القلعة حتى تهدمت ودخلت العساكر القلعة فلما دخلوها لم يجدوا فيها أحدا من النابلسيين ولا رؤسهم وسبب ذلك أن الشيخ قاسم مع كونه ظهر على المصريين في الواقعة الاولى لم يخف عليه أن فوزه لم يكن الا لعدم وجود المدافع وأنه لا يمكنه مقاومتها فهرب في غلس الليل ومن معه من بقايا تابعيه والتجؤا الى الصحرا فتبعهم ابراهيم باشا بعسكره حتى أدركوهم وأحاطوا بهم فلما رأى النابلسيون ذلك وعلموا أن لا مناص لهم من الموت ألقوا سلاحهم وسلموا أنفسهم الى ابراهيم باشا

أما الشيخ قاسم وأولاده و بقية زعماء الثورة فتمكنوا من الهرب ثانية واختفوا عند عرب (عنز) النازلين بين مصر والشام ولعلم هذه القبيلة بانها لو أخفت الشيخ المذكور وعلم بذلك ابراهيم باشا لأوقع بهم أشد العذاب وصارم العقاب بل ربما كان ذلك سببا في هلاك

أغلب افرادها ان لم نقل الكل فتقرر بوامر ابراهيم باشا بأن قبضوا على الشيخ المذكور ورفقائه وسلموهم اليه

وبعد أن طيف بهم فى انحاء فلسطين ليكونوا عبرة لمن يعتبر أمر بقطع رؤسهم وكانوا ستة فقتل ثلاثة منهم ومن ضمنهم الشيخ قاسم فى مدينة أورشليم التى كان مبدأ الثورة منها واثنان فى (عكا) والسادس فى دمشق وانتهت بذلك الفتنة الشامية الاولى وثبت قدم المصريين فى البلاد الشامية ولم تزل ملتحقة بمصر تابعة لها حتى تداخلت الدول الاورباوية عقب وقعة (نصيبين) التى انتصر فيها المصريون نصرا مبينا وألزمت محمد على باشا برد الشام الى الدولة العثمانية كما كانت وسيجيىء مفصلا ان شاء الله

ولقد لام بعض المؤرخين الامير ابراهيم باشا على تعريض نخبة جيشه للموت من الجوع والعطش والحر أرق فى اقتفاء أثر الشيخ قاسم وفاتهم أنه لو تركه وشأنه لعاث فى الارض فسادا وحمل ذلك الشاميون على عجز منه وتجرؤا على اقتراف المنكرات بل ربما كان ذلك سببا لحصول عصيان عمومى يؤدى الى سفك دماء المصريين أكثر مما يسفك فى قطع دابر مثل هذا الشيخ

وبعد أن استتب الأمن فى ربوع البلاد الشامية أخذ ابراهيم باشا فى تنفيذ أوامر والده التى كانت سببا فى هذه الثورة الجزئية فأمر أولا بنزع السلاح من السكان كلهم بدون استثناء أو تمييز بالنسبة للجنسية أو للدين فأطاع الشاميون (١) ولوعم التذمر خشية أن يحل بهم ما حل بالشيخ قاسم من البلايا وينزل بهم ما نزل به من الرزايا وبعد ذلك أمر بتحصيل الضريبة التى ضربت على الشاميين بدون تمييز بين صغارهم وكبارهم وأمرائهم وصعاليكهم فتذمر من ذلك الفقراء والرعاة الذين كانت الدولة العلية لا تطالبهم بشىء ما خصوصا المسلمين منهم فان الضرائب كانت تضرب على النصارى واليهود لا غير ولما كانت تلك الضريبة لا تفى بحاجات الحكومة كانت تصادر الولاة والصناجق فتسلب منهم ما جمعوه فى مدة ولايتهم من النهب والاغتصاب وبذلك كان المسلمون من السكان راضين بهذه الحالة

(١) انما عبرت فى هذا الكتاب بلفظ الشاميين ولو لم يكن هناك أمة شامية لعدم تكرار أسماء الامم والملل المختلطة الاجناس المختلفة الاديان القاطنة بأرض الشام

وكرهوا

وكرهوا الضريبة المصرية لمساواتها بين السكان بدون نظر الى معتقدهم ثم انه ربما كان الاولى بالحكومة المصرية وقتئذ أن تراعى عوائد البلاد وطباع أهلها فتصلح كيفية ضرب الاموال وتوزيعها على الاهالى شيأ فشيأ لكنه لايجوز من جهة أخرى أن الامة المصرية تقوم بكافة مصاريف الجيش والادارة مع ما هى عليه من الفاقة والفقر المدقع الناشئ من تسلط المماليك عليها أحقابا متوالية بل من العدل أن كلا من الامتين الشامية والمصرية يشترك فى مصاريف ما يلزم الحكومة كما أنهما يشتركان فى التمتع بخيراتها والاستظلال بظلال الأمن الشامل للولايتين وعلى كل حال لم تصادف الادارة المصرية فى تحصيل هذه الضريبة من الصعوبات ما لاقته فى ادخال الشاميين فى الخدمة العسكرية فانه أدخل منهم فى الجيش المصرى ثمانية عشر ألفا ما بين دروز وموارنه ومسلمين وغيرهم من كل الشعوب والاجناس وهو الامر الذى ازدادت به كراهة الشاميين للادارة المصرية وذلك لان الدولة العثمانية ما كانت تدخلهم فى العسكرية كرها بل كانت تكتفى بمن يدخل باختياره من سكان جبل لُبنان وكان يندرج منهم سنويا فى الخدمة العسكرية ألف لاغير ومما كان سببا فى زيادة كراهة الشاميين للامة المصرية عدم الانتظام فى أخذ الشبان كما هو جار الآن فى مصر وسائر الدول المتمدنة بان يخدم الشاب مدة معينة ثم يعود الى أوطانه ويكون أخذه بطريق القرعة مع المساواة بين كل الافراد بل كانت الطريقة المتبعة فى أخذهم أن يدخل الضابط المعين لذلك فى القرى ويختطف الشبان بالقوة وربما لم يتم له ذلك الا بعد مقاومة عنيفة يكون من ورائها أحيانا قتل بعض من الفريقين ولقد ذكر أحد من كانوا فى معية البرنس (دى جوانفيل) نجل (لويس فيليب) ملك فرنسا حين كان سائحا فى البلاد الشامية أثناء احتلال المصريين لها أن الحرس الذى كان معينا لحراسته أثناء جولانه فى جبال لُبنان كان كلما يرى فى طريقه شابا قوى البنية صالحا للخدمة العسكرية ضبطه وأرسله مع بعض الجند الى أقرب آلاى ليلحقه به دون أن يعلم أقاربه بذلك ولا غرابة فى مثل هذا فان هذه الطريقة كانت متبعة فى مصرنا أيام محمد على باشا ومن بعده ولم تبطل الامن عهد قريب

ولما رأى المصريين ذلك وعدم تهاونهم فى المجازاة على أقل عصيان بأشد العقاب لم يجسر

الشاميون على شق عصا الطاعة بل سلوا أسلحتهم وصار يرد الى (بيروت) و(صيدا) وغيرهما عدد عظيم من الاسلحة النارية والبيضا بل ومن المدافع التى كان يخفى تحت ظلها سكان جبال لُبنان وكان من أهم المساعدين للمصريين فى تنفيذ هذا الامر فى لُبنان الامير بشير الشهابى بذل مافى وسعه لارضائهم خوفا من أن يحل به ما حل بالشيخ قاسم المتقدم وأعوانه مع علمه بأن ذلك يوغر عليه صدور اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم من مسيحيين ودروز ولكنه آثر ارضاء المصريين على ارضاء مواطنيه وبقى على ولائهم حتى تقلص ظل ادارتهم وسلبت منهم البلاد الشامية بواسطة تداخل الدول الاجنبية عموما والدولة الانكليزية خصوصا

ولقد بذل الامير بشير جهده فى تنفيذ أوامر ابراهيم باشا واخماد الفتن الجزئية التى تظهر فى القرى لكن لم يجد اهتمامه نفعا بل ازداد الهياج شيأ فشيأ وانتهز الاتراك هذه الفرصة لبثّ رسلهم فى سائر الانحاء وتحريض الجبليين على القتال وخلع طاعة المصريين الذين تمتعوا فى مدة حكمهم بالراحة والطمأنينة ما لم يروا ولن يروا مثله وما قوّى نفورهم من الادارة المصرية وعدم سل الدولة اياهم عما فاتهم من الضرائب والخدمة العسكرية ومنحهم الاستقلال الادارى فاغتروا بهم واذ نزعوا الى العصيان ومن الغريب أنهم لما همّوا بالعصيان ظهر أنهم لم يسلموا من سلاحهم الا القديم العادم النفع وأخفوا الصالح الجيد ليستعملوه ضد المصريين الذين لا ذنب لهم سوى أنهم منعوهم عن قطع الطرق ونهب أموال ساكنى الاودية والسهول الذين لا قدرة لهم على الدفاع واقتفاء أثرهم لالتجائهم الى جبالهم الشامخة الصعب الوصول اليها لعدم وجود الطرق ولقد تنبه الى هذا الامر ابراهيم باشا وعلم أنه لا يمكنه ادخال هؤلاء الجبليين فى طاعته الا اذا فتح الطرق السهلة لمرور الخيالة والمدافع ولذلك أمر المهندسين بانشاء ما يلزم من الطرق المتسعة المنتظمة على حسب الاصول الهندسية مع مراعاة تخفيف الميل كى يسهل جر المدافع الضخمة عليها وتوجيهها الى حيث يلتجئ العدو

ولكى لا تصل الاسلحة والبارود الذى كان يرسل الى الثائرين مددا لهم أمر ابراهيم باشا أيضا بمنع دخول السفن التركية الى مين الشام وصد مهربوه القوافل من جهات

الا ما طول فساعد ذلك الاثر السيء وسبب ضررا عظيما للتجارة لكن ابراهيم باشا رأى المصلحة فى ذلك وآثر أخف الضررين وأهون الكربين

ثم استدعى سليمان باشا من (حبرون) وكلفه بقرين من يرد من مصر من العساكر وبارسال الشاميين الذين أدخلوا فى العسكرية الى مصر اذ كان محمد على باشا يرسلهم الى مصر العليا أو الى السودان بصفة محافظين خوفا من ان يحصل منهم ما يضر باخماد الثورة لو بقوا فى بلادهم ولا يخفى ما فى ذلك من الحكمة والتبصر فى عواقب الامور

هذا ولما رأى محمد على باشا أن المدارس التى أنفق عليها المال الكثير لحسن ترتيبها وليتعلم فيها جيل جديد من المصريين يشب على الافكار الحديثة ويكونوا أعوانا له ولخلفائه من بعده فى بث التمدن فى القطر المصرى قد أخذت فى الاضمحلال بسبب سفر أغلب الاساتذة الاوربا ويين طاعة لطلب الساعين فى عدم تقدم مصر الذين لا يريدون الآن تكون ملقاة فى بحار الجهل ظنا منهم ان لا يقوم أحد من المصريين مقامهم فى ذلك استدعى سليمان باشا من الديار الشامية وكلفه بملاحظة شؤون المدارس وكل ما يكون سببا فى ترقيها الى أوج التقدم حتى تأتى بالغاية المقصودة فلبى دعوته وعاد الى مصر وأخذ فى ترتيب المدارس على أحسن نظام خصوصا المدارس الحربية والبحرية ولم يعقه فى طريقه معارضة الجهلة من حاشية الوالى لمساعدة الوالى نفسه له

وحين كان يشتغل سليمان باشا فى القاهرة بمثل هذه الاشغال السلمية كان رشيد باشا القائد العثمانى الذى أخذ اسيرا فى واقعة (قونيه) كما تقدم مشتغلا بجمع الجيوش والكتائب فى بلدة (سيواس) بارمينية لمحاربة المصريين وبقهرهم كى يمحى ما لحقه من العار والخزى والبوار فى واقعة (قونيه) ثم تقدم بتلك الجيوش الى مضايق جبال (طوروس) منتظرا الفرصة المناسبة للانقضاض على البلاد الشامية واختطافها من قبضة الحكومة المصرية ولا يخفى ما للموقع الذى نزل به من الاهمية العسكرية والحربية لانها نقطة ملتقى الطريق الآخذ من جبال (طوروس) الى وادى الدجلة والفرات فضلا عن نقاوة وصفاء هواء هذه الجهة المرتفعة وكثرة وجود الماء العذب بها مما يكون الجيش بسببه آمنا من الامراض المعدية التى كثيرا ما تنشأ فى الجيوش المجتمعة لما يتخلف عنهم من الاقذار

والوخامة ولم يكن القصد من جمع هذا الجيش الجرار الا تشجيع أهل الشام على العصيان للتخلص من عدل الحكومة المصرية والعود الى الاستبداد

ولما فطن الشاميون الى هذه الغاية ازدادوا عتوا وكادوا ينشرون لواء العصيان جهارا فلما علم ابراهيم باشا بذلك أخذ الاحتياطات اللازمة لصدهم لو أرادوا الهجوم عليه ولمهاجمتهم اذا اقتضى الحال ذلك فأرسل حامية قوية الى مدينة الرقة الواقعة على شاطئ الفرات لمنع مرور العثمانيين لو أرادوا عبوره وكذلك أرسل العدد الكافي من الجند الى جهات (أورفه) و (حلب) و (أنطاكية) وفرق ما بقي من جيشه بهيئة سيارات صغيرة تطوف في كل انحاء البلاد لمجازاة القرى التي تتأخر في تأدية الخراج أو تعارض الحكومة في اجرا آتها وبذلك خمدت الثورات الداخلية الصغيرة وعلم الكل أن ما هم فيه من شق العصا والانحراف عن الحكومة المصرية غرور وأن الأوفق موالاتها مادام لم تسع الدولة العلية بالفعل في مساعدتهم مادّيا وجعل ابراهيم باشا مركز أركان حربه في مدينة (١) أنطاكية مفضلا لها عن مدينة حلب لرداءة هوائها وقلة مياهها وتعرضها دائما الى الاوبئة والامراض المعدية

ولتمهيد ما سيأتي ذكره من الحوادث السياسية التي أوجبت تداخل الاوروباويين في المسئلة المصرية ضد محمد علي باشا منعا لوقوع أهم الولايات العثمانية في قبضته وبالتالي من عدم تمكنهم منها في المستقبل نقول

ان حكومة فرنسا كانت في ذلك العهد حكومة ملكية مقيدة تقييدا كليا وكان يكفلها اذذاك (لويس فيليب) الذي ارتقى على أريكة الملك عقب هياج الامة على (شارل) العاشر وعزلها له وطردها اياه في أواخر شهر يوليو سنة ١٨٣٠ لانه كان شديد الميل كثير الرغبة الى الاستبداد والحكم بدون مشورة الامة أي الرجوع الى ما كانت عليه فرنسا قبل الثورة

(١) مدينة بتركية آسيا تبعد عن حلب بمائة كيلومتر وعن البحر المتوسط بثلاثين كيلومترا كانت في ايام الرومانيين أحسن مدينة بالشرق وبلغ عدد سكانها في مهدهم سبعمائة ألف شخص ثم فتحها العرب في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب وتنازعها المسيحيون والمسلمون أيام الحروب الصليبية التي انتهت بانتصار الاسلام وبقيت مدة تابعة لمصر مع بلاد الشام الى ان فتحها السلطان سليم العثماني سنة ١٨١٦

العظمى وضياع كل ماحصل عليه الفرنساويون من الحرية بعدسفك دمائهم فى محاربة سائر ملوك أوروبا ولما ولى (لويس فيلبس) أجاب الى كل ماطلبته منه الامة من كونه يكون ملكا مالكا لاحاكما وأما الاحكام فتكون بيد الوزراء وأعضاء مجالس النواب ولما لم يكن لمعظم الفرنساويين مايلزم لمثل هذه المهمة من الحنكة والتجارب ولو أنه كان منهم فى ذلك الحين رجال سياسيون محنكون مثل (تيرس) وجيزو (١) وغيرهما الا أنهم كانوا ملزمين باتباع مايقرره أعضاء مجالس النواب حتى فى الامور السياسية التى يلزم كتمانها ولذلك كانت فرنسا حينئذ بمعزل عن جميع الدول الاوروباوية ماعدا انكلترا فانها كانت تظهر لها التودد لمصالحها التجارية فضلا عن ميل الفرنساويين لمساعدة كل أمة تسعى للحصول على الحرية والاستقلال وهذه الحاسيات لاتذم على كل حال بل تمدح فى حدذاتها

ولم يكن لمحمد على باشا مساعد من الدول الاوروباوية الافرنسا التى تبذل جهدها دائما مع كل أمة تحارب وتناضل للحصول على الاستقلال فلولا مساعدتها لما كانت مملكة اليونان كما سبق لنا بيان ذلك ولم تكن مملكة البلجيك ولا ايطاليا المعدودة الآن من الدول العظمى وهى التى ساعدت الولايات المتحدة الامريكية على التخلص من ربقة الحكومة الانكليزية الى غير ذلك مما لايحصى من مساعدة الشعوب المضطهدة التى حاربت لاجل استقلالها ولم تنجح

ولما رأى محمد على باشا أنه لايمكنها مساعدته مادامت الدول الأخرى معارضة لها الاسيما وان القابضين والمستولين على أزمة الاحكام فى هذه الدول هم أشهر رجال هذا العصر فكان

---

(١) مولد المسيو جيزو سنة ١٧٨٧ واشتهر من حداثة سنه بالتضلع من فن التاريخ وله فيه مؤلفات كثيرة أهمها تاريخ التمدن فى فرنسا وأوروبا وتاريخ الثورة الانكليزية (١٦٨٨) ودخل الوزارة فى عهد الملك لويس فليب بصفة ناظر للمعارف العمومية ثم تعين سفير الفرنسا لدى حكومة انكلترا ولم يمكنه أثناء سفارته منع انكلترا من الاتحاد مع الدول على محمد على باشا فى يوليو سنة ١٨٤٠ ثم تعين وزيرا للخارجية فى اكتوبر من هذه السنة واستمر فى هذه الوظيفة الى فبراير سنة ١٨٤٨ حيث طرد الملك ونودى بالجمهورية بفرنسا فسافر جيزو الى انكلترا واستمر فى تآليفه العلمية حتى توفى فى شهر سبتمبر سنة ١٨٧٤

اللورد (بالمرستون) (١) وزير خارجية انكلترا والكونت (دى نسلرود) وزير الروسية والمسيو دى مترنيخ (٢) الشهير وزير النمسا على حين كانت وزارات فرنسا تتابع وتسقط دون أن يكون لها خطة سياسية تجرى عليها فاتح وكلاء الدول بمصر فى شأن مشروعه لكنه أظهره بطريقة أخرى ما لها ابرام تحالف على منع من يريد من الدول التعدى والطمع فيما بيد غيره وان يقدم جيوشه وبحريته اذا اقتضى الحال لنجاح هذا التحالف ويطلب فى مقابلة ذلك أن يستقل بمصر والشام وبلاد العرب وأن تكون هذه الاقطار له ولورثته مؤبدة

فادهش هذا المشروع وكلاء الدول ولم يردوا عليه جوابا بل استمهلوه حتى يخاطبوا الدول التى هم تابعون لها وبعد قليل أجابوه بنهيه عن التعلق باهداب هذا المشروع

هذا ولما علم الباب العالى بما جرى بين والى مصر والدول وكيف قابلت الدول مشروعه وتحقق أنها لا تعارضه فى ارجاع مصر تحت سلطته كما كانت بل ربما ساعدته على ذلك أخذ فى توجيه أفكار مصر وجبل لبنان ليتسنى له الدخول فى مسائلهم وأرسل عددا عظيما من الجند الى معسكر (سيواس) لكن لم ترد فرنسا ذلك بل طلبت من الباب العالى أن يرسل الى مصر أحدا ممن يعتمد عليهم للمخابرة مع والى مصر فى طريقة فيها رضا الطرفين وذلك أولى من استعمال القوة لأول وهلة فانه أمر لا يكون وراءه الا اثارة نار الحرب وسفك دماء العباد بدون فائدة ولا عائدة

(١) ولد سنة ١٧٨٤ وتعلم بكلية كمبردج ودخل مجلس العموم وجلس مع المحافظين ثم انضم الى الاحرار سنة ١٨٣٠ تقريبا ثم ترقى الى أن صار وزير الخارجية انكلترا من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤١ ومن سنة ١٨٤٦ الى سنة ١٨٥١ ومن سنة ١٨٥٥ الى سنة ٥٨ ومن ٥٩ الى ٦٥ تبعا لتعاقب الاحزاب على منصة الاحكام وتوفى سنة ١٨٦٥ . واشتهر مدة وزارته الاولى بمعاكسة محمد على باشا وبالثانية بمعاداته الروسيا واثارة حرب القرم عليها اهـ

(٢) ولد البرنس دى مترنيخ سنة ١٧٧٣ بمدينة كوبلنس من أعمال المانيا ودخل من صغره فى الوظائف السياسية فتقدم تدريجا الى أن صار من سنة ١٨٠٩ وزيرا أولا لخارجية النمسا واستمر فيها الى سنة ١٨٤٨ وتوفى سنة ١٨٥٩ واشتهر بمضادته دائما للحركات الثورية وبمعاكسته لفرنسا وارجاع أوروبا الى الملكية المطلقة

فرنسا

فرضى الباب العالى بذلك وأرسل أحد مستخدمى خارجيته المدعو (سارم بيك) الى والى مصر لهذه الغاية فقابله بكل بشاشة وايناس وأظهر له خضوعه الى الدولة العثمانية وأخبره بانه لم يكن فى عزمه الاتيان بأى أمر يكون بسببه تغيير الحالة الحاضر فسر من ذلك مندوب الدولة العلية ورغب منه أن يتوجه معه الى دار الخلافة ليتفق بنفسه مع جلالة السلطان محمود خان (١) على ما يكون عليه السير فى المستقبل فلم يقبل منه ذلك البتة لعلمه أن فى سفره الى اسلامبول ما يكره فعرض عليه حينئذ (سارم بيك) ان يعطى ولاتى مصر والعرب وتكون له ولذريته الى ماشاء الله وبلاد الشام أيضا الى جبال (طوروس) مدة حياته وان يدفع للدولة خراجا سنويا يكون للسلطان حق تقديره فقبل ذلك منه وكان ذلك فى أوائل سنة ١٨٣٧ وتم الاتفاق بينهما على ذلك وعاد المندوب الى الدولة بهذا الوفاق

ولكن لم يقبل الباب العالى هذه الشروط كلها بل تراآى له أن لا يعطيه فى الشام الا ولايتى (صيدا وطرابلس) الى مفاوز جبال (طوروس) وتكون تلك الجبال تابعة للدولة حتى يمكنها بذلك متى سنحت لها الفرصة أن ترسل جيوشها الى مصر بدون ان يكون لها فى الطريق معارض ولا منازع فلما وصل هذا الخبر الى محمد على باشا علم أن لا سبيل الى الاتفاق بالطرق السلمية وأنه لا بد من الحرب عاجلا أو آجلا فأعلن لقناصل الدول أنه لا يقبل هذه الشروط

(١) هو السلطان محمود الثانى ولد سنة ١٧٨٥ ولاّه رئيس الانكشارية المدعو (مصطفى بيرقدار) بعد عزل وقتل السلطان مصطفى الرابع سنة ١٨٠٨ حارب الروسية وتنازل لها عن اقليم (بسارابيا) بمقتضى معاهدة بخارست سنة ١٨١٢ واستقل الصرب والافلاق والبغدان (رومانيا) فى أيامه واذعن أيضا لاستقلال جزائر اليونان سنة ١٨١٩ ثم فى سنة ١٨٢٨ انسلخت بلاد مون وما جاورها من الدولة العلية بعد حرب استمرت ثمان سنوات وتشكلت بهيئة حكومة ملكية مستقلة تحت حماية الدول وحارب الروسيا ثانى مرة فانهزم وامضى معاهدة أدرنة سنة ١٨٢٩ — ومن سنة ١٨١٩ الى سنة ١٨٢٢ ثار عليه على باشا والى يانينا فقتله وفى سنة ١٨٣١ أخذ منه محمد على باشا بلاد الشام فابرم مع الروسيا معاهدة اسكار اسكله سى وأباح لها حق انزال عسكريتها بارضه لحمايته ثم هزم المصريون جنده فى واقعة نصيبين سنة ١٨٣٩ وتوفى بعد ذلك بأيام قلائل ومن مآثره انه أبطل جيش الانكشارية سنة ١٨٢٦ وقتل أغلبهم وسعى فى اصلاح داخليته وهو أول من استبدل العمامة والملابس التركية بالطربوش الرومى والملابس الاوروبية

وانه عازم على المحافظة على كل ما قبضه بكل ما في وسعه وأن لا يسلم شبرا من الارض التي احتلها الى الدولة العلية طائعا وانه لا يترك مملكته عرضة لغارات العساكر العثمانية بتسليمهم مضايق جبال (طوروس) التي لم يستول عليها الا بشق الانفس وبذل الارواح واضاعة الاموال وأنه لو تنازل عن ذلك لعد تنازله جبانا لا يصلح أن يكون حاكما .

ثم أخذ في الاستعداد للقتال وأرسل كمية عظيمة من الاسلحة والمدافع الى جهات الشام ليظهر للباب العالي عزمه على المدافعة عن جميع ما قبضه من البلاد وانه لا يروعه تهديد ولا وعيد وأعلن لقناصل الدول أنه سينادي باستقلاله هو وورثته بالبلاد التي احتلها الآن وانه على أي حال لا يدفع للدولة العلية شيأ قط من الخراج فلما تحققت لهذا الخبر وزارات أوروبا وعلى الخصوص الوزارة الانكليزية تحققت أنه لا بد من فتح باب المسئلة الشرقية ان لم يتدارك هذا الامر قبل تفاقمه وان الاولى تلافي تلك المسئلة التي ربما تكون نتيجتها إثارة نار الوغى بين دول أوروبا أجمع لاختلافهم في حل هذه المسئلة وتباين مشاربهم فيها فارسلت الحكومة الانكليزية الى محمد علي باشا بلاغا تخبره به أنه لو صمم وأصر على تنفيذ مشروعه ونشأت عن ذلك حرب بينه وبين الباب العالي فتكون حكومة الملكة (١) مضطرة لاستعمال القوة ضده وتصده عن الباب العالي لو اقتضى الحال وانه لا يغتر بعدم اتفاق الدول في المسئلة الشرقية فان ذلك لا يكون مانعا لادخاله في طاعة دولته لو رغب الخروج عنها وأيد هذا الكلام ما ورد اليه من باقي الدول من التهديدات

(**سفر محمد علي باشا الى بلاد السودان**) لكن محمد علي باشا لم يعبأ بكل ما ورد اليه من هذا القبيل وبينما وزراء الدول ينتظرون ما يأتي بجوابه اذ ورد عليهم نبأ سفره الى جهات السودان للبحث عن معدن الذهب وترك حكومته كأنه لم يكن مباليا من التهديدات ويحكى عنه أنه قال لو وجدت الذهب قرت بالارب ونلت المراد بدون تداخل الدول لكن هذه العبارة تحتاج الى اثبات

(**عصيان أهل الشام ثاني مرة**) لا يخفى ما في هذه الرحلة من الاخطار على حكومته المصرية من انتهاز الشاميين فرصة غيابه للاذعان الى الثورة وشق عصا الطاعة لاسيما

(١) هي الملكة فكتوريا ولدت سنة ١٨١٩ وتولت سنة ١٨٣٧ ولم تزل حاكمة الى يومنا هذا

وان

وان أعداءهم من الخارج كانوا يترقبون الفرص لبث الفتنة والفساد فى بلاد الشام وكان الامر كذلك فان محمد على باشا لم يجتز بلاد (دنقله) حتى ورد الى (باغوص بك) الذى كان قد فوض اليه ادارة البلاد فى أثناء تغيبه ولى نعمته خبر عصيان سكان جبل لبنان وما يجاوره من الامم المختلفة بين دروز ونصيرية ومارونية وتقدم العساكر الشاهانية الى التخوم بعلة أنهم يريدون معاقبة بعض قبائل الكرد المشهورين بالعيث فى الارض حتى الآن ومن الغريب أن سائر أعضاء العائلات الشريفة فى الجبل كانت محافظة على الولاء للحكومة المصرية ولم يقبل أحد منهم أن يكون رئيسا لهذه الثورة التى لم تكن ناشئة عن تذمر الاهالى من جور أو ظلم بل سببها الوحيد القاء الدسائس بينهم من الخارج قصد الدجاع محمد على باشا الى حدود مصر أو اغتياله وأنى لهم ذلك وهو شهم متيقظ لما يراد منه قابض على زمام الاحكام بهمته المشهورة وعزيمته المشكورة وبطشه الشديد ورأيه السديد

ولما بلغ ابراهيم باشا وكان لم يزل مقيما بالبلاد الشامية بصفة حاكم أعلى خبر هذه الثورة أصدر أوامره المشددة باقتفاء أثر الثائرين ومجازاة من يؤخذ منهم أسيرا بأشد العذاب وأصرم العقاب لكنه لم يلبث أن طلب المدد من مصر لشدة بأس الثائرين فى هذه المرة وتسلحهم بالسلاح المتقن فطلب من باغوص بك أن يرسل اليه سليمان باشا مع ما يرسله اليه من العدد والمدد فبذل باغوص بك جهده فى كل ما أمكنه جمعه من العساكر المدربة وأرسلهم اليه ليتمكن من اخماد الثورة قبل تفاقم الخطب

فبمجرد وصول سليمان باشا ومعه المدد الى الشام أمكن ابراهيم باشا تحصين البلاد الواقعة على التخوم كانطاكية وحلب وأورفه وبعد أن وثق بمناعة تلك البلاد وعدم تمكن الاتراك من مهاجمتها بغتة عاد الى جهة الجنوب حيث اجتمع مع سليمان باشا لاخماد الثورة التى كانت قد أخذت فى الازدياد لما سمع الثائرون أن الدولة العلية عازمة على ارسال عساكرها لمهاجمة المصريين

فكانت جبال لبنان كشعلة نار ولم يبق فيها أحد محافظ على ولائه للحكومة المصرية فوجه ابراهيم باشا وسليمان باشا اهتمامهما الى هذه الجبال الشامخة الوعرة المسالك الكثيرة القمم والأودية حتى قيل فيها ان كل نقطة منها تصلح أن تكون قلعة وذلك مما جعل وصول

العساكر منها اصعب الاسبـالة الخيالة والمدفعيين ثم ان ابراهيم باشا فتح عدة طرق تصلح لسير المدافع لكنها لم تكن بكافية للغاية المقصودة ومع ذلك دخل بجيشه فى بطن الجبل واقتفى أثر الثائرين الى أعالى القمم وكانوا يفرون أمامه ليجبروه على التوغل فى جبالهم حتى اذا تركوا الطرق السهلة وتوغلوا فى المسالك الصعبة الوعرة انقضوا على المصريين من أعالى الجبل ورموهم بالرصاص من أعلى الى أسفل فكانت تصيب المصريين مقذوفاتهم ولا تصيبهم مقذوفات المصريين (١) ولقد نجحت هذه الحيلة مع سكان جبل لبنان كما نجحت مع غيرهم من الجبليين فانقضوا على المصريين من كل فج ورموهم بالرصاص والحجارة حتى ألجؤهم الى القهقرى وكانت هذه أول مرة تقهقر فيها المصريون أمام اعدائهم وهم تحت قيادة ابراهيم باشا وسليمان باشا

ولما تيقن الرئيسان من عدم الجدوى فى الوقوف أمام عدو لا يمكنهم صده بل ولا رؤيته وقتل وجرح أغلب من كان معهما من الجند واستشهد نخبة الضباط وهلكت خيول المدافع أصدر ابراهيم باشا أمره بالرجوع لانقاذ من بقى أولى من تعريضهم للموت على غير طائل وقال لو مكثنا على هذه الحالة المجهولة الطريق لكنا قد ألقينا بانفسنا الى التهلكة وهذا أمر منهى عنه فسار ابراهيم باشا فى مقدمة الجيش وكلف رفيقه وصديقه سليمان باشا بالمسير فى المؤخر لصد هجمات الجبليين عنهم ومعاكستهم فى حال رجوعهم فقام بهذه المهمة خير قيام وأمكن العساكر المصرية بعد العناء الشديد الخروج من هذه الجبال الشاهقة حتى وصلوا الى السهل وأخذوا فى حصر الموتى ومداواة الجرحى وترتيب الباقى وتنظيمهم وتحصنوا حتى يصل اليهم المدد

وبعد أن تمت هذه الاجراآت عقد ابراهيم باشا مجلسا حربيا دعى له سليمان باشا وكافة رؤس الجيش للمداولة فى أى الطرق يتخذ لتفريق شمل الجبليين وادخالهم تحت الراية المصرية فبعد مداولات طويلة تقرر قرارهم على استعمال الطريقة التى نجحت فى أول ثورة ضد الشيخ

(١) هذه هى الطريقة الوحيدة التى يستعملها سكان الجبال لحفظ استقلالهم فى كافة الانحاء المسكونة كأهالى سويسرة والجبل الاسود باوروبا وأهالى الحبشة والقبائل القاطنة بجبال الجزائر الغرب وأهالى اسكتلاندا ببريطانيا العظمى.

قاسم المتقدم وأبنائه وهى القاء الشقاق بين الثائرين وحيث ان هذه الثورة لم يكن سببها الا أخذ الشبان الى العسكرية وتجريد الاهالى من السلاح وأن بعض الجبليين وهم المارونية ميالون الى فرنسا وهى مساعدة للحكومة المصرية فيعرض عليهم سليمان باشا الفرنساوى الاصل أن ترد اليهم أسلحتهم وأولادهم ويفهمهم أن فرنسا راضية عن أعمال المصريين فى الشام ولابد بعد ذلك من انفصالهم عن باقى الجبليين من دروز ونصيرية لما بينهم من الضغائن القديمة التى لم يتناسوها الا لمحاربة المصريين مع بقائها فى صدورهم كامنة

وعند سماع المارونية بتساهل المصريين معهم فى هذين الامرين الاصليين عادوا الى السكينة وفرق عليهم ابراهيم باشا كثيرا من الاسلحة والرصاص فاتحدوا معه وأتى فريق منهم الى معسكره ليرشدوه الى الطرق الجبلية المؤدية الى مكامن الدروز والتى لا يعقلها الا العالمون بها من سكان الجبال وسلموه أهم النقط التى كانت بايديهم وتمكن المصريون بهذه الكيفية من الوصول الى تلك المكامن فهاجموا الدروز فى معاقلهم وحصونهم وكان المارونية يحاربونهم مع المصريين بعد أن كانوا اضدهم قبل ذلك بقليل وذلك مشاهد الحصول فى كل جهة لم تربط أهلها وحدة الجنسية تان لم تربطهم الوحدة الدينية فيتمكن الاجنبى من دخول بلادهم بدون كثير عناء فالاينال بالسلاح ينال بالخداع «والحرب خدعة» وقد تمكن المصريون بعد عدة مناوشات كان الفوز فيها حليفهم من اخضاع الدروز والزامهم بالطاعة وادخالهم تحت رايتهم لكن لم يحصل المصريون على هذا الفوز العظيم الا بعد أن قتل من جنودهم عدد عظيم وتحملوا مالا يوصف من المصاعب ولا يطاق من المتاعب فضلا عن مكابدة أنواع المشاق فى التسلق على هذه الجبال الوعرة التى لولا مساعدة المارونية لهم لما أمكنهم الوصول الى معرفة مفاوزها

(واقعة نصيبين)

وفى أثناء هذه المدة توفى بمعسكر (سيواس) القائد التركى رشيد باشا الذى هزمه المصريون فى واقعة (قونيه) قبل أن يأخذ بثاره وعموما لحقه بسبب ذلك من العار وعهدت قيادة هذا

الجيش الى حافظ باشا أحد قواد الدولة العلية الذين امتازوا في الحروب بالثبات والرزانة والامانة والتبصر في عواقب الامور

ولما انتشر في أوروبا خبر فشل الدروز وانتصار المصريين عليهم اضطربت الدول وأرسلت الى الباب العالي تستنهض همته لمحاربة المصريين والمبادرة الى استخلاص البلاد الشامية من أيديهم خوفا من تقدمهم الى بلاد الاناطول اذا استتب الامن في بلاد الشام وهدأت الدروز وأبانت له الدول أيضا ضرورة استفحال أمر محمد علي باشا وانه يخشى من أن ينادي باستقلاله لو لم يسرع الباب العالي في جعل مصر مثل الولايات الشاهانية فأصغى الباب العالي الى هذه الآراء التي ربما كانت مبنية على غايات شخصية وسالم الدول وأوعز الى حافظ باشا أن يتقدم الى تخوم الشام من الجهة التي يسهل عليه الدخول منها فأسرع حافظ باشا بالتقدم الى الامام مملا نفسه بالنصر على المصريين ورد ما فقدته الدولة العلية في واقعة قونيه وما قبلها ولما كانت مضايق (طوروس) قد حصنها المصريون بالقلاع والمدافع الضخمة على أحسن أسلوب وأتم نظام بهمة من استخدمهم عزيزهم من المهندسين الاجانب وصار يتعذر بل يستحيل على أي جيش المرور منها اقترب حافظ باشا من جهة ديار بكر وأورفه حيث يمكن للمهاجم الدخول الى البلاد التابعة للحكومة المصرية بسهولة لاتساع السهول في تلك الجهة وعدم وجود جبال يمكن تحصين مسالكها كجبال (طوروس) ولما علم ابراهيم باشا بذلك جمع معظم جنوده ومدافعه حول مدينة حلب كي يتيسر له صد المهاجم من أي جهة أتى وأما حافظ باشا فارتكب خطأ عظيما ظن أن فيه النصر مع انه كان سبب انكساره كما سيأتي مفصلا ان شاء الله وهو تجزئة جيشه الى عدة فرق ليغير على بلاد الشام ويتعدى حدودها من جهات شتى في آن واحد ولما ذاع خبر تقدم الجيشين أمام بعضهما واستعدادهما للقتال طمحت أبصار دول أوروبا الى ما يكون وراء هذه المعركة من النتائج المهمة التي ربما انقلب بسببها التوازن الشرقي وصارت السلطنة في يد محمد علي باشا وانتقل مركز الخلافة من القسطنطينية الى القاهرة

هذا ولقد عاد محمد علي باشا عند ذلك من بلاد السودان بدون أن ينال الغاية المقصودة من اكتشاف معدن الذهب الذي كان يعود عليه بارباح وافرة ثم انه عثر على عدة معادن

لكنه رأى أنها تحتاج الى مصاريف باهظة ربما زادت عما يستخرج منها من الذهب ولذلك عدل عن استعمالها وصرف وجهه الى تنظيم ادارة السودان واثقا بأنه لو اعتنى بادارتها وتنمية ثروة أهلها لربما عادت على الحكومة المصرية باضعاف ما تربحه من معادن الذهب

وبمجرد عودته أحدقت به قناصل الدول لمعرفة أفكاره من حيث تقدم الاتراك ونياته وعزائمه على فعل ما لو هاجمته الجيوش العثمانية فكان يجاوبهم بأجوبة مرضية لهم ومطمنة لخاطرهم وما زال يؤكد لهم أن جل بغيته حفظ السلم ليتمكن من نشر اسباب التمدن في بلاده ولكن كان في أثناء اعطائه لهم هذه التأكيدات يرسل الجنود والذخائر الى ولده ابراهيم باشا وأوامره المشددة بان يكون دائما مستيقظا ومستعدا لصد هجمات من يتعدى عليه وبانه لا يرد القوة بالقوة الا اذا تعدت العساكر الشاهانية الى تخوم الحكومتين وبانه لا يبدأ أصلا بالهجوم بل يتربص في معسكره منتظرا ما يطرأ عليه من الحوادث حتى لا يكون هنالك وجه لاوروبا تنسبه به الى التعدي والطمع وحب الاتساع ولا يكون لها وجه أيضا في مساعدة الباب العالي عليه وكان ذلك في أوائل سنة ١٨٣٩

لكن لم يغتر الباب العالي بهذه التأكيدات السلمية بل أوعز الى حافظ باشا بان يعبر الفرات ويستعد لمحاربة المصريين عند أول اشارة ترسل اليه فأمر حافظ باشا من يدعى اسمعيل باشا أحد القواد التابعين له وكان معسكرا في بلدة واقعة على الشاطئ الايسر للفرات يسمونها الاتراك (بلاجيك) باجتياز الفرات والانتقال الى الشاطئ الايمن فلما وصل هذا الخبر الى ابراهيم باشا في يوم ٢٣ ابريل سنة ١٨٣٩ أرسل الرسل الى والده بمصر يستفهم منه عما يفعله لو هاجمته الاتراك كما هو المظنون وفي هذه الاثناء كان يرسل أوامره متتابعة الى الجنود يدعوهم للاجتماع حول مدينة (حلب) خوفا من مهاجمة الترك لهم على حين غفلة وجمع اليه أعيان المدينة ومشاهيرها وأعلمهم بتقدم العساكر العثمانية نحو مدينتهم وطلب منهم أن يساعدوه أو بالاقل أن لا يخونوه بتسهيل السبيل للاتراك فأجابوه بلا تردد أنهم يحافظون على ولائه ويدافعون معه عن مدينتهم الى آخر رمق من حياتهم فاطمأن خاطره واستراح باله وعلم أنهم معه لا عليه ولاجل أن يتحقق من موقع العدو أرسل فرقة

مؤلفة من خمسمائة من العرب الذين يعتمد على صداقتهم واخلاصهم له وكلفهم بان يخبروه بحركات الجيوش التركية حتى يكون على يقين من أمرهم وماهم عليه

هذا ولما وصل خبر تقدم الاتراك الى محمد على باشا أمر بجمع العساكر والذخيرة وأرسل الى وزير حربيته المدعو أحمد منكلى باشا لما كان يعهده فيه من الشجاعة والبسالة بان يلحق ابراهيم باشا بالديار الشامية ليكون له عونا وظهيرا في الحوادث المنتظرة فلما علم قناصل الدول بكل هذه الاستعدادات خافوا من سوء العاقبة واشتعال نار الحرب بين مصر والدولة العلية لوثوقهم بانتصار المصريين على الاتراك فتوجه قنصل فرنسا الى محمد على باشا وطلب منه بالحاح زائد أن يوقف سفر أحمد باشا المنكلى خوفا من أن تعتبر الدول سفره هذا بمثابة رغبة في القتال وربما أدى ذلك الى معاكسته ومساعدة الباب العالى عليه وفي آخر المحادثة قال له القنصل ان مسؤلية الحرب تقع على عاتقه لو أرسل أحمد باشا المذكور لان الباب العالى لا يود الا السلم الذى هو رغبة فرنسا فأجابه محمد على باشا بانه مستعد لا لعدم ارسال أحمد باشا فقط بل لاستدعاء ابراهيم باشا مع جيشه أيضا اذا ضمنت له فرنسا أن الترك لا يتقدمون نحو تخوم الشام ففرح بذلك قنصل فرنسا وأبرز له رسالة صادرة من الاميرال (روسان) سفير فرنسا لدى الباب العالى يخبره فيها بأن الباب العالى وعد فرنسا وعدا صريحا بعدم الابتداء بالحرب فنظر حينئذ محمد على باشا الى قنصل النمسا وكان حاضرا هذه المحادثة وقال له أيمكنك أن تضمن لى السلم باسم دولتك كما فعل قرينك فأجابه قنصل النمسا بالنفى حينئذ قال محمد على باشا ان الواجب على الآن أن أستعد للحرب لانى متحقق من نوايا الباب العالى

وفى اليوم التالى سافر أحمد باشا الى حلب وكان وصوله بعد تسعة أيام وعلم القاصى والدانى بذلك وانه لابد من الحرب قريبا وصار الكل في انتظار ما يترتب على هذه الحروب من النتائج وما تفعله أوروبا لو انتصر المصريون على الاتراك ❁ وأما الاتراك فانهم جمعوا جيوشهم حول قرية صغيرة تدعى (نصيبين) وهى نقطة مشهورة في التاريخ بحسن موقعها الحربى حتى انها كانت دائما ملتقى الجيوش التى تنازعت ملك بلاد الشام من الاعصر الخالية الى وقتنا هذا وهذه النقطة مهمة جدا لوقوعها على تلال مرتفعة يحفها من أسفلها نهر

صغير يجرى من الشمال الى الجنوب يصعب العبور لشدة جريان مائه وزيادة عمقه وهو نهر (قرسيم) وكذلك يحيط بها من جهة أخرى نهر آخر يجرى من الغرب الى الشرق ويصب فى نهر قرسيم فيجتمعان ويجريان الى نهر الفُرات

ولو هاجم ابراهيم باشا الجيش التركى فى أثناء عبوره لنهر الفرات حين كان منقسما على الشاطئين لأمكنه أن ينتصر عليه بكل سهولة لولا أن حالت بينه و بين بغيته هذه أوامر والده المشددة عليه بعدم الابتداء بالهجوم وكانت فى أثناء هذه المدة قناصل الدول تكثر من التردد على سراى محمد على باشا بشبرى لتبليغه كل مايرد عليهم من دولهم فكانت الدول تارة تهدده بتداخلها وابتدأ بالحرب وتارة تعده بأن تتوسط له عند الباب العالى ليعطى له ولايتى مصر والشام وتكون له ولأولاده من بعده ولكثرة إلحاح القناصل عليه سافر الى الوجه البحرى بقصد التفسح ولتسكين خاطر القناصل كتب الى باغوص بك ناظر خارجيته بالقاهرة جوابا من شبين بتاريخ ١٦ صفر سنة ١٢٥٥ الموافق (٢ ابريل سنة ١٨٣٩) يخبره بأنه قد ورد اليه كتاب من ولده ابراهيم باشا من جهة الشام يقول فيه ان العساكر الشاهانية اجتازت الفُرات عند قرية (بلاجيك) ويظهر أن توجههامدينة حلب وانه كتب الى ولده أن لا يهاجم الجيش التركى بل يتربص فى مكانه حتى يهاجموه فيدافع عن نفسه بقدر الطاقة

لكن لم يهدأ بال القناصل بل توجه الموسيو (دى ميدم) قنصل جنرال الروسية الى دمياط ومعه رسالة وردت اليه بخط الموسيو (نسارود) وزير الروسية الاول يهدد فيها محمد على باشا بالتداخل الحربى ان لم يصدر أمره حالا برجوع العساكر المصرية من الشام ويعترف بتبعيته للباب العالى ويقبل كل ما تقرره الدولة بشأنه فاغتاظ لذلك محمد على باشا لكنه كظم غيظه ووعد برد الجواب ثم فى يوم ١٦ مايو سنة ١٨٣٩ أرسل الى قناصل الدول عموما منشورا يخبرهم فيه بانه لو رجعت العساكر السلطانية الى الشاطئ الايسر من الفُرات فهو أيضا يأمر برجوع عساكره ورجوع ابراهيم باشا أيضا الى (دمشق) ولو عادت عساكر الدولة الى ماوراء (ملطية) فهو يستدعى ابراهيم باشا الى مصر فضلا عن كونه مستعدا الارجاع جزء عظيم

من جيشه الى مصر لو لم تهدد الدول الاربع العظمى (١) وقبل الباب بأن تكون مصر والشام لمحمد على ولورثته الى ماشاء الله ولكن لم تقبل الدولة العلية ذلك بل عزمت على أن لا تسلم الا للقوة وأرسلت الى حافظ باشا أن يستعد لمقاتلة المصريين ومكافحتهم فأمر حافظ باشا بقطع العلاقات التجارية بين ولايات الدولة والشام وأوقف أيضا سير القوافل فأمر بمثل ذلك ابراهيم باشا وأرسل سليمان باشا وكان مكلفا بالمخاطبات السياسية منشورا الى قناصل الدول بحلب يخبرهم فيه ان ابراهيم باشا أمر بعدم سير القوافل الى ولايات الدولة العلية لابتداء حافظ باشا بمثل ذلك وان هذا التحريج لا يرتفع الا اذا عادت المواصلات بأمر القائد التركى فاغتاظ لذلك حافظ باشا وابتدأ فى أخذ كل ماتصل اليه يده من خيول وبغال وحمير وأغنام مما يكون للجيش المصرى ثم احتل قرى عديدة حول مدينة (عين تاب) بدون اشهار الحرب كما هى عادة الامم المتمدنة ثم هجم على هذه المدينة نفسها ودخلها عنوة بعد أن طرد الحامية المصرية فكتب ابراهيم باشا لوالده يعلمه بأن الاتراك تعدوا الحدود ودخلوا البلاد التابعة للحكومة المصرية بمقتضى معاهدة (كوتاهيه) ولما لم يرد له رد الخطاب بسرعة واستبطأه قام من حلب مع جزء من جيشه وأمر سليمان باشا بأن يكون على أهبة السير لمساعدته لو دعت الضرورة للقتال وبينما هو سائر اذ ورد عليه خبر استيلاء الترك على مدينة واقعة على الشاطئ الايمن للفرات تدعى (تل باشر) (٢) بعد أن قتلوا وأسروا فريقا من حاميتها التى كانت مؤلفة من خمسمائة من عرب الهنادى

فلما طرق هذا الخبر أذنه جد فى السير وأرسل الى سليمان باشا يستدعيه للقيام بدون تأخير مع بقية الجيش ليلجئ الاتراك الى الرجوع الى ماوراء الحدود ويسترد منهم ماسلبوه خيانة وغدرا ولكن بمجرد وصول العساكر المصرية الى تل باشر أخلاها العثمانيون بدون قتال لما علموا وتيقنوا من ضعفهم عن مقاومة المصريين فلم يقتف ابراهيم باشا أثرهم بل اكتفى بعودهم الى الحدود منتظرا ما يأمر به والده وكان ذلك فى ٣ يوليو سنة ١٨٣٩

(١) يريد بذلك دول الروسيا والنمسا وفرنسا وانكلترا

(٢) تل باشر هو موضع قرب حلب على يومين منها وفيه قلعة تخرج منها علماء كثيرون منهم حسن بن على ابن ثابت التل باشرى سمع الغيلانيات على الفخر بن البخارى اهـ من شارح القاموس للسيد محمد مرتضى

وفى

وفى ١٥ منه ورد اليه جواب والده مؤرخا ٢٨ ربيع الاول سنة ١٢٥٥ الموافق (٦ يونيو سنة ١٨٣٩) يقول له فيه حيث ان الاتراك اعتدوا عليه ولم يراعوا العهود ولا المواثيق فلا يكتفى بارجاعهم الى الحدود بل يلزمه محاربتهم واهلاك جيشهم كى لا يعودوا الى اعتدائهم

فلما وصل اليه هذا الجواب ورأى فيه الامر الذى كان رغبه أصدر أوامره الى سليمان باشا وسائر القواد بالسير الى الامام لمهاجمة الاتراك فى معسكرهم بنصيبين

وفى يوم ٢٠ يونيو سنة ١٨٣٩ تحرك الجيش بأجمعه واحتل بدون عناء كثيرا النقط الامامية وأخذ قليلا من الاسرى

وفى اليوم التالى أراد ابراهيم باشا أن يهاجم الاتراك على حين غفلة لكنه عدل عن هذا الرأى اتباعا لمشورة سليمان باشا وقر رأيهما على استكشاف مواقع العدو قبل الهجوم عليه وكان الاتراك قد حصنوا نقطة نصيبين حتى جعلوها أمنع المواقع الحربية فى الدولة العلية وذلك بارشاد من استخدموهم من ضباط الالمان وكان من ضمنهم البارون (دى مولتك) الذى ينسب اليه انتصار الالمانيين على الفرنساويين فى سنة ١٨٧٠ فكان اذ ذاك فى خدمة الباب العالى منوطا بأن يكون مرافقا لحافظ باشا بصفة أركان حرب أعنى مرشدا فلما استحسن ابراهيم باشا مشورة سليمان باشا الذى رافقه فى هذا الاستكشاف اتبعها وأخذ ألفا وخمسمائة من العربان وأربعة آلايات من السوارى وبطريتين من المدافع وسار بهذه القوة القليلة حتى قرب من مدافع الاتراك فأرسلوا اليهم لردهم عددا عظيما من العساكر الغير المنتظمين (باشيبزوق) وقليلا من السوارى النظامية فناوشهم المصريون مناوشة خفيفة حتى ألجؤهم الى الرجوع والعود الى استحكاماتهم وتمكن سليمان باشا وابراهيم باشا فى خلال ذلك من استكشاف التحصينات المهمة التى أقيمت أمام نصيبين وتبين لهما انه يتعذر ان لم يكن مستحيلا مهاجمتها من هذه الجهة مهما كانت شجاعة المصريين ولذلك عاد الجميع الى معسكرهم بقرب نهر مزار لينظروا أى طريق أنجع للاستيلاء على هذه النقطة المهمة التى لو وقعت فى قبضة المصريين وتشتت الجيش العثمانى المتحصن فيها لم يبق بعد للترك قائمة الا اذا تداركتهم العناية بمساعدة الدول الاوروباوية لهم

ولما انتشر خبر رجوع المصريين شمل السرور الجيش التركى وظنوا أن المصريين لا يجسرون على مهاجمتهم بل لابد أن يتركوا معسكرهم ويعودوا الى حيث أتوا ثم زاد سرورهم لما أخلى المصريون معسكرهم فى اليوم التالى وأخذوا فى الانسحاب والرجوع فلما رأى الاتراك ذلك ظنوا أنهم ولوا الادبار لكن لم تلبث أفراحهم أن تبدلت أتراحا لما علموا أن المصريين لم يعودوا بل أخذوا فى الدوران حول نصيبين ليهاجموها من الجهة الاخرى التى لم يحصنها الاتراك لعدم توهمهم أن المصريين يأتونهم منها

فجمع حافظ باشا مجلسا عسكريا للتقرير ما يجب اتخاذه ضد هذه المناورة العسكرية التى لم تخطر ببالهم فأراد البارون (دى مولتك) ومن معه من ضباط الالمان أن يهاجموا المصريين فى أثناء سيرهم وعدم استعدادهم للنزال وتأهبهم للقتال لكن اعترض عليه فى هذا الرأى الصائب القائد التركى وسائر الضباط الاتراك قائلين كيف نترك نقطة صرفنا نفيس الوقت ومعظم المال فى تحصينها ونعرض أنفسنا وأرواحنا الى القتال فى واد سهل لا يوجد به أدنى استحكام طبيعى أو صناعى للاحتماء به فرد عليهم الالمانيون بان الجيش التركى يبلغ عدده ستين ألف مقاتل والجيش المصرى لا يزيد عن أربعين ألفا فيمكن الترك بكل سهولة أن يتغلبوا على المصريين مع أنهم لو تربصوا فى معاقلهم وهاجمهم المصريون فى الجهة القليلة التحصين لربما كان الفوز والنصر لهم

فلم يقبل حافظ باشا نصيحتهم بل اعتمد على رأيه من البقاء فى الحصون حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فاغتاظ لذلك الالمانيون وأرادوا أن يقدموا استعفاءهم لولا خوفهم مما يلحقهم من العار والملامة لو تأخروا أمام عدو مهاجم

وفى اثناء هذه المداولة تقدم ابراهيم باشا وفريق من الخيالة المنتظمة والعرب نحو القنطرة المبنية على نهر قرسيم بعد اتحاده بنهر مزار قصد اصلاحها لمرور الجيش لتوهمه أن الاتراك لابد أن يكونوا قد خربوها لمنع وصول المصريين اليهم لكنه وجدها على حالها فأسرع للاستيلاء عليها قبل وصول الخيالة الذين أرسلهم حافظ باشا لصد المصريين عنها لكن لما وصلت السوارى العثمانيون كان قد سبق السيف العذل واجتازها ابراهيم باشا وعسكره ولم يمكن بهذه الكيفية للعثمانيين استرجاعها بل بقيت فى قبضة المصريين وقد وصل اليها

باقى الجيش فى مساء ٢٢ من شهر مايو تحت قيادة سليمان باشا وعسكر الجيش كله على ضفة نهر (قرسيم) المواجهة للجيش التركى واتخذ المصريون الاستعدادات اللازمة لصد الاتراك لو هاجموهم ليلا هذا ولم يضيع حافظ باشا وقته سدى بل غير وجهة جيشه وأخذ فى اقامة بعض استحكامات لمقاومة المصريين من هذه الجهة وحصنها بالمدافع التى كانت فى الحصون الاول فاوجب هذا التغيير ارتباك الجند لان الجناح الايمن صار أيسر والأيسر صار أيمن نعم ان مثل هذا التغيير لا يترتب عليه أدنى ارتباك لو كان الجيش مدربا على مثل هذه المناورات لكن الجيش التركى الذى كان محصنا فى نصيبين لم يكن من الانتظام على جانب عظيم لانه حشد بعد تشتت الجيش القديم فى واقعة (قونيه) ولذلك وقع فيه خلل كبير بسبب هذه المناورة التى لم يروها قبل هذه المرة فضلا عن أن الاستحكامات التى اقيمت على عجل لم تكن كافية لمقاومة المصريين ومعلوم ان المهاجم يكون دائما أشد من المدافع خصوصا لو كان المهاجم أكثر انتظاما من مقاومه

كل هذه أمور أوقعت الضباط الالمانيين فى حيرة عظيمة لتخوفهم ان لم نقل لتحققهم من فوز المصريين وفى يوم ٢٣ يونيو سنة ١٨٣٩ توفيت الخاتون الانكليزية (ليدى ستانهوب) (١) التى كانت من ألد اعداء الحكومة المصرية فى بلاد الشأم وكثيرا ما ألقت الدسائس

(١) هى امرأة انكليزية شريفة ذات أطوار غريبة ولدت فى لندن تخت المملكة الانكليزية فى ١٢ مارث سنة ١٧٧٦ وتوفيت فى (جون) من جبل لبنان فى ٢٣ يونيو سنة ١٨٣٩ وكانت بكر أولاد (كارلوس) ثالث أرلات (استانهوب) من زوجته (استير) ابنة (وليم بت أرل شتام) وزير انكلترا الشهير وبقيت عنده الى ان مات سنة ١٨٠٦ فاوصى عليها الامة الانكليزية فعينت لها مرتبا سنويا قدره ١٢٠٠ ليرة انكليزية وبعد قليل تركت انكلترا وطافت أوربا ولم ترغب فى الزواج مع ما لها من الجمال والبهاء وبعد ما طافت أوربا سافرت الى استانبول ثم قصدت بر الشام فوصلت اللاذقية بعد اخطار عظيمة أحدقت بها أثناء سفرها ونجت منها باذن الله وبعد ما تعلمت لغة العرب وعوائدهم عزمت على الطواف والجولان فى الاماكن التى يعز وصول الافرنج اليها فشكلت قافلة وحملت هدايا نفيسة الى البدو فزارت أشهر مدن الشام ثم وصلت مدينة تدمر فاجتمع عليها كثير من قبائل البدو فاعجبهم جمالها ولطفها وشبهوها بزينوبيا الرومانية ملكة تدمر واشتهر عليها من ذلك الحين هذا اللقب الذى تعرف هى به فى كتب الافرنج ثم فى سنة ١٨١٣ استوطنت فى دير على مسافة ساعة من مدينة صيدا وبنت به لها ولمن معها بيوتا على الشكل الشرقى وكانت دائما تلبس لبس أمير شرقى وتتقلد السلاح

وفرقت المال والسلاح على سكان الجبل لمحاربة المصريين اختطفتها أيدى المنون قبل أن تشاهد انتصار المصريين فى واقعة نصيبين وعلى أى حال لولم تمت فى تلك الليلة لماتت فى اليوم التالى مما كان يصيبها من الحزن والكدر لعدم نوالها بغيتها القلبية وهى انخذال المصريين فى ساحة الوغى الامر الذى صرفت لاجله مالها وحياتها فماتت غير مأسوف عليها من المصريين ونصرانيهم هذا وممازاد فى تخوف الضباط الالمان ما كان للجيش المصرى على العثمانى من المميزات منها أن الجيش المصرى لم يكن مؤلفا الامن جنس واحد وهو الجنس المصرى وجميعهم مدربون على الاعمال الحربية وعلى النظام الاوربى ماعدا بعضا من العرب الهنادى وكان جميع ضباطه حائزين رتبهم بالاستحقاق والاهلية والكل واثقون برئيسهم ابراهيم باشا الماً لوممن النصر أكثر من مرة تحت قيادته

وكان لها علاقات مع الباب العالى وأمراء لبنان ومشايخ البدو فى برارى الشام وبغداد والجزيرة ثم انتقلت الى بيت مرتفع بالقرب من قرية (جون) بلبنان وحصنته باسوار منيعة لتكون فى مأمن من طوارق الزمان لاسيما وأن الاهالى نفروا منها لما تناقصت ثروتها ولم يمكنها أن تواصلهم بالهدايا كما كانت تفعل قبل وأخذت من ذلك العهد فى التداخل فى الامور السياسية وكان لها نفوذ عظيم بين قبائل البادية حتى انه لما عزم ابراهيم باشا على فتح سورية اضطره الامر أن يطلب اليها أن تكون على الحيادة ويقال انه بعد سقوط مدينة عكا فى أيدى المصريين أوى اليها كثير من الفارين وكانت تتعاطى التنجيم وتعتقد صحة ما يجىء به مع غرابة ذلك واجماع العلماء على فساده وفى السنين الاخيرة من حياتها لما بلغ أهلها فى انكلترا ما كان من أمرها وسيرها فى غير الطريق الحسن وتداخلها فيما لا يعنيها قطعوا عنها المال فكثرت عليها الديون لانها لم تقلل شيأ من مصروفاتها وبقيت مدة وحدها بعد أن مات من صحبها من الافرنج بدون كتب ولا جرائد ولا رسائل من أوربا ولم يكن عندها صديق يواليها ولا أنيس يؤانسها ولا سمير يسامرها ولا جليس يجالسها بل بقى لها فقط جماعة من الجوارى والعبيد السود وبضعة فلاحين سوريين يعتنون ببساتينها وخيلها ويحفظونها من الطوارق ولما كثرت ديونها اعتراها مرض عضال قضت به نحبها ولم يكن عندها أحد من الافرنج بل أحاط بها جماعة من خدامها وعند وفاتها حضر قنصل الانكليز فى بيروت ومعه أحد القسيسين الامريكانيين لدفنها فدفنت فى البستان المجاور لدارها وقصارى الكلام انها حصلت باعمالها على شهرة عظيمة فى الشرق واذهلت أوربا كلها وكان الاهالى عموما يسمونها بالست الانكليزية وقد روى عنها قصص غريبة كثيرة تكاد تكون من الخرافات فضلا عن أنها لا يوثق بها وقد زارها كثير من السائحين الاورباويين وكان من جملتهم الشاعر الفرنساوى الشهير (دى لامارتين) ذو المرتبة العالية والمعرفة السامية سنة ١٨٣٢

تلك صفات كانت معدومة من الجيش التركى لانه كان مؤلفا من ترك وأكراد وغيرهم من الامم المكونة للدولة العثمانية وليس بينهم وحدة جنسية تربط بعضهم ببعض وأغلبهم غير منتظم والمنتظم منهم لم يكن مستعدا للقتال استعدادا كافيا لمقاومة جيش منتظم كالجيش المصرى وأما ضباطه فأكثرهم ان لم يكن كلهم لم ينالوا وظائفهم بالاستحقاق والاهلية فضلا عما لحقهم من الانهزام أمام الجيوش المصرية فى واقعة (قونيه) كما سبق ذلك فى بابه

وفى ليلة ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ أراد حافظ باشا أن يهاجم المصريين تحت جناح الظلام طمعا فى أن يوقع الفشل بينهم لكنه لم يتم له مقصوده لانه بعد أن ألقى بين خيام المصريين قليلا من القلل انتبهوا من رقادهم فلم يمكن الاقليل حتى صدوا مهاجمة الترك وألزموهم بالرجوع الى معسكرهم فعادوا منهزمين بعد أن خضبوا الارض بدمائهم وملؤا الاودية بأجسامهم ولم يقتل من المصريين الا النزر اليسير وكان المجروح منهم قليلا وحدث فى هذه الوقعة أن بعض الشاميين هربوا من الجيش المصرى والتجؤا الى العسكر العثمانى وحاربوا معهم فى صفوفهم وكذلك أورطتان من ألاى الحرس الثالث أرادتا الانضمام للترك فلحقهما ابراهيم باشا فى سيرهما وأعادهما الى مركزهما ولم يرغب مجازاتهما مجازاة شديدة خوفا من تذمر باقى الشاميين فى هذا الوقت الذى يلزم فيه أن يكون الجيش كله قلبا واحدا فقبل اعتذارهم بأنهم ضلوا عن السبيل فى أثناء الحرب واكتفى بتغيير ضباطهم بآخرين ممن يثق بهم واستمر الجيش بقية ليله يتأهب للقتال لتصميم ابراهيم باشا على مهاجمة الاتراك

فى يوم ٢٤ يونيه

وفى صبيحة هذا اليوم المشهود طلع ابراهيم باشا وقليل من الهنادى لاستكشاف مواقع الترك ليهاجمهم فى موقع الضعف فتحقق له أنه لا يمكنه مهاجمتهم من الجناح الايمن لارتكازه على أخوار عميقة لا يمكنه اجتيازها تحت نيرانهم ولا من الوسط أيضا لما أقامه الترك من المعاقل عند تغيير وجهتهم وموقع الضعف هو الجناح الايسر لعدم وجود موانع طبيعية أو صناعية تمنع تقدمهم الا بعض أشجار من الزيتون متباعدة عنها بحيث يتيسر المرور من بينها ولما كان ابراهيم باشا معسكرا بين الجيش التركى والفرات أى أمام جناحه الايمن فلمهاجمة الجناح الايسر لزمه أن يمر بكل جيشه أمام جيش الترك الى أن يصل الى الجناح

الايسر ولا يخفى ما فى مثـل هذه الحركة من الخطر لانه لو هاجمه الاتراك فى أثناء مروره لوقع
الفشل فى صفوف المصريين وكان الفوز للعثمانيين لكن أهمل حافظ باشا أن يأخذ بالرأى
السديد وهو مهاجمته للمصريين أثناء سيرهم أمامه فلم يبدحراكا بل اتبع رأى من كان معه
من الضباط الاتراك المخالفين لرأى اركان الحرب الالمانيين

ولما اقترب الجيش المصرى من الجناح الايسر لمح ابراهيم باشا هضبة مرتفعة مشرفة على
مواقع الترك ولم يحتلوها فأمر فى الحال سليمان باشا باحتلالها فركض سليمان باشا
بجواده وتبعه السوارى والطوبجية الراكبة وسار الكل مسرعين نحو هذه الهضبة التى
كان احتلالها من أكبر دواعى انتصار المصريين وعند ذلك انتبه الاتراك من غفلتهم
واستيقظوا من نومتهم لما رأوا اتجاه المصريين نحوها وأدركوا أهميتها فارسلوا عدة ألايات
من سواريهم قصد احتلالها وابعاد المصريين عنها ولكن لحسن حظ المصريين كان
سليمان باشا قد احتلها مع عسكره قبل وصول الاتراك فلما وصلوا اليه أرسل عليهم نيرانه
وألزمهم العود منهزمين

ولما وصل الجيش المصرى بتمامه الى الجناح الايسر لم ينتظر ابراهيم باشا تجمع العسكر
المعينين للهجوم بل هجم مع قليل من الجند على الجيش التركى ليكون أول من دخل
معاقلهم واحتل حصونهم ولكن لما كان المصريون المهاجمون قليلين والجيش التركى
كثير او ناره قوية وقع الرعب فى قلوب المهاجمين وامتنعوا عن التقدم ومازال ابراهيم باشا
يهددهم ويحثهم على الاقدام فلم يقبلوا بل قفلوا عائدين وكانت هذه أول مرة تقهقر فيها
المصريون أمام الاتراك ولا لوم عليهم فى ذلك بل على قائدهم حيث لم يتأن وخاطر بحياته
وجنده حبا فى نوال الشرف ولما رأى سليمان باشا تقهقر الجند صوب عليهم نيران
مدافعه حتى ألزمهم التقدم الى الامام مفضلين الموت مع الشرف على الحياة مع الخزى
والتلف خصوصا اذا كان الموت محققا فى كلتا الحالتين وبذلك تمكن ابراهيم باشا من
أن يحارب ويناضل الى أن وصل الجيش باجمعه واشترك مع المقدمة فى الهجوم ولما
اشتدت نار الوغى تزعزع الجناح الايسر العثمانى وأخذ فى القهقرى وابتدأ الاكراد
بالهرب ولم يلبث باقى الجيش أن حذا حذوهم وولى الكل الادبار والتجؤا الى الفرار

وقتل

وقتـل في هـذه المعركة خالد باشا أحد قواد الدولة العلية المشهورين وأركان حربه المدعو ابراهيم بك الذى تخرج في مدارس فرنسا الحربية لانهما لم يتركا مكانهما حتى قتـلا وأما الضباط الالمانيون وحافظ باشا ومن معهم من بقية الجيش فتقهقروا على غير نظام مسرعين بالفرار الى مدينة مرعش فعند ذلك اقتفى المصريون أثرهم وأبلوا فيهم بلاء حسنا ثم عادوا الى المعسكر التركى فوجـدوه على حالته حتى ان بعض الضباط الالمانيين ومنهم البارون (دى مولتك) تركوا ملابسهـم وأوراقهـم وغنم المصريون كل ما في المعسـكر من خيم ومؤن وذخائر ومن المدافع ١٩٦ ومن البنادق ٢٠ ألفا وقتل في هذه الوقعة ٤٠٠٠ عثمانى ومن المصريين كذلك تقريبا لكن قتل المصريون من الاتراك في حال تتبعهم لهـم ما يبلغ خمسة أسداسهم فقد قال البارون (دى مولتك) في كتابه على الشرق ان فرقة بكير باشا التى كان يبلغ عـددها ٥٠٠٠ لم يبق منها الا ٣٥٠ نفسـا وان فرقة محمود باشا لم يبق منها الا ٧٥ نفسا وأما السوارى فلم يقتل منهـم الا القليل لانهم بادروا بالهرب ابتداء فأرسل ابراهيم باشا الى والده يبشره بهذا الفوز العظيم الذى خلص مصر وأنقذها من التهديدات التى كانت تتوارد عليها وعما زاده اشرفا أنها قاومت رجال الدولة العلية

ولا يخفى ما ترتب على هـذا النصر من الفوائد الجمة كتوطيد ملك محمد على باشا في بلاد الشام وبلاد الجزيرة وايقاع الرعب في قلوب سكان تلك الجهات الذين كفوا عن اثارة الخواطر وبث الدسائس لتحققهم عدم قيام الدولة العليـة بمساعدتهم وكان عقب هـذه الواقعة موت السلطان محمود خان الثانى فتوفى في يوم ١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ الموافق أول يوليو سنة ١٨٣٩

ولما مات وحضر الاطباء لتشخيص مرضه الذى كان سبب الموته اختلفت آراؤهم فيـه فمنهم من قال انه توفى بداء السل الرئوى ومنهم من قال ان موته مسبب عن اضطراب عصبي ومنهم من قال غير ذلك وكان له من العمر أربع وخمسون سنة ومكث خلافته احدى وثلاثين سنة وخلفه على الملك بعده ولده السلطان عبد المجيد خان الاول وكان عمره اذ ذاك ١٧ سنة

هذا وبعد أن أتاح الله النصر لابراهيم باشا توجه بنفسه للاستيلاء على المعسكر المحصن الذى كان قد أقامه الاتراك في (بلاجيك) على ضفة الفرات اليمنى ووجه قواده لاحتلال

ملطية وقونيه ثم سافر في ٢٧ الشهر ليحتل مدينة (عين تاب) التي فتحت أبوابها لاثر الذ وصولها وبعد أن احتلها بدون مقاومة وعفا عن مشايخها سافر الى مدينة قيصرية ليريح عساكره ويتقدم لفتح بلاد الاناطول وفي ٢٩ منه وصل اليه الموسيو (كايي) وكان قد أرسله المارشال (سولت) وزير فرنسا الاول الى محمد علي باشا ونجله ابراهيم باشا ليخبرهما بان أوروبا جميعها حتى فرنسا عازمة على منع القتال بينه وبين الباب العالي وحسم الخلاف الواقع بينهما بالطرق الحبية السلمية وكان سفره من باريس في ٢٨ مايو سنة ١٨٣٩ ووصوله الى الاسكندرية في ١٣ يونيو فقابل محمد علي باشا وأخبره بالمأمورية التي كلف بها وطلب منه أمرا لولده ابراهيم باشا بعدم الابتداء بالحرب وبعدم اجتياز جبل (طوروس) لوحصل الحرب قهرا عنه وانتصر هو فيه فأجاب الى ذلك محمد علي باشا قائلا أن فرنسا كما أنها تلزمه بعدم الحرب لابد أن تساعده لو تعدى الباب العالي عليه وأعطى الموسيو (كايي) الجواب المطلوب فسافر الى اسكندرونة ومنها الى حلب مستبشرا بنجاح مأموريته ولكن لسوء حظه لما وصل حلب بلغه خبر انتصار ابراهيم باشا في (نصيبين) فسافر لوقته الى هذه الجهة ليمنعه عن اجتياز جبل (طوروس) فلم يجده فيها فاستفهم عنه فقيل له انه قام لتتميم انتصاره باحتلال مضايق الجبل وانه وجه قواده للاستيلاء على مدينتي (قونيه) و(ملطية) الواقعتين فيما وراء الجبل

فخاف الموسيو (كايي) في أمره وأيقن بتداخل الدول وخصوصا الروسيا وانكلترا والنمسا لصد ابراهيم باشا عن أملاك الدولة العلية لو قصد التقدم الى مركز الخلافة العظمى فطار بجناح السرعة الى (قيصرية) فقابل ابراهيم باشا امامها وفاتحه بما أرسل لاجله من ايقاف سير العساكر المصرية نحو الاناطول فاستشاط الباشا غيظا وقال ان هذا الامر مستحيل وكيف يجوز لقائد حاز على النصر والغلبة أن يقف بطريقه ولا يتمم انتصاره لكن تيسر للموسيو (كايي) أن يصد ابراهيم باشا عن مشروعه ويقنعه بعدم استمرار القتال ويمنعه من التقدم الى بلاد الاناطول فوعد بعدم احتلال مدينة (قونيه) ولم يثن عن احتلال (ملطية) وما جاورها من البلاد قائلا ان احتلال هذه المدينة ضروري لحفظ بلاد الشام من هجمات الاعداء

فلم يقبل الموسيو (كابي) ذلك بل أظهر لابراهيم باشا ضرورة عدم الخروج عن حدود الشام خوفا من أن تعتبر الدول الاروباوية ذلك تعديا على أملاك الباب العالى وتتداخل بينهما ورعا جبرته بالقوة على الرجوع وان الجواب المرسل اليه من والده منعه عن اجتياز جبال (طوروس) فلم يذعن ابراهيم باشا لذلك بل عزم فى نفسه على احتلال ملطية وأمر جيشه بالتأهب للسفر ولكن لم يلبث الموسيو (كابي) أن عاود الكرة وألح عليه بالتنازل عن هذا المشروع لما يترتب عليه من الضرر وبعد اللتيا والتى قبل ابراهيم باشا ذلك وأصدر أوامره الى قواده بذلك واكتفى باحتلال مدينتى مرعش وأورفه

(*تسليم قبطان باشا الدونانمة التركية الى محمد على باشا*) وقد حدثت فى خلال ذلك مسئلة هيجت الخواطر فى أوروبا وهى أن أحمد باشا قبودان الدونانمة التركية سافر الى الاسكندرية وسلم الدونانمة المذكورة برجالها ومدافعها الى محمد على باشا وذلك انه فى أثناء شهر يوليو سنة ١٨٣٩ صدرت الاوامر قبل الى هذه الدونانمة قبيل واقعة (نصيبين) بالخروج من بوغاز الدردانيل قصد محاربة الدونانمة المصرية لكن كانت كل من فرنسا وانكلترا أرسلت دونانمة من طرفها لمنع انتشاب الحرب بين الدونانمتين التركية والمصرية ولذلك لم يحصل بينهما قتال

ولما تولى السلطان عبد المجيد أراد أن يحسم الخلاف بينه وبين محمد على باشا بالطرق السلمية لما رآه من أن ذلك أولى من استمرار القتال وسفك دم العباد فعين من يدعى عاكف أفندى للسفر الى مصر للاتفاق على هدنة معينة يمكن فى خلالها اجراء المخابرات والاتفاق على طريقة مرضية للطرفين وكلف عاكف أفندى المذكور بأمر أحمد باشا قبودان بالرجوع الى القسطنطينية فلما انتهى هذا الخبر الى أحمد باشا وكان قد علم بموت السلطان محمود وتعيين خسرو باشا صدرا أعظم ظن أن استدعاءه الى اسلامبول لم يكن الا لعزله أولقتله لما بينه وبين خسرو باشا من الضغائن ولعدم وجود من يدافع عنه لموت السلطان محمود حيث كان محبه وصديقه الوحيد فصغا الى ماوسوس له به وكيله المدعو عثمان باشا من الالتجاء الى محمد على باشا وتسليمه الدونانمة وفى يوم ١٤ يوليو سنة ١٨٣٩ أقلع عراكبه وخرج من الدردانيل قاصدا ثغر الاسكندرية فشاهده

الاميرال (لالاند) اذ كان بمراكبه موجودا بالقرب من البوغاز المذكور ولكن لما كانت أوامره لاتبيح له التعرض لها فى سيرها بل منع القتال فقط اكتفى الاميرال الفرنساوى باتباعها ومراقبتها حتى اذا أرادت القتال منعها طوعا أو كرها وفى أثناء السير اقتربت منه بارجة عثمانية تقل عثمان باشا وأشارت اليه بالاشارات البحرية انه يريد الاجتماع بالاميرال فنزل الاميرال بنفسه الى البارجة ووجد عثمان باشا فى انتظاره وبعد أن تحادثا مليا عن موت السلطان محمود قال له عثمان باشا ان موته لم يكن عاديا بل هو ناشئ عن دسائس خسرو باشا وخليل باشا صهر السلطان ولذلك قد عزم هو وأحمد باشا قبودان على السفر الى جزيرة (كريد) للمخابرة مع حافظ باشا قائد الجيوش البرية فى الاناطول ومع محمد على باشا والى مصر لابرام تحالف بينهم على طرد الصدر الاعظم خسرو باشا وشيعته وتولية مهام الدولة الى من يوثق به من الرجال فحصل للاميرال (لالاند) من هذا الكلام دهشة وتوجس خيفة من سوء عاقبة هذا المشروع ونتائجه الوخيمة فبذل جهده فى ارجاعه عنه ولما لم يجد منه اذنا صاغية وكانت الاوامر المرسلة اليه من حكومته لاتبيح له منعه نصحه بان يسافر الى جزيرة (رودس) التابعة للدولة العلية لان جزيرة (كريد) كانت اذ ذاك تابعة لمصر ولايجوز له ان يذهب لها فوعده عثمان باشا بذلك وأقلع الى جهة الجنوب فظن الاميرال (لالاند) أنه مسافر الى (رودس) ولذلك كف عن مراقبته وأرسل سفينة واحدة لمرافقته وفى الحال أيضا أرسل أحد ضباطه الى اسلامبول لتبليغ سفير فرنسا ما حصل فوصل هذا الضابط فى ٧ يونيو وأخبر السفير بسفر الدونانمة الى جزيرة (رودس) كما كان يظن الاميرال (لالاند) فأخبر السفير فى الحال الباب العالى لاتخاذ الاحتياطات اللازمة وكذلك أخبر باقى السفراء ثم بعد هذا بقليل وصلهم خبر وصول الدونانمة المذكورة الى الاسكندرية فكان له تأثير مكدر بين رؤساء الدولة وسفراء الدول ذات الشأن لان الدولة العلية بهذه الكيفية لاتثق بأحد من قوادها فكأنها لاجيش ولادونانمة لها

فارسلت الدول الى قناصلها بالاسكندرية لتطلب من محمد على باشا ارجاع المراكب للدولة منعا لما عساه يحصل من اكراه الدول له على ذلك وألح عليه قنصل فرنسا كثيرا فلم يصغ لنصائحهم بل عزم على أن لايردها للدولة مالم تعطه ولاية مصر وولايات الشام وآسيا

الصغرى التى احتلها بعد ما كره وتكون له ولذريته من بعده وتضمن له الدولة ذلك وتعزل خسرو باشا من منصب الصدارة وفى يوم ٢٤ يوليو عاد الى القسطنطينية عاكف أفندى الذى كان قد أرسل لمصر لا يقاف تقدم الجيوش المصرية ومعه رسالة من محمد على باشا يقول فيها انه كتب لولده ابراهيم باشا بأن يقف بالنقط التى هو بها الى أن تصدر له أوامر جديدة وانه لم يزل مصرا على عدم قبول الصلح والطاعة للباب العالى الا اذا منحه وذريته من بعده الولايات التى احتلها وكيف يقبل خلاف ذلك وسار يم أفندى المندوب الاول للباب العالى كان قد عرض عليه ملك مصر وولايتى صيدا وطرابلس

(*تداخل الدول*) فى يوم ٢٧ من يوليو اجتمع وزراء الدولة ليتداولوا فيما يلزم اتباعه فى المسئلة المصرية لمنع الابراهيم باشا من الزحف على القسطنطينية ولتداخل الروسيا الاسيما ولا جيش للدولة لا برا ولا بحرا فقر رأيهم على اعطاء محمد على باشا مصر والشأم ما عدا اقسم (اطنه) و بلاد العرب بشرط أن يكون للباب العالى حق الاحتلال وادارة كل من دمشق و (أورشلم) ومكة والمدينة وان يدفع والى مصر خراجا سنويا قدره ثلاثون مليونا قرشا تركيا (تساوى ثلثمائة ألف جنيه مصرى تقريبا) وقرروا أيضا أن يرسل اليه مندوبون لتبليغه هذا القرار لكن قبل سفر هؤلاء المندوبين أرسل سفراء الدول الى الباب العالى لائحة اشتراكية بتاريخ ٢٨ يوليه ممضاة من سفراء فرنسا وانكلترا والنمسا والروسيا وبروسيا يطلبون منه أن لا يقرر شيأ فى أمر المسئلة المصرية الا باطلاعهم واتحادهم وانهم مستعدون للتوسط بينه و بين محمد على باشا لحل هذه المسئلة المهمة فاضطر الباب العالى أن يقبل هذا التداخل وأرسل الى السفراء يخبرهم انه أوقف سفر المندوبين

وكان الراغب أولا فى هذه اللائحة المسيو (دى مترنيخ) وزير النمسا الاول أكبر ساسة عصره لوضع الدولة العلية تحت حماية الدول العظام أجمع فعرض ما بداله على وزارات باقى الدول فوقع لديهم موقع الاستحسان والقبول حتى الروسيا نفسها خوفا من اتفاق باقى الدول ضدها وحماية الدولة العلية بالقوة كما حصل فى حرب القرم سنة ١٨٥٣

فاجتمع سفراء الدول أول اجتماع عند الصدر الاعظم فى ٣٠ يوليو سنة ١٨٣٩ وتداولوا فيما يجب اعطاؤه لمحمد على باشا فأبدى سفير انكلترا والنمسا ضرورة ارجاع الشأم للدولة

العليسة وعارضهم فى هـذا الرأى سفيرافرنسا والروسـيا وطلبا أن يمنح محمد على باشا ملك
مصر وولايات الشأم الاربع لكن انحاز سفير البروسـيا الى الرأى الاول فتقرر
بالاغلبيـة ثم طلب الموسيو (دى مترنيخ) أن يعـقد مؤتمر دولى فى مدينـة (فيينا)
أو (لوندرة) لاتمام المداولات بشأن المسئلة المصرية فلم يقبل منه ذلك عندا الكل سيما فرنسا
وانكلترا فلم يقبـلا ذلك ولم يميلا لهذا الطلب لعـدم ثقتهـم بالمسيو (دى مترنيخ) وكذلك
الروسـيا لم تقبل تخويل مؤتمر دولى تحديد علاقاتها مع الباب العالى بل أعلنت أنها مصرة
على التمسك بنصوص معاهدة (انكار اسكلاسى) وهى حماية الدولة بعساكرها ومراكبها
وبالتالى احتلال معظم أملاكها بدون حرب لو تعدى ابراهيم باشا حدود الشام
فعنـد ذلك طلبت كل من فرنسا وانكلترا من البـاب العالى التصريح لمراكبها بالمرور من
بوغاز الدردنيـل لحمايته عنـد الضرورة من الروسيا ومن العسا كر المصرية وجاء الاميرال
(ستوبفورد) بنفسه الى القسطنطينية للحصول على هذا التصريح ولما علم باقى السفراء
بهذا الطلب اضطربوا وخشوا حصول شقاق بين الدول المتوسطة وأعلن سفير الروسية بأنه
اذا دخلت المراكب الفرنساوية والانكليزية البوغاز يقطع علاقاته السياسـية مع الباب
العالى ويسافر فى الحال وكانت حكومته أرسلت له مركبا حربيا ليسافر عليها اذا اقتضى
الحال ذلك وكتبت النمسا الى وزارتى (لوندرة) و(باريس) بأن طلبهـما هـذا مخل بسلم
أوروبا وانهما لوأصرا عليه تخرج من التحالف وتحفظ لنفسها حرية العمل فلما علم الباب
العالى بذلك خاف من تفاقم الخطب ورفض طلب حكومتى فرنسا وانكلترا وطلب منهما
ابعاد مراكبهما عن مدخـل البوغاز فلهذه الاسباب وعدم الاتفاق بين وزراء الدول
توقفت المخابرات الى أوائل شهر سبتمبر سـنة ١٨٣٩ حتى عرض اللورد (وبونسونبى)
سـفير انكلترا على البـاب العالى أن دولته مسـتعدة لاكراه محمد على باشا على رد الدونانمة
التركية بشرط أن يكون لها حق ادخال مراكبها الى خليج اسلامبول لصد الروسيا عنـد
الضرورة فلما علمت بذلك حكومة فرنسا أرسلت الى الاميرال (لالاند) قائد أسطولها فى
مياه تركيا أمرا بتاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٩ انه لا يشترك مع مراكب انكلترا فى
أى حركة عدوانية ضـد حكومة محمد على باشا فعلم الكل انه لابد من حصول خـلاف بين

فرنسا وانكلترا بخصوص المسئلة المصرية وأخذت الدول حذرها مما عساه يحصل من الامور التى تنشأ بسبب هذا الخلاف فأعلنت النمسا بأنها لاترغب التداخل لعدم نجاح طلبها المختص بانعقاد مؤتمر دولى فى فيينا أو برلين وأعلنت بروسيا والروسيا بأنهما يقبلان كل ماتقرره الدول فى هذا الشأن بشرط أن يكون موافقا لرغبة الباب العالى وأن يكون قبوله لهذا القرار صادرا عن كمال الحرية التامة فكأن الدول قبلت ماتتفق عليه فرنسا وانكلترا بالاتحاد مع الباب العالى ولكن لم يتم الاتفاق بين هاتين الدولتين لسعى انكلترا فى ارجاع المصريين الى حدودهم الاصلية وعدم قبول فرنسا ذلك رغبة فى مساعدة محمد على باشا

وذلك أن فرنسا كانت تود أن تكون ولاية مصر والشام له ولذريته وأقليما أطنة وطرسوس لمدة حياته وأما انكلترا فكانت لاتريد أن يعطى الا ولاية مصر لكن رغبة فى ارضاء فرنسا قبلت أن يعطى مدة حياته نصف بلاد الشام الجنوبى بشرط أن لاتكون مدينة عكا من هذا النصف فرفضت فرنسا هذا الاقتراح وقالت كيف نجرده من كل فتوحاته خصوصا بعد أن قهر الجيوش العثمانية فى واقعة (نصيبين) واستولى عليها وجدنا منها التركالة بابا للحرب مرة أخرى وهو أمر لاتكون عاقبته حسنة لان هذا شئ يوجب تداخل حكومة الروسيا فى أمر الدولة العلية بمقتضى العهودات ولا تكون نتيجة ذلك الا حربا عامة فالاولى منعا لسفك دماء العباد أن تعطى لمحمد على باشا البلاد التى فتحها لانه أقوم بادارتها وأحق بها لما تكبده من المشاق الصعبة والمصاريف الزائدة وبذل الارواح ولما علمت الدول بوقوع الخلاف بين فرنسا وانكلترا أعلنت النمسا وبروسيا رسميا أنهما ينحازان الى احدى الدولتين التى لاتحرم الدولة من أملاكها وبعبارة أخرى الى انكلترا

وأما الروسيا فأرادت أن تنتهز فرصة عدم اتحاد الدولتين لتقرير نفوذها فى الشرق وحق حمايتها للدولة العلية دون غيرها وأرسلت الى لوندره البارون (دى برونو) بصفة سفير فوق العادة فوصلها فى أواخر سبتمبر سنة ٣٩ وعرض على حكومته بالنيابة عن قيصره أن الروسيا مستعدة لأن تترك لانكلترا حرية العمل فى مصر وتساعدها على اذلال محمد على باشا بشرط أن تسمح لها بانزال الجيش بالقرب من اسلامبول فى مدينة (سينوب)

الواقعة على شاطئ البحر الاسود ببر الاناطول لكى يتيسر لها اسعاف الباب العالى لو أراد ابراهيم باشا الزحف على القسطنطينية فصغا اللورد (بالمرستون) الى كلام سفير الروسيا ومال الى هـذا الرأى ميلا شديدا ولولا استقباح الرأى العام لقبله كل القبول وسلمه كل التسليم لكنه لما رأى عدم موافقـة الرأى العام لهذا المشروع اقترح على الروسيا أن تعلن أولا بتنازلها عما تخوله لها معاهدة (انكار اسكله سى) من حق حماية الدولة العلية فرفضت الروسيا ذلك وأجلت المخابرات بشأن تسوية المسئلة المصرية الى شهر يوليو سنة ١٨٤٠ لعدم اتفاق الدول على حالة مرضية للكل وافية بغرض الجميع ولتباينهم فى الغايات والمقاصد

وفى خلال هذه المدة أرسلت الروسيا المسيو (برونو) ثانية الى (لوندرة) ليطلب تعديل المشروع الاول بان يخول لكل من انكلترا وفرنسا الحق فى ارسال ثلاث سفن حربية فى بحر (مرمرة) للاشتراك مع الجيش الروسى فى حماية اسلامبول لو هاجمها ابراهيم باشا فلم تفز الروسيا بمرامها فى هذه المرة أيضا هذا ولما علم محمد على باشا بهذه المخابرات وتحقق أن الدول الاوروباوية عموما وانكلترا خصوصا ساعون فى ارجاع جيوشه الى مصر وجبره على ردّ كل مافتحه من البلاد وان فرنسا لايمكنها مساعدته فضلا عن تعصب باقى أوروبا وضادتها باجمعها له أخذ فى الاستعداد لصدّ القوّة بالقوّة بحيث لايسلم شبرا من الارض التى صرف ماله ورجاله فى فتحها الا مضطرا وكلف سليمان باشا بتفقد سواحل الشام وتحصينها بقدر الامكان سيما مدينتى (عكا) و (بيروت) وأمر بتعليم كافة الاهالى جميع الحركات العسكرية وحمل السلاح لكى يسهل له حفظ الأمن الداخلى بواسطتهم وصد المهاجمين بواسطة الجيش المتدرب على الحرب وزيادة جيشها استدعى من الاقطار الحجازية والنجدية الجيوش المصرية المحتلة لها وأخـذ أيضا فى توفير الاموال من بعض وجوه مصاريفها وأطلق سراح محمد ابن عون شريف مكة الذى كان قد ألزمه الاقامة بمصر من مدة وبالجملة تخلى عن بلاد العرب وتركها اهملا كما كانت لاحتياجه الى المال والرجال لانها كانت تكلفه سنويا مبلغا وقدره ٧٠٠٠٠ جنيه مصرى تقريبا بلا فائدة ثم أرسل جزأ عظيما من العساكر الواردة من بلاد العرب الى الشام للاستعداد لكل طارئ يطرأ وأرسل الى ولده ابراهيم باشا

الاوامر المشددة بان يجتهد فى اطفاء كل ثورة جزئية يبديها سكان الجبل من أى طائفة خوفا من اشتداد الخطب فى الداخل حين الاحتياج للانتباه لما يأتى من الخارج

ثم فى أوائل سنة ١٨٤٠ عاودت النمسا الكرة وطلبت من الدول اجتماع مؤتمر فى مدينة فيينا لتسوية هذه المسئلة التى أقلقت بال الجميع فقبلت الدول عقده فى مدينة لوندره لا فيينا وطلبت فرنسا أن يكون للباب العالى مندوب خصوصى فى هذا المؤتمر مراعاة لكونه له السيادة العظمى على البلاد المتنازع بخصوصها

فلما اجتمع هذا المؤتمر طلبت فرنسا ابقاء الشام كلها تحت يد محمد على باشا فعارضتها الحكومة الانكليزية فى ذلك وأصرت على ماطلبته أولا وهو أنه لا يعطى له الا النصف الجنوبى منها لكنها قبلت أخيرا بناء على الحاح فرنسا ادخال عكا ضمن هذا القسم بشرط أن تكون له مدة حياته فقط ولا تنتقل الى ورثته بعد موته بل تعود الى الدولة العلية وقبلت الروسيا والنمسا والبروسيا ذلك لكن لم تقبله فرنسا بحجة ان حرمان ورثة محمد على باشا من بلاد صرف السنين الطوال عليها فى فتحها اليتركها لهم بعد موته مما يزيد فى حنقه على دول أوربا ويرى عدم قبوله هذا القرار المجحف بحقوقه فتلتزم الدول باكراهه وسفك دماء العباد ظلما الامر الذى لم تجره هذه المخابرات الامنعه فتشددت انكلترا وخصوصا اللورد بالمرستون وزيرها الاول وابت الارجوع مايعطى لمحمد على باشا من البلاد الشامية الى الدولة العلية بعد موته فمن عدم الاتفاق وتشتت الآراء وبعد الوفاق لم ينجح هذا المؤتمر وبقيت الحالة على ماهى عليه ثم لما تولى الموسيو (تيرس) (١) رياسة الوزارة الفرنساوية فى أول مارث

(١) هو سياسى شهير ولد فى مرسيليا فى ١٦ ابريل سنة ١٧٩٧ وتعلم الشريعة فى مدارس مرسيليا واكس واشتغل بالمحاكم الى سنة ١٨٢١ ثم سافر الى باريس واشتغل بالتحرير فى الجرائد وكتب تاريخ الثورة الفرنساوية فى ١٠ مجلدات طبعت من سنة ١٨٢٣ الى سنة ١٨٣١ وكان من أكبر الساعين فى قلب حكومة لويس العاشر فى شهر يوليو سنة ١٨٣٠ ولذلك لما تولى لويس فيليب أريكة الملك بعد هذه الثورة عينه مأمورا فى الخزينة ثم ولاه وزارة المالية ثم نظارة الداخلية فى وزارة المارشال سولت الاولى فى ١١ اكتوبر سنة ١٨٣٤ ثم صار رئيسا لمجلس النظار لاول مرة فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٦ وعهدت اليه أيضا نظارة الخارجية واستمرت وزارته الى ٦ سبتمبر سنة ١٨٣٦ ثم عاد الى منصة الاحكام فى أول مارث سنة ١٨٤٠ فطلب تحصين مدينة باريس والقيام بتجهيزات عسكرية مهمة خوفا من الارتباكات الناشئة من تداخل الدول بين محمد على باشا والسلطان ثم استقال

سنة ١٨٤٠ لم يتبع خطة سلفه ثم في انهاء المسئلة المصرية بالاتحاد مع انكلترا بل أراد أن يضع لها حدا باتفاق قصر أساسه الباب العالى ومحمد على باشا بان يلزم الباب العالى أن يترك لمحمد على باشا ولايات مصر والشام له ولذريته ويهدده بمساعدة فرنسا الوالى مصر ان لم يذعن الباب العالى لهذه المطالب

فأرسل لمحمد على باشا يخبره بان لا يقبل مطالب انكلترا بل يقوى مركزه في الشام ويتأهب للكفاح وان فرنسا مستعدة لنجدته لو عارضته انكلترا

(معاهدة ١٥ يوليوسنة ١٨٤٠) فلما علم اللورد بالمرستون بهذه المخابرات حنق على الحكومة الفرنساوية وبذل جهده في الاتفاق مع الروسيا وبروسيا والنمسا لارجاع محمد على باشا الى حدود مصر والزامه بالقوة ان لم يطع ولقد نجح بالمرستون في مسعاه وأمضى بتاريخ ١٥ يوليوسنة ١٨٤٠ مع من ذكر من الدول معاهدة صدق عليها مندوب الدولة العلية مقتضاها (أولا) أن يلزم محمد على بارجاع ما فتحه للدولة العلية ويحفظ لنفسه الجزء الجنوبي من الشام مع عدم دخول مدينة (عكا) في هذا القسم (ثانيا) ان يكون لانكلترا الحق بالاتفاق مع النمسا في محاصرة فرض الشام ومساعدة كل من أراده من سكان بلاد الشام خلع طاعة المصريين والرجوع الى الدولة العلية وبعبارة أخرى تحريضهم على العصيان لاشغال الجيوش المصرية في الداخل كى لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والانكليزية (ثالثا) أن يكون لمراكب الروسيا

لاختلافه في الرأى مع ملكه بخصوص المسئلة المصرية وحينئذ ابتدأ في تاريخه عن القنصلية والامبراطورية ثم في سنة ١٨٤٨ طعن في سياسة لويس فيليب الخارجية وساعد على عزله وانتخب عضوا في الحكومة المؤقتة وفي سنة ١٨٥١ عارض لويس نابليون في تأسيس امبراطورية ثانية فسجنه لما أعاد الامبراطورية من ٩ دسمبر سنة ٥١ الى ٧ يوليو سنة ٥٢ ثم في سنة ٦٥ و ٦٦ أخذ يندد بسياسة الامبراطور وصرفه النفقات الباهظة في حرب ايطاليا وحملة المكسيك وفي سنة ١٨٧٠ كان ضد الحرب لتحققه من عدم استعداد حكومة فرنسا ولما حصل ما أنبأ به من تغلب البروسيا ألح بالمدافعة عن باريس وسعى لدى الدول المساعدة في اقامة هدنة فلما لم يفلح عاد الى فرنسا وانتخب في مجلس نوابها ثم في ١٧ مارث سنة ٧١ تعين رئيسا للسلطة الاجرائية فتمكن من دفع الغرامة الحربية قبل ميعادها وخلص بذلك وطنه من احتلال الاجنبي وفي ١٧ أغسطس أطال مجلس النواب مدته ثلاث سنين ولقبه بلقب رئيس الجمهورية ثم استقال في ٢٤ مايو سنة ١٨٧٣ لما كسة الاحزاب له وخلفه المارشال ما كماهون وله تآليف سياسيه شهيرة واشتهر أيضا في الخطابة وتوفى في سنة ١٨٧٩ واحتفلت الامة بجنازته احتفالا عظيما

والنمسا

والنمسا وانكلترا معاحق الدخول فى البوسفور لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها (رابعا) أن لا يكون لاحد الحق فى الدخول فى مياه البوسفور ما دامت القسطنطينية غير مهددة (خامسا) يجب على الدول الموقع مندوبوهم على هذا الاتفاق أن تصدق عليه فى مدة لا تزيد عن شهرين بحيث يكون التصديق فى مدينة لوندرة

وشفعت هذه المعاهدة بملحق مصدق عليه من مندوب الدولة العلية مبين فيه الحقوق والامتيازات التى يمكن منحها لمحمد على باشا وقبل امضاء هذه المعاهدة ابتدأت انكلترا فى تحريض سكان لبنان من دروز وموارنة ونصيرية على شق عصا الطاعة وأرسل اللورد (بونسونبى) سفيرها لدى الباب العالى ترجمانه المستر وود الى الشام لهذه الغاية وأعلم بذلك اللورد (بالمرستون) برسالة تاريخها ٢٩ يونيو سنة ١٨٤٠ محفوظة فى سجلات المملكة وبمجرد وصول المستر وود الى محل مأموريته أخذ فى نشر ذلك بين الاهالى ولقد نجح فى مأموريته وأشهر الجبليون العصيان وتجمعوا متسلحين وامتنعوا عن تأدية الخراج والمؤن العسكرية لكن لم تتسع هذه الثورة الابتدائية لتداركها فى أولها فارسل المدد من مصر واهتم كل من ابراهيم باشا وسليمان باشا وعباس باشا (١) فى اخمادها فأطفئت قبل أن يتعاظم أمرها وعادت السكينة فى كافة الانحاء

ومن ثم أخذ سليمان باشا فى تحصين مدينة بيروت لعلمه أنها أول ميناء معرض لمراكب الانكليز وكذلك بنى القلاع لحماية كل الثغور ووضع بها المدافع الضخمة ولكن لسوء الحظ لم تجد هذه الاستحكامات نفعا أمام مراكب الانكليز والنمسا كما سيجيء

ولما علمت الحكومة الانكليزية أن المرحوم محمد على باشا مهتم فى ارسال العساكر والذخائر على طريق البحر الى الشام أرادت أن تعارضه وتعاكسه اما بأخذ دونانمته أو تشتيتها أو تفريقها ليتعذر ارسال المدد لوجود الصحراء الرملية الفاصلة بين مصر والشام

(١) هو عباس باشا ابن طوسون باشا ابن محمد على باشا الكبير ولد فى جدة سنة ١٨١٦ حين كان والده ببلاد العرب لمقاتلة الوهابيين وتولى على الاريكة المصرية سنة ١٨٤٨ بعد موت عمه ابراهيم وقتل فى ١٤ يوليو سنة ١٨٥٤

من طريق العريش فأرسلت أوامرها فى أوائل شهر يوليو سنة ١٨٤٠ الى الكومودور نابير بأن يتوجه بمراكبه الى مياه الشام ومصر لاستخلاص الدونانمة التركية لو خرجت من مينا الاسكندرية وأسر أو احراق الدونانمة المصرية لو قابلها فلما علمت فرنسا بهذا الخبر أرسلت احدى بوارجها البخارية الى بيروت لتبليغ قائد الجيوش المصرية هذا الخبر المشؤم فرجعت فى الحال المراكب المصرية الى الاسكندرية حتى اذا وصل الكومودور نابير لم يجدها فاغتاظ لذلك ويقال انه قبل أن يبارح مياه بيروت أرسل الى سليمان باشا كتابا بتاريخ ١٤ يوليو يظهر له فيه تكدره من اجراآت القواد المصريين فى الشام ومعاملتهم الثائرين بالقسوة وأنهم ان لم يكفوا عن أعمالهم البربرية اضطر للتداخل وانزال عساكره الى بيروت فأجابه سليمان باشا بأنه لا يقبل ملحوظاته ويعلمه بأنه لا يخاطبه من الآن فصاعدا واذا كان عنده ملحوظات مثل هذه فليبدها لمحمد على باشا

ولم يبتدئ شهر أغسطس سنة ١٨٤٠ الا وقد ورد خبر معاهدة ١٥ يوليو الى مصر والشام وو ردت الاوامر الى الدونانمة الانكليزية بمحاصرة سواحل الشام وأسر المراكب المصرية حربية كانت أو تجارية فعاد نابير الى بيروت بعد أن أخذ فى طريقه كل ما قابله من المراكب فوصلها فى ١٤ أغسطس وأعلن العساكر المصرية باخلاء بيروت وعكا فى أقرب وقت ونشر فى أنحاء الشام منشورات لاعلام الاهالى بما قررته الدول من ارجاع الشام لمصر ما عدا عكا وتحريضهم على العصيان على الحكومة المصرية واظهار ولائهم للدولة العلية العثمانية

وفى يوم ١٤ أغسطس بلغ خبر هذه المعاهدة رسميا الى محمد على باشا وأتت اليه بعد ذلك قناصل الدول الاربع المتحدة وعرضوا عليه باسم دولهم أن تكون ولاية مصر له ولورثته وولاية (عكا) له مدة حياته وأمهلوه ١٠ أيام لاعطاء جوابه فطلب منهم كتابة بذلك فلبوا طلبه ثم فى اليوم التالى أفهموه ان فرنسا لا يمكنها مساعدته قط لتصميم الدول على تنفيذ ما اتفقت عليه ولو أدى ذلك الى حرب أوربى لكنه أصر على عدم القبول والدفاع عن حقه الى آخر رمق من حياته وفى يوم ٢٦ أغسطس الذى هو غاية الميعاد المعطى له حضر اليه القناصل ومعهم مندوب الدولة وأخبروه انه لا حق له الآن فى ولاية (عكا) وان الدول

لاتسمح له الا بولاية مصر فقط له ولذريته فاحتدّ عليهم غضبا وطردهم من عنده قائلا لهم كيف يجوز أن أسمح لكم بالمقام فى بلادى وأنتم وكلاء أعدائى فى هذه الديار فانصرفوا وأعطوه عشرة أيام أخر لابدامجوابه بحيث ان لم يجاوب تكون الدول غير مسؤلة عما يحصل له من الضرر وبعد انقضاء هذه المدة بدون أن يصل اليهم جوابه كتب القناصل بذلك الى سفراء الدول بإسلامبول فاجتمعوا عند الصدر الاعظم وقرروا باتحادهم اخذ مصر والشأم من محمد على باشا

وفى أثناء هذه المدة كانت فرنسا اتباعا لرأى المسيو تيرس تستعد للقتال مساعدة لمحمد على باشا ولكن لسوء حظ الامة المصرية كانت هذه الاستعدادات غير كافية ولا تتم الا بعد ستة أشهر لعدم وجود السلاح والذخائر الكافية للحرب لاسيما وان فرنسا تكون فى هذه الحالة مقاومة لاكبر دول أوروبا ولما تحقق اهالى فرنسا أن حكومتهم لاتقوى على مساعدة محمد على باشا فعلا بعد أن جرأته على المقاومة ووعدته بالمساعدة هاج الرأى العام على الموسيو تيرس المعضد لهذه السياسة التى عادت على مصر بالضرر العظيم حتى التزم بالاستعفاء فى يوم ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٤٠ لكن لم يجد استعفاؤه لمصر نفعا لوقوفها بمفردها أمام أربع دول من أعظم الدول شأنا وأعلاهم مكانة وأكثرهم قوة اذ أرسلت فرنسا أوامرها للدونانمة أولا بالانسحاب الى مياه اليونان ثم بالعودة الى فرنسا وترك مصر والشأم لمراكب انكلترا تحرق مينها بمقذوفاتها الجهنمية وكان رجوع الدونانمة الفرنساوية فى ٩ اكتوبر سنة ١٨٤٠ أى قبل استعفاء المسيو تيرس بعشرين يوما

(الطلاق المدافع على بر الشام) هذا ولم تشترك الدول الاربع فى محاربة محمد على باشا بل قامت انكلترا وحدها بهذا العمل وساعدتها النمسا والدولة العلية ببعض من مراكبها وعساكرها البرية للنزول الى البر اذا اقتضى الحال ذلك وأما دولة البروسيا فلم يكن لها مراكب اذ ذاك والروسيا لم ترد الابتعاد عن القسطنطينية ولما وصل الى سليمان باشا بلاغ الكومودور نابير وعلم عنشوراته للاهالى أعلن فى الحال بجعل البلاد تحت الاحكام العسكرية وذلك خوفا من قيام الجبليين اتباعا للانكليز وأدخل فى مدينة

بيروت العدد الكافى من الجند وأرسل لابراهيم باشا أن يحضر اليه بجيشه الذى كان معسكرا بقرب مدينة (بعلبك) ليشترك فى المدافعة عن مينا الشأم فوصل ابراهيم باشا الى بيروت وعسكر فى ضواحيها وفى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٤٠ وصل الاميرال (ستوبفورد) الذى كان يجول بمراكبه أمام الاسكندرية الى مياه بيروت ليشترك مع (الكومودور نابير) فى اطلاق المدافع على مينا الشأم وفى ١٠ منه وصلهما العساكر البرية وكانت مؤلفة من ألف وخمسمائة من البيادة الانكليزية وثمانية آلاف بين اتراك وأرنؤود وفى يوم ١١ منه أنزلت هذه العساكر الى البر فى نقطة تبعد نحو ستة أميال فى شمال بيروت ولم يتمكن ابراهيم باشا من منعهم لوجود هذه النقطة تحت حماية المدافع الانكليزية وفى ظهر ذلك اليوم بعد نزول هذه العساكر الى البر أرسل الى سليمان باشا بلاغ من الاميرالين الانكليزى والنمساوى بأن يخلى مدينة بيروت حالا فطلب منهم مسافة أربع وعشرين ساعة كى يتداول مع ابراهيم باشا فى هذا الامر الجلل فلم يقبل طلبه وابتدئ فى اطلاق المدافع على المدينة واستمر الاطلاق حتى المساء وابتدئ أيضا فى اليوم التالى قبل الفجر ولم ينقطع الا بعد هدم وحرق أغلب المدينة وأحرقت كذلك كل المين الشامية قصد استخلاصها من محمد على باشا وارجاعها الى الدولة العلية كما كانت مع أن محمد على باشا لم يات بأمر يدل على رغبته فى الخروج من تحت ظل الراية العثمانية بل لم يزل مؤكدا اخلاصه وولاءه للدولة ولم يطلب الا بقاء هذه الولايات له ولذريته مع تبعيتهم للباب العالى ودفعهم الخراج له اعترافا ببقاء تلك التبعية ولولا تقلب الاحوال بينه وبين السلطان لتم بينهما الاتفاق على أحسن وفاق وحقنت دماء العباد ويدل على رغبة الطرفين فى ذلك ارسال الباب العالى سارم بك أولا وعاكف افندى ثانيا الى محمد على باشا لحل هذه المسئلة

ولا يخفى أن محمد على باشا هو الذى خلص مصر من فئة المماليك الباغية ونشر بجميع جوانبها لواء الأمن وتسبب فى ازدياد الزراعة ونمو التجارة حتى توفرت لمصر أسباب التمدن وتيسر بهذه الكيفية لقوافل التجارة الاوروباوية المرور بين الاسكندرية والسويس بدون خوف من تعدى أحد عليها وله الفضل أيضا فى استئصال شأفة الوهابيين من بلاد العرب واعادة الامن الى طريق الحجاج واستخلص منهم مدينتى مكة والمدينة بعد أن استحال اذلالهم على أيدى

العساكر

العساكر الشاهانية فضلا عن انه هو الذى فتح بلاد الروم ولولا ما حصل لاعادها الى الدولة العلية بعدما يئست من رجوعها اليها وهو الذى أعاد الأمن الى ربوع الشأم بعد احتلاله لها ومنع تعدّى البدو على الحضر كما انه أبطل القتال المستمر الذى كان لا ينقطع دائما بين الدروز والمارونية الامر الذى لم يحصل قبل احتلاله ولا بعده (١) وقد انحرف الامير الكبير بشير عن موافقة ابراهيم باشا بعد أن حافظ على ولائه مدة رغبة فى أن يعطى له من لدن الباب العالى اسم أمير الجبل وينادى له بذلك على رؤس الاشهاد فانعكس عليه أمره وعاد عليه شؤم خيانته فعُزل عن امارة الجبل وألزم بمفارقة الشأم فانتبه من غفلته وندم على ما كان منه من الزلل حيث لا ينفعه الندم ثم أوصلته احدى السفن الانكليزية الى بيروت فقابله هنالك الامير الستوبفورد وبعد أن عنفه على تذبذبه الذى حصل منه ونفاقه الذى أداه الى أن يتبع الاقوى شوكة وعدم حفظه للعهود أمر بارساله وتابعيه مع قليل من عائلته الى جزيرة مالطة ولم يجبه الى ما طلبه من ارساله الى ايطاليا أو فرنسا فوصل هذه الجزيرة فى أول نوفمبر سنة ١٨٤٠ وكان عمره اذ ذاك خمسا وثمانين سنة وأمضى ما بقى من عمره مفكرا فى سرعة زوال النعمة وسوء عاقبة التذبذب وأن الاحوط للانسان والاجدر به أن يحافظ على عهوده لانه لو مات مع المحافظة عليها مات بالشرف والمجد ولو عاش مع الخيانة والتلون لعاش مع الفضيحة والعار وتوفى فى سنة ١٨٥٠ فى قسطنطينية

(اخلاء المصريين لبلاد الشام) هذا ولنقل بالاختصار ان المراكب الانكليزية والعساكر المختلطة التى أنزلت الى البر فى عدة مواضع تمكنت من أخذ جميع المدن الواقعة على البحر واخراج المصريين منها حتى لم يكن لمحمد على باشا بد من الاذعان الى مطالب أوروبا وانه من العبث المحض مقاومة الدول المتحدة فأصدر أوامره الى ولده ابراهيم باشا بعدم تعريض عساكره للقتال والموت بلا فائدة وباستدعاء الجنود المعسكرة فى حدود الشام

(١) أريد بذلك ما حصل فى بلاد الشام من تعدى الدروز على المارونيه بل وعلى كافة المسيحيين من الطوائف الاخر سنة ١٨٦٠ وقتلهم اياهم واحراقهم بيوتهم وانتهاكهم حرمة كنائسهم وعرض نسائهم ولولا حماية عبد القادر الجزائرلى لنصارى دمشق لقتلوا عن آخرهم الامر الذى أوجب تداخل فرانسا واحتلال عساكرها البلاد الشامية مدة سنتين تقريبا ولولا نزاهة نابليون الثالث لصار هذا الاحتلال أبديا

والانجلاء عنها مع اتخاذ أنواع الاحتراس الكلى من العرب وسكان الجبل فبلّغ ابراهيم باشا هذه الاوامر الى القواد جميعهم وأخذ الجنود فى الرجوع من كل فج وصاروا يتجمعون حول قائدهم الاعظم الذى قادهم غير مرة الى النصر والظفر وبعد ذلك قسم الجيش عدة فرق كل منها تحت امرة احد من اشتهر من القواد بالبسالة والتبصر فى عواقب الامور وصار الكل راجعين الى مصر تاركين البلاد التى سفكوا فيها دماءهم وسيتركون فيها قبور اخوانهم

وكان ابتداء الجيش فى الرجوع الى مصر فى أواسط شهر دسمبر سنة ١٨٤٠ ووصل الكل الى القاهرة بعد أن ذاقوا مرارة النصب وتحمّلوا أنواع الذل والتعب وقاسوا شديد الوصب مما تكل عن وصفه الاقلام ولا تحيط بنعته الاوهام ويكدر الاذهان فضلا عن موت كثير منهم فى الطريق بسبب مناوشات العرب الذين زادت همتهم وجراءتهم لما تحققوا من عدم تمكن المصريين من العودة وراءهم واقتفاء آثارهم ومع ذلك فتمكن سليمان باشا من ارجاع مائة وخمسين مدفعا بخيولها الى مصر وكثير من الخيول السوارى التى هلك قسم عظيم منها بسبب العطش وشدة التعب

وأما ابراهيم باشا وفرقته فلم يمكنهم العودة الى القاهرة من طريق صحراء العريش لشدة ما لاقوه أثناء مرورهم فى فلسطين من معارضة العرب لهم الذين سدّوا عليهم الطريق واحتلوا جميع القناطر المبنية على الانهر حتى اضطر لمحاربتهم فى كل يوم بل وفى كل ساعة وأخيرا وصل مدينة غزة بعد أن استشهد فى الطريق ثلاثة أرباع من معه وكثير من المستخدمين الملكيين الذين أرادوا الرجوع الى وطنهم مع عائلاتهم فلما وصل غزة كتب لوالده اشعارا بقدومه وطلب منه ارسال ما يلزم له من المراكب لنقل فرقته الى الاسكندرية وما يلزم لمؤنتهم وملبسهم

وفى أثناء هذه المدة عرض الكومودور نابير على محمد على باشا أن الحكومة الانكليزية تسعى لدى الباب العالى فى اعطاء مصر له ولورثته لو تنازل عن الشأم ورد الدونانمة التركية الى الدولة العلية فامتثل لهذا الامر وقبل هذه الشروط لحفظ مصر لذريته وتم بينهما الاتفاق فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠ ولم يقبل الباب العالى هذا الاتفاق الا بعد تردد واحجام وتداول عدة مخاطبات بينه وبين وكلاء الدول الاربع المتحدة المجتمعين بمدينة

لندره به فتمؤتمر وصدر بذلك فرمان همايونى فى تاريخ ٢١ ذى الحجة سنه ١٢٥٦ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١) هذا مؤداه (١)

أولا ـ أن الولاية تكون لمن يختاره الباب العالى من أولاد محمد على باشا الذكور ثم لاولاد أولاده الذكور وهلم جرا بحيث لا يكون لاولاد البنات الحق فى الحكم مطلقا

ثانيا ـ يجب على من يعينه السلطان واليا على مصر أن يسافر بنفسه الى القسطنطينية لاستلام فرمان التولية بيده

ثالثا ـ أن الذى ينتخب واليا لمصر يعتبر كاحد وزراء الدولة فى مخاطباته مع الباب العالى وفى المقابلات السلطانية بحيث لا يكون له أدنى امتياز عنهم من هذه الحيثية مطلقا

رابعا ـ ان والى مصر يكون ملزما باتباع أحكام فرمان التنظيمات (٢) الذى أصدره السلطان عبد المجيد عند توليته وكل ما صدر أو يصدر من الباب العالى من القوانين واللوائح ويكون الوالى ملزما أيضا بالسير ولا يتسه طبق المعاهدات المبرمة أو التى تبرم بين الباب العالى والدول الاجنبية أيا كانت بدون تغيير ولا تبديل بما أن الحكومة المصرية لم تخرج عن كونها ولاية عثمانية كباقى الولايات

خامسا ـ أن سائر الضرائب على اختلاف أنواعها يكون تحصيلها باسم الجناب السلطانى ويكون تحصيلها وتوزيعها بحسب القواعد المتبعة فى باقى ولايات الدولة العلية

سادسا ـ ان ربع المتحصل من الضرائب يدفع الى الخزينة الشاهانية والثلاثة ارباع الباقية يصرف منها ما يلزم لمصاريف الادارة وجباية الاموال وما يلزم أيضا للوالى وعائلته وثمن البر الذى يرسل سنويا الى مدينتى مكة والمدينة المنورة

---

(١) ان كافة التفصيلات الآتية مستمدة من مجموعة طبعت فى بولاق سنة ١٨٨٦ ومشتملة على كافة الفرمانات والمحررات الرسمية المختصة بمصر من ابتداء معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠

(٢) هذا الفرمان المعروف فى كتب الافرنج بخط شريف الكلخانة صدر فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٣٩ وتلى بجلسة حافلة حضرها وزراء وأعيان المملكة وقناصل الدول

سابعا – ان هذه الضريبة يصير دفعها مدة خمس سنين تبتدأ من سنة ١٢٥٧ هجرية وبعد انقضاء هذه المدة يمكن تعديلها اما بزيادة أو نقصان حسب ماتستدعيه ثروة الحكومة والاهالى

ثامنا – أنه لضبط المتحصل من الضرائب ومعرفة مايخص الدولة بالتحقيق يلزم أن تعين لجنة من الدولة تقيم فى مصر لهذه الغاية وينظر فى تعيينها بعد كما تقتضيه الارادة الشاهانية

تاسعا – يكون لمصر الحق فى ضرب العملة من فضية وذهبية ونحاسية بشرط أن يكون ذلك باسم السلطان المعظم وأن لا تختلف العملة المصرية عن العملة العثمانية لا فى الشكل ولا فى الهيئة ولا فى العيار

عاشرا – عدد الجيش المصرى يجب أن لا يتجاوز ثمانية عشر ألفا فى مدة السلم وأما فى أيام الحرب فيزاد هذا المقدار الى الحد الذى تقرره الدولة بما أن العساكر المصرية تكون ملزمة اذ ذاك بالاشتراك والمساعدة فى القتال مع باقى الجنود الشاهانية

حادى عشر – ان مدة الخدمة العسكرية يجب أن لا تتجاوز خمس سنين ويكون جمع العسكر بطريق القرعة كما هو المتبع فى الدولة وحيث ان الجيش المصرى كان يبلغ فى ذلك الوقت زهاء ثمانين ألفا فيؤخذ منهم عشرون ألفا ويصير ارجاع الباقى الى بلادهم و يرسل أيضا من هذا القدر ألفان الى دار السعادة كى لا يبقى فى مصر الا الثمانية عشر ألفا المقررة

ثانى عشر – حيث ان مدة الخدمة العسكرية خمس سنين فيؤخذ سنويا من أنفار القرعة أربعة آلاف شاب يرسل منهم الى دار الخلافة أربعمائة و يبقى الباقون فى مصر

ثالث عشر – ان من أتى مدة الخدمة المطلوبة من الجند يعود الى بلده ولا يجوز ادخاله فى الجيش مرة أخرى

رابع عشر – ان ملابس العساكر المصرية وعلامات رتبهم تكون مشابهة لجنس ولون ملابس العساكر الشاهانية

خامس عشر – كذلك ملابس البحارة وضباط البحرية وبيارق المراكب تكون مماثلة لما هو متبع فى بحرية الدولة العلية

سادس

سادس عشر ـ لايكون لوالى مصر الحق فى منح الرتب العسكرية للضباط البحرية والبرية الالغاية رتبة صاغ قول أغاسى بدخول الغاية فى المغيا

سابع عشر ـ لايكون لوالى مصر الحق فى انشاء سفن حربية الابعد الحصول على اذن صريح من الدولة العلية

ثامن عشر ـ حيث ان حق الوراثة على ولاية مصر لم يمنح لمحمد على باشا وعائلته الا بهذه الشروط فلو أخلوا باحدها سقط حقهم وصار لجلالة السلطان الحق فى تولية من يشاء

ولقد منحه الباب العالى أيضا ولايات النوبة ودارفور وكردفان وسنار مدة حياته بدون أن تنتقل الى ورثته كمصر بمقتضى فرمان شاهانى أصدر فى اليوم الذى أصدر فيه الفرمان الاول أعنى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ وكلف أن يقدم حسابا عن هذه الولايات سنويا الى دار الخلافة العظمى وأن يمنع ما كان متبعا فى السودان من اغارة الجند على قرى الاهالى وخطف بناتهم وصبيانهم ليبيعوها ويستولوا على ثمنها خصما من ماهياتهم ومرتباتهم وأن يمنع كلية عادة خصى بعض هؤلاء التعيسى الحظ لاستخدامهم فى السرايات بصفة حرس على الحريم (أغاوات) وأن يحفظ للضباط الموجودين رتبهم ويرسل الى الباب العالى قائمة باسمائهم من الرتبة التالية لصاغ قول أغاسى فما فوق ليصدر أمره بتثبيتهم فى وظائفهم فقبل محمد على باشا كل هذه الشروط ولو عن غير رضا ثم طلب من الدول أن تساعده فى تخفيف بعضها وتغيير البعض الآخر فقبلت ذلك وأرسلت الى الباب العالى لائحة بتاريخ ١٣ مارث سنة ١٨٤١ طلبت منه بها أن يعامله على حسب ما هو مدون بملحق معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ وبلائحة ٣٠ يناير سنة ١٨٤١ فتنازلت الحضرة السلطانية بمقتضى فرمان تاريخه ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ بتحوير فرمانها الصادر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ وهاك أهم ما فيه من الشروط

أولا ـ إن حق الوراثة يكون للاكبر سنا بين أولاده وأولاد أولاده الذكور مع بقاء الشرط الملزم لمن يستحق الولاية بهذه الكيفية بالسفر الى مقر دار الخلافة العظمى لاستلامه الفرمان بيده

ثانياً — أن ماتدفعه الحكومة المصرية للدولة العلية صاحبة السيادة بصفة خراج لايكون ربع ايراد الحكومة قبل خصم مصاريف الجباية والادارة بل يصير تقديره فيما بعد مع مراعاة حالة الحكومة المصرية

ثالثاً — أن يكون للوالى حق فى منح الرتب لغاية رتبة أميرألاى بدخول الغاية فى المغيا أماما فوق ذلك فلا يكون الاباذن من الباب العالى

ولما أقرت الدول على هذا التصوير بمقتضى لائحة تاريخها ١٠ مايو سنة ١٨٤١ أصدرت الحضرة الشاهانية فرمانا آخر فى ١١ ربيع آخر سنة ١٢٥٧ الموافق أول يونيو سنة ١٨٤١ مؤيدا لما فى الفرمان السابق وفى غرة جمادى الاولى سنة ١٢٥٧ (٢٠ يوليو سنة ١٨٤١) صدر فرمان آخر بجعل مقدار ماتدفعه الحكومة المصرية الى الدولة العلية سنويا ثمانية آلاف كيسة (١)

وبذا انتهت المسئلة المصرية ونال الباب العالى مرغوبه من ارجاع الحكومة المصرية الى حدودها ورجوع الشام الى الحكومة العثمانية فعاد هذا القطر الى ما كان عليه من الفوضى وعدم الاتفاق بين الشعوب العديدة النازلة بها المختلفة المذاهب والعقائد والعوائد حتى لاتمر سنة الاويحصل بها مايخل بالراحة العمومية بين الدروز والنصارى الامر الذى كان امتنع كلية فى المدة التى كانت البلاد فيها تابعة للحكومة المصرية أى من سنة ١٨٣١ الى أواخر سنة ١٨٤٠ وما كان ذلك الالحسن ادارة الحكومة المصرية وشدة بطش ابراهيم باشا ومن تحت أمره ومعاملتهم الاهالى بالعدل والقسطاس بدون نظر الى ديانتهم وجنسيتهم ولو استمرت تبعيته المصر مدة نصف قرن فقط لزال مابين الاهالى من العداوة والبغضاء وساروا باتحاد تام فى طريق التقدم

(١) واستمر دفع الخراج بهذه الكيفية لغاية سنة ١٢٨٢ هجرية ثم زيد مقداره الى مائة وخمسين ألف كيسة أعنى ٧٥٠٠٠٠ جنيه عثمانى بمقتضى فرمان صادر بتاريخ ١٢ محرم سنة ٨٣ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ عقب تنازل الدولة العلية لمصر عن مدينتى سواكن ومصوع ومديرية التاكة وتغيير ترتيب الوراثة فى خديوية مصر فى عهد الخديوى السابق اسماعيل باشا بأن حصرت الوراثة فى الاكبر من أولاده ثم أولاد الاكبر ثم فى اخوته عند عدم وجود ولد له ثم أولاد الاخوة على هذا الترتيب

هــذا ولمـا وصل الى محمد على باشا كتاب ولده ابراهيم باشا بطلب ماتقدم أرسـل اليه كل مايلزم لارجاع الجند ومن معهم من المستخدمين الملكيين وعائلاتهم ولما أخذ العساكر فى النزول الى المراكب أرسـل اليه الكومودور نابيربان يترك فى مدينة غزة كل من بجيشـه من السوريين ليرجعوا الى بلادهم وجبالهـم لماأن الشام قد انسلخت عن مصر واعيدت الى الحكومة العثمانيـة فالتزم بتركهم وكان لذلك تأثير محزن فى قلوب المصريين لما علموا أن كل اتعابهـم وماسفكوه من دمائهم وما فقدوه من اخوانهـم فى ميادين القتال لم يعد على وطنهـم بشئ بل ذهب أدراج الرياح ولكنهم تسلوا عن ذلك بما نالوه من الشرف وأكسب وطنهم فخرا مخلدا ومجدا مؤبدا

ومن غريب المصادفة وأعجبها أن رجوع ابراهيم باشا مع جيشـه الى الاسكندرية توافق يوم خروج الدونانمة التركية من مينا الاسكندرية فى ٢٣ ينايرسنة ١٨٤١ بعدأن مكثت بهاستة أشهر تقريبا والتزم محمد على باشا بردها الى الدولة العليـة بمقتضى الوفاق الذى أبرم بينه و بين الكومودور نابير فى ٢٧ نوفمبرسنة ١٨٤٠ فكان لهذا التصادف وقع محزن فى قلب محمد على باشا لضياع أتعابه هدرا وهباء منثورا لكنه علم أنه يلزمه ومن الواجب عليه ان يفرغ جهده و يبذل همته فى ترقية مصر واصلاح شؤنها لانها لواعتنى بامرها لدرت اضعافا مما ينتج منها وهى على هذه الحالة

ولم يظهر محمـد على باشا الماً مما أصابه من ضـياع ولايتى الشام وكريد اللتين صرف فيهـما الارواح العزيزة والاموال النفيسـة بل أظهر أن قصده الوحيد هو ترقية مصر وادخالها فى سلك الامم المتمدنة وان الاحوال اضطرته الى فتح البلاد الشامية لاعن سبق اصرار ولتبليغ ذلك الى الدول أمر باغوص بيك ناظر خارجيته أن يرسـل لها منشورا يقول فيـه ان الله قد منّ على مصر بانتهاء الحرب طبق ارادته سبحانه وتعالى اذ لا يحصـل فى العالم شئ الا كما قررته ارادته فى الازل وأبرزته قدرته الى الوجود وان جلالة السلطان المعظم قد منحه ولاية مصر له ولذريته الى ماشاء الله وانه يشكر الدول العظام على مساعدتهم اياه على نوال هــذه الغاية التى لولاها لما حصل عليهـا وانه سيفرغ مافى وسعه لتخفيف أثقال الاهالى وتحسـين

المالية التى نضبت ايراداتها مما استلزمه الحرب من المصاريف الباهظة التى جاءت بغير جدوى واصلاح الادارة وتتميم ما بدئ به من الاشغال النافعة للرى الذى هو قوام الزراعة وفتح الخلجان لتسهيل الملاحة والتجارة ونشر العلم بين أفراد الامة ليكون منها رجال أكفاء يقومون بخدمة وطنهم حق القيام

وفى أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٤١ صرف الجيش المصرى ولم يبق منه الا القدر المعين فى الفرمان الذى سبقت الاشارة اليه وبذا اقتنعت الدول بخضوعه لاوامر الدولة العلية وأمرت قناصلها بالرجوع الى الاسكندرية فرفع قنصل النمسا العلم فى ١٥ أغسطس وفى ٢٣ منه رفعت بقية الدول أعلامها ورجعت المياه الى مجاريها وأهدى محمد على باشا الى قنصل انكلترا الموسيو (برنت) حصانا مطهما وسيفا مرصعا

وفى أوائل شهر اكتوبر من هذه السنة أرسل السلطان الى مصر أحدياورانه ليظهر لواليها سروره من رجوعه عن المحاربة ودخوله تحت حماية الدولة العثمانية ويقدم له سيفا هدية من الحضرة السلطانية مع أنخر نياشين الدولة وكتابا من جلالة السلطان ولما علم محمد على باشا بذلك أرسل ولده سعيد باشا (١) لملاقاة الياور السلطانى عند نزوله الى الاسكندرية فتوجه اليه وقابله هنالك ثم وصلا الى سراى شبرا من طريق البحر فى ١٠ اكتوبر وفى يوم ١١ منه صعد الياوران السلطانى الى قلعة مصر فى موكب حافل يتقدمه ألاى من المشاة وألايان من السوارى مع موسيقاتهم وكان الازدحام شديد المشاهدة هذا المندوب السامى الذى لم يحضر الى مصر مثله منذ مدة وقابله محمد على باشا فى ديوانه بغاية الابهة والجلال تحفه يمينا وشمالا أكابر حكومته مع كافة الضباط والقواد الذين امتازوا فى واقعة (نصيبين) وماقبلها وكان سليمان باشا من الحاضرين وواقفا فى أقرب موضع من سمو الوالى

(١) ولد هذا الامير سنة ١٨٢٢ وتربى تربية حسنة وتقلد وظائف مهمة وحارب تحت امرة أخيه ابراهيم باشا فى بلاد الشام وصعد الى أريكة الحكومة المصرية سنة ١٨٥٤ بعد قتل عباس باشا فى ١٤ يوليو سنة ٥٤ وتوفى سنة ١٨٦٣ ومن أشهر أعماله مساعدته الموسيو دى لسبس عند فتح برزخ السويس وتأسيس مدينة بورسعيد الواقعة على فم القنال من جهة البحر الابيض المتوسط

فاندهش

فاندهش السلو ران السامى من هـذا الجمع العظيم والجيش الذى اشتهر بالمهارة والشجاعة وقدم وقتئذ الهدية لمحمد على باشا وانصرف بعـد أن قبلها منه بكل أبهـة وجـلال ثم بعد ذلك أخذ فى تتميم الاصـلاحات التى عزم عليها لايجاد التوازن فى المالية المصرية فأصـدر أمره بنزع المدافع من المراكب الحربية واستعمالها فى التجارة كى يظهر لاوروبا انه اكتفى واقتنع بولاية مصر الخصبة التربة المعتدلة الهواء الغزيرة المياه وقد تم ذلك فى أوائل سـنة ١٨٤٢ ولم يبق من هذه المراكب العظيمة الا العدد الكافى للحكومة والامة

وفى أثناء هذه السنة زار الخـديوى اقليم الفيوم وابطل احتكار الجلد والصوف ولما عاد الى المحروسة أبطل احتكار سائر الاصناف التجارية ماعدا القطن خوفا من نضوب الخزينة اذ ربح بيع القطن من أهـم مواردها (١) وكان عازما أيضا على التنازل عن احتكاره وجعل تجارته حرة لو سمحت خزينة الحكومة بذلك

وفى ٩ ينايرسنة ١٨٤٤ توفى باغوص بيك وزير خارجيته وكان لموته تأثير محزن عند محمد على باشا لما كان له عنـده من المكانة العظمى لانه كان يعتمد عليـه فى الاعمال المهـمة والمخابرات المدلهمة وخلفه فى منصبه أرتين أفندى

ثم فى أوائل شهر أغسطس من هذه السـنة خطر بباله أن يرسـل لاوروبا اثنين من اعضاء عائلته الكريمة ليكونا قدوة لمن أرسـل قبلهم ولمن يرافقهم من شبان المصريين وسـببا لمراعاة الحكومة الفرنساوية للارسالية المصرية وبعد أن بحث مليا فى هـذا المشروع وتأمل فيه وتفكر فى نتائجه الحسنة وبعد المباحثة فى ذلك مع سليمان باشا قبل أن يرسل الى مدينة باريس حسين بيك ثالث أولاده والامير أحمد بيك نجل ولده ابراهيم باشا وبأن يرسل معهما أربعا وثلاثين شابا مصريا وكلف سليمان باشا بانتخاب البعض من المدارس الحربيـة والمدارس الهندسية (مهندسخانة) فانتخب أحد عشر تلميذا من مدرسة الطوبجية وستة عشر من مدرسة السوارى وسبعة من المهنـدسخانة وأرسـل الجميع الى مدارس باريس الحربية

(١) ان الحكومة فى ذلك الوقت كانت محتكرة أغلب محصولات الارض وغـيرها من معامل الدجاج وأماكن حرق الجير والجبس فكان الفـلاح ملزما ببيع متحصـلات أرضه للحكومة بحسب الاثمان التى تقدرها وهى تبيعها فى داخل القطر وخارجه بالسعر الحاضر فكان يعود عليها من ذلك ربح عظيم

وفى ٢٥ من شهر أغسطس سنة ١٨٤٤ وصل فريق منهم الى مدينة ليون وفى ٢٨ منه وصلها الاميران حسين بك وأحمد بك فقوبلا بكل تبجيل وتكريم وتفخيم وتعظيم ونزلا بلوكاندة (أوروبا) وزارهما فيها حاكم المدينة وأعضاء مجالسها وقضاتها وسائر مأمورى الحكومة وقضيا بهذه المدينة يومين زارا فى خلالهما آثارها ومحلاتها العمومية وضواحيها اللطيفة وتنزها فى نهرى السون والرون اللذين يجتمعان فى وسطها وكان يرافقهما فى جولانهما اثنان من ياوران الملك لويس فيليب كان عينهما الملك لالاقاتهما عند نزولهما فى مدينة مرسيليا (١) ورافقتهما الى مدينة باريس الزاهرة وكانت مقابلة الاهالى لهما فى جميع البلاد التى مرّا بها تظهر محبة الفرنساويين لهما ولعائلتهما ولما وصلا الى مدينة باريس قوبلا بأحسن مما قوبلا به فى مدينة (ليون) وقابلهما الملك وأحسن وفادتهما حق الاحسان وعمّتهما منه بالامتنان

(زيارة الدوك دى مونپانسيه لمصر) ولاظهار ما حصل له من السرور لاختيار محمد على باشا مدينة باريس لتهذيب أخلاق أولاده وثمرة فؤاده وتوسيع عقولهم وزيادة علومهم أرسل ولده الدوك (دى مونپانسيه) الى مصر ليتمم دراسة فن التاريخ بزيارة آثار مصر القديمة منبع العلوم والمعارف ومهد الفنون واللطائف فوصل الامير الفرنساوى الى ثغر الاسكندرية فى صباح ٣٠ يونيه سنة ١٨٤٥ وكان فى انتظاره بالثغر الامير سعيد باشا ابن سمو الوالى فلما علم بقدوم السفينة المقلة للدوك توجه اليه لتهنئته بسلامة الوصول وكان ممن صحبه أيضا فى هذه الزيارة جاليس باشا المهندس الفرنساوى الذى أرسلته الحكومة الفرنساوية لمصر سنة ١٨٤٠ لتحصين الثغر الاسكندرى من طوارئ الزمان ونوائب الحدثان

(١) مرسيليا مدينة واقعة على البحر الابيض المتوسط أسسها الفينيقيون سنة ٦٠٠ قبل المسيح وكانت فى عصر الرومانيين مناظرة لمدينة قرطاجنة فكانت مراكبها تمخر على كافة سواحل البحر المتوسط وتجوب عباب المحيط الاطلانطيقى حتى جزائر بريطانيا وبحر بلتيق ودخلها العرب مرارا كثيرة فى القرن الثالث عشر للمسيح ولقد زادت تجارتها بعد دخول الفرنساويين جزائر الغرب وتونس وفتح خليج السويس ولها مع مصر علاقات كثيرة

وبعد ظهر ذلك اليوم بثلاث ساعات جاء سعيد باشا وأخبره أن والده محمد على باشا قد جعل سراى القبارى تحت أمره ويدعوه الى النزول بها كى يحظى بزيارة جنابه العالى فقبل الدولك منه ذلك وشكره على عظيم التفاته وحسن اعتنائه ثم نزلا من السفينة الفرنساوية التى حيتهما باطلاقها واحدا وعشرين مدفعا وجاوبتها السفن المصرية بمثل ذلك

فوصلا الى سراية القبارى ومكث فيها برهة شرب فى خلالها القهوة والمرطبات ثم وفد على السراى محمد على باشا فى عربة تجرها ستة من أحسن الخيول العربية وتحف بها كوكبة من فرسان المماليك لابسين ثيابا فاخرة مزركشة بالذهب والحجارة الكريمة على أحسن نوع وأتم وضع فقابل الدولك بأحسن مقابلة وشكره على تشريفه الديار المصرية ثم عاد بمثل ما جاء به من الاجلال والتعظيم

وفى صبيحة اليوم التالى ردّ الدولك الى الوالى الزيارة فى سراى رأس التين العامرة فقابله الوالى وسائر ضباطها البرية والبحرية بدون أن ينقص منهم أحد الا سليمان باشا فانه كان مريضا بالقاهرة مما كابده من الاتعاب أثناء عودته من الشام وفى مساء هذه الليلة صنع له سموّ الوالى مأدبة فاخرة دعى اليها سراة القوم وأكابرهم وأعيانهم وسائر الموظفين من الفرنساويين وقدم لجناب الدولك الدكتور (كلوت بيك) مؤسس مدرسة الطب ولنبير بيك مؤسس مدرسة المهندسخانة وغيرهما من الفرنساويين الذين لهم الفضل الاعظم فى تأسيس المدارس وبناء القناطر وكذلك كافة ما حصلت عليه مصر من التقدم فى زمن المغفور له محمد على باشا ولقد صرف الدولك أسبوعا كاملا فى مدينة الاسكندرية قضاه فى زيارة الاستحكامات والاسبتاليات والسفن الحربية وسر كثيرا من السفينة المسماة (بنى سويف) أكبر سفن المصريين فكان فيها مائة مدفع وألف ومائة جندى وكان قائدها سعيد باشا

ثم ركب النيل ومعه سعيد باشا وعباس باشا فوصلوا الى مصر ونزلوا بسراى شبرا فى يوم ٨ يوليو وكان بانتظارهم هنالك ابراهيم باشا وبعد أن استراح الدولك قليلا ركب فى عربة مع ابراهيم باشا وسارا الى القلعة حيث كانت معدة لاقامة محمد على باشا فوصلاها فى الساعة ١٠ مساء وكان مرورهما بين صفوف الاهالى والعساكر يتقدمهم جم غفير من

حاملى المشاعل وفى يوم ٩ منه طاف الدولة فى انحاء القاهرة للتفرج على ما بها من الآثار العربية فشاهد كافة المساجد القديمة وقبور الخلفاء وعند الاصيل توجه الى مصر القديمة وعاد سليمان باشا وكان طريح الفراش فسر كثيرا من تنازل نجل ملك فرنسا الى زيارته ثم شارف مقياس النيل بجزيرة الروضة (المنيل) وفى يوم ١٠ منه اقيمت صلاة احتفالية فى الكنيسة الفرنساوية تذكارا لعيد جلالة ملكة فرنسا (مارى آميلى) والدة الدولة فحضرها مع كل ضباط الدونانمة التى رافقته الى الاسكندرية

وفى مساء ذلك اليوم زار الامير عباس باشا وتوجها معا على طريق البر الى مدينة السويس واستراحا أثناء السير فى السراى التى بناها عباس باشا فى الصحراء وبعد أن شارفا المدينة والمينا ذهب الدولة الى جبل طورسينا لزيارة الاماكن المقدسة هنالك وعادا الى القاهرة وأظهر الدولة رغبته فى السفر على طريق النيل الى مصر العليا لزيارة آثار مدينة طيبة فقيل له ان السفر الى هذه الجهات لا يستحسن الا فى زمن الشتاء لما أن النيل يبتدئ فى الزيادة فى شهر يوليو وان الاولى العودة الى مصر فى أواخر الشتاء حين تكون مياه النيل قد تناقصت فقال الدولة انه لا يمكن ذلك لانه ربما تشب نار الحرب فى بلاد الجزائر فى أوائل الربيع وانه لابد أن يحضرها فسلم عباس باشا ما طلبه الدولة وأصدر أوامره المشددة بتجهيز ثلاثة ذهبيات نيلية فجهزت فى أسرع وقت وعزم الدولة على السفر فى ١٤ يوليو سنة ١٨٤٥ ففى صبيحة ذلك اليوم توجه الدولة الى السراى بشبرا لوداع الامير ابراهيم باشا فوجد عنده سليمان باشا الفرنساوى وكان قد نقه من مرضه قليلا وجاء لتأدية واجبات العبودية لابن مليكه وخالف تشديدات الاطباء عليه بعدم الخروج خوفا من عود المرض اليه فقابله الدولة أحسن مقابلة وأظهر له سرور الملك وسرور الامة الفرنساوية كلها بما أتاحه الله للمصريين من النصر فى بلاد الشام بحسن ترتيباته العسكرية وتنظيماته الحربية وأن فرنسا تود وجود أحد أبنائها الاعزة فى مثل هذا المنصب لان هذا مما يعلى كلمتها ويحقق رغبتها فى تقدم مصر التى كانت ولم تزل فى مقدمة البلاد الشرقية

ثم عاد الكل الى فرضة بولاق حيث تنتظرهم البواخر المعدة لسفر الدولة فنزل فى الاولى مع بعض معيته وكان يخفق عليها العلم الملوكى الفرنساوى ونزل فى الثانية الامير سعيد باشا وحاشيته وفى الثالثة بقية معية الاميرين الفرنساوى والمصرى وكان العلم المصرى المنصور الذى تبعه المصريون فى ساحة القتال غير مرة يرفرف فوق الباخرتين الأخريين

وبعد أن ودعه الامير ابراهيم باشا وسليمان باشا ومن كان معهما من الاحرا وأكابر الاعيان أقلعت البواخر فى الساعة ١٠ صباحا وكان الجو صحوا والريح رخوا فسارت تشق عباب البحر ولم تزل الابصار شاخصة اليها حتى بعدت عن الانظار ثم انصرف الجميع وعاد كل الى محله مسرورا مما رآه من لطف الدولة وحاشيته ولم يلبث الدولة فى سياحته طويلا بل عاد بعد أن شارف المنيا وأسيوط ودندرة وآثار مدينة طيبة ثم سافروا الى فرنسا

ولقد سر والده (لويس فيليب) لما بلغه ما لاقيه ولده فى الديار المصرية من حسن الملاقاة وكرم الوفادة فأهدى لسمو محمد على باشا الجران كوردون من نيشان الليجيون دونور وكان ارساله مع أحد مستخدمى نظارة خارجيته المسيو (دى منترو) فوصل المرسل الى مصر فى ٢ نوفبر سنة ١٨٤٥ واستقبله سمو الوالى بقاعة الاستقبال بسراى القلعة العامرة وكان الاحتفال جامعا لكافة أمراء مصر وقوادها البرية والبحرية الذين اشتهروا وحازوا قصب السبق فى حروب الشأم الاخيرة ولم يشهد هذا الاحتفال سليمان باشا الفرنساوى لانه كان مرافقا لابراهيم باشا فى بلاد ايطاليا وكان قد ذهب اليها طلبا للشفا من مرض باطنى ألم به منذ مدة وكان الاطباء أشاروا عليه بالتوجه اليها للمداواة بالاستحمام بالمياه المعدنية

(سفر ابراهيم باشا الى أوروبا) وأما محمد على باشا فلم يكن سروره بهذه الهدية صافيا بل كان يشوبه الكدر مما ألم بأكبر أولاده الامير ابراهيم باشا من المرض الداخلى الذى أنهك قواه حتى تحيرت الاطباء فى علاجه وفى آخر الامر أشار عليه الدكتور (لالمان) طبيبه الخاص به بأن يسافر فى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٤٥ الى حمامات (سان جيتانو)

بالقرب من مدينة بيز (١) بايطاليا فسافر اليها وبعد أن استمر دوام على الاستحمام فى مياهها المعدنية مدة بدون فائدة أشار عليه الاطباء مرة ثانية بالتوجه الى مياه فرنيه الواقعة على جبال البيرنية الشامخة الفاصلة بين فرنسا واسبانيا فكتب ابراهيم باشا الوالدة بذلك وطلب منه اخبار حكومة فرنسا بحضوره اليها فانشرح (لويز فيليب) ملك فرنسا لمجئ شجاع مصر وفاتح مورة والشام الذى عم ذكره جميع الاقطار الى بلاده ولقد أمر والد الامير سليمان باشا بمرافقته لولده الأعز فى هذه السياحة كى يكون له دليلا ومرشدا فى هذه البلاد التى لم يسبق له توجه اليها فسر بذلك لما انه يود أن يرى وطنه العزيز بعد أن غاب عنه مدة ٢٥ سنة فسافر الى (بيز) ومنها الى (فلورنسا) مع ابراهيم باشا وحاشيته ومنها الى (ليفورن) لجنوة (٢) وقابله شارل البرت (٣) ملك سردينيا فرحب به وأضافه أربعة أيام متوالية

---

(١) هى فرضة واقعة على البحر المتوسط وهى قديمة العهد جدا وكانت فى القرن الثالث عشر للميلاد من أعظم بلاد ايطاليا تجارة ولها امتياز التجارة فى القسطنطينية وانطاكية وسائر مين الشأم والروم ثم تعطلت تجارتها بسبب تداخلها فى الحروب الدينية بين البابا وامبراطورية ألمانيا ولم تعد بعد ذلك الى ما كانت عليه من التقدم فى أنواع التجارة والملاحة ثم فتحها نابليون الاول وصارت تابعة لفرنسا من سنة ١٨٠٧ الى سنة ١٨١٤ ومن ذلك العهد تبعت بلاد التوسكان فى تقلباتها السياسية وهى الآن داخلة ضمن مملكة ايطاليا

(٢) هى مدينة قديمة واقعة على البحر المتوسط يقال انها أسست قبل الميلاد بسبعمائة سنة وبعد ان حكمها الرومان مدة ودخلها غالب طوائف المتوحشين الذين أغاروا على بلاد ايطاليا فى القرن الخامس واستقلت فى القرن العاشر وصارت جمهورية تجارية كادت تعادى جمهورية البندقية واستمرت كذلك الى آخر الجيل الخامس عشر حيث بلغت ذروة المجد والغنى ثم أخذت فى الانحطاط شيأ فشيأ لتنازع أغنيائها فى السلطة وفى سنة ١٨٠٥ احتلها نابليون الاول وصارت تابعة لفرنسا الى سنة ١٨١٤ حيث أعطاها مؤتمر فيينا الى مملكة سردينيا وهى الآن ضمن مملكة ايطاليا

(٣) ولد هذا الملك فى سنة ١٧٩٨ وتربى فى فرنسا حيث كان عقله يميل الى حب الحرية الفرنساوية وفى سنة ١٨٣١ تولى ملكا على مملكة سردينيا وادخل فيها اصلاحات كثيرة وأحدث فيها منافع عديدة وساعد تقدم الصناعة والفلاحة وابطل استعباد الاهالى وفى سنة ١٨٤٨ ساعد طالبى الحرية من الايطاليين على محاربة النمسا فانتصر عليها فى عدة مواقع ولكنه انهزم فى واقعة نوفارا الشهيرة فى ٢٣ مارس سنة ١٨٤٩ فتنازل من الملك لولده فيكتور عمانويل وانتقل الى البورتغال وتوفى هنالك بعد قليل فى مدينة أوبورتو

وفى اثناء اقامة ابراهيم باشا فى مدينة جينو وسافر سليمان باشا الى مدينة طولون (١) من اعمال فرنسا الاجراء الترتيبات اللازمة لاقامة أميره حين قدومه الى أرض فرنسا فوصلها فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٤٥ وكان فى انتظاره هناك مأمور الحكومة وجم غفير من الاهالى أتوا من كل فج لمقابلة هذا الشجاع الفرنساوى الذى تجرع غصص الفاقة فى فرنسا وخرج منها فقيرا وان لم يكن حقيرا وعاد اليها بعد خمس وعشرين سنة مكللا بالنصر والظفر ومتحصلا على رضا سمو أميره وافتخار كافة ضباط الجيش المصرى به حيث قام بجميع ما يلزم للوطن العزيز بالذمة الصادقة والهمة العالية

فبعد أن أجر المحلات اللازمة لاقامة أميره وحاشيته قضى مدة انتظاره فى التفرج على استحكامات المدينة من جهتى البر والبحر وعلى ما بها من الترسانات والسفن الحربية وجميع الاعمال الفنية وبينما جميع الاهالى منتظرون سمو الامير المصرى المنصور متشوقون لرؤيته اذ وصل اليها من طريق البحر فى صبح يوم ٢ نوفمبر وتنقله احدى سفن مصر الحربية وأدت التحية لهذا الامير بارجة الاميرال بطلقها أحدا وعشرين مدفعا ورفعها العلم المصرى على أعلى صواريها وكذلك كافة السفن الفرنساوية رفعت العلم المصرى ثم أطلق من احدى الطوابى البرية واحد وعشرون مدفعا وأرسلت الاخبار توا الى باريس بالتلغراف لاخبار الملك بقدوم سمو ضيفه فارسل الملك تلغرافا بهنئه بسلامة وصوله وقد حيته أيضا باطلاق المدافع السفينة النابلتانية المسماة باوزانيا التى كانت راسية بطولون وأما سفن الدول الاخرى فاكتفت برفع اعلامها مع العلم المصرى على جميع صواريها وكان دخول السفينة المقلة لسموه الميناء فى الساعة ٨ صباحا وعند دخولها ذهب لتهنئته على السفينة حاكم المدينة البحرى ليتلقى من سموه الاوامر وبعد أن مكث فى الوابور ثلاث ساعات للاستراحة من مشاق البحر نزل الى البر فى الساعة الحادية عشرة وكان فى انتظاره على الرصيف المار كيز دى لافاليت مندوبا من قبل جلالة الملك والحاكم البحرى وكثير من الضباط البرية والبحرية وكان الالاى الثالث من المشاة البحرية

(١) هى من أحصن مدن فرنسا الحربية المنيعة الكائنة على البحر المتوسط وبها مرسى دوننمة هذا البحر ويبلغ عدد سكانها تسعا وسبعين ألف نسمة وتجارتها قليلة

مصطفاعلى جهتى طريق الترسانة والالاى التاسع عشر من المشاة البرية مصطفا أيضا من باب الترسانة الى سراى الحكومة المعدة لاقامة سموه وكان فى مقدمة الموكب فرقة من الجندرمة يتبعها ضباط البر والبحر ثم سمو الامير ابراهيم باشا وعن يساره سليمان باشا وهما لابسان أفخر الملابس الشرقية المزركشة بالذهب وخلفهما عدد كثير من الخدم السودانيين حاملين الشبكات المحلاة بالحرير والتراكيب الثمينة ومر سموه بهذه الهيئة بين صفوف العساكر والاهالى والكل يقابلونه بالتهليل والتفخيم والتكريم والتعظيم

ثم فى اليوم التالى سافر سليمان باشا الى مدينة جرسيليا بور رفاندر فبر بنيان فرنسيه لاستعداد المحلات اللازمة لاقامة الامير وتابعيه وبعد تأدية هذه المأمورية عاد الباشا الى مدينة بر بنيان وكان قد دعاه الجنرال الكونت دى كاستيلان قائد الفرقة الفرنساوية المعسكرة فى هذه الجهة ليشهد المناورات التى عزم الكونت على عملها اكراما له ثم بعد أن حضر هذه المناورات عاد الى مدينة بور رفاندر لانتظار أميره

وفى يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٤٥ بارح سموه مدينة طولون قاصدا مدينة مارسيليا فوصلها عند ظهر ذلك اليوم ولما وصل حيته القلاع باطلاق مدافعها وعند نزول سموه الى البر قابله الجنرال كونت دو بول قائد الحامية وسائر مأمورى الحكومة وكان نزول سموه فى منزل أحد التجار المشهورين الذين لهم علاقات دائمة مع البلاد المصرية وهو منزل اخوان باسترى وهناك زاره أكابر البلد من تجار وأعيان ثم دعا سموه مأمورى الحكومة الى مأدبة أعدها لهم وبعد الفراغ من تناول الطعام ذهب الى التياترو وقابله هناك جميع المتفرجين بالتهليل والتصفيق كما هى عادة الافرنج عند اظهار استحسانهم أو سرورهم من أمر وبعد انتهاء التشخيص عاد سموه بالعين والاقبال الى منزل باسترى اخوان فقضى ليلته فيه الى الصباح

وفى اليوم التالى الموافق (٣٠ نوفمبر) زار المدينة ومر فى أهم شوارعها فعند مروره من شارع بائعات الازهار قدمن لسموه باقة من الزهور الجميلة فتعطف سموه بقبولها منهن وفى مساء الساعة التاسعة توجه (الى البالو) الذى أعده الجنرال كنت دو بول اكراما

لسموه

لسموه فى جميع غرف الرقص وصار يلاطف السيدات والمموازلات برقيق لفظه وسليمان
باشا يترجم لهن عباراته حتى انشرحن من ملاطفته وأعجبهن حسن التفاته اليهن
وتعطفه السنى عليهن

وفى صبيحة أول دسمبر سنة ١٨٤٥ زار سموه ما حوته المدينة من ورش وفابريقات وجميع
الاماكن الصناعية وكان رحمه الله يتأمل بغاية الدقة الى آلاتها اللطيفة الغريبة ويتعجب من
حسن صنعتها العجيبة ومما أدهش مهندسى هذه الفابريقات حذق الامير وقوة فكره
وفهمه هذه التركيبات الميكانيكية حتى انه أبدى لهم بعض ملحوظات لتحسين بعض الآلات
مع عدم تعلم سموه العلوم الهندسية بل ولا غيرها من العلوم مطلقا

وفى يوم ٢ منه أولم وليمة فاخرة لاعيان تجار هذه المدينة وأصحاب الفابريقات وفى يوم ٣
منه فى الساعة الرابعة مساء أقلع من مارسيليا قاصدا بورفاندر بعد أن وزع الهدايا
الثمينة على كل من احتفل بلقائه وأعطى الفاو خمسمائة فرنك الى حاكم المدينة بقصد
توزيعها على الفقراء ووصل سموه الى فرضة بورفاندر فى ٤ منه وقضى يوم ٥ فى
سفينته وفى اليوم السادس تناول طعام الظهر فى وليمة أعدها لسموه تجار المدينة وبعد انتهاء
الوليمة سافر سموه الى مدينة بربنيان (١) وكان وصوله اليها قبيل وقت الاصيل فقابله
هناك الجنرال كونت دى كستيلان مقابلة عسكرية واستعرض أمامه الجيوش المعسكرة
فى هذه المدينة وضواحيها ثم تناول سموه طعام المساء عند الكونت فى وليمة فاخرة عظيمة
باهرة كان أعدها لسموه ودعا اليها كل أعيان المدينة وضباط الحامية وفى يوم ٧ منه تناول
طعام العشاء عند مدير الاقليم المدعو بالمسيو (فايس) وفى صبيحة يوم ٨ منه سافر سموه فى
عربة الى فرنية ورافقه فى طريقه الجنرال كونت دى كستيلان ولم يزل راكبا جواده حتى
أمضى مسافة ٣ كيلومتر خارجا عن المدينة ثم عاد بعد أن ودع سموه وداع اخلاص وولاء
وكان الجنرال أرسل أوامره الى مدينة فرنية باستقبال الامير ابراهيم باشا بكل ما يليق بمقامه

---

(١) هى مدينة حصينة لا تبعد عن البحر الا مسافة ثمانية كيلومتر ولها أهميه حربية من الطبقة الاولى لوجودها بالقرب من حدود اسبانيا ومن الطرق المارة فى مضايق جبال بيرنيه موصلة بين المملكتين

الرفيع من الاحترام والتبجيل فسار سموه طول نهاره فيما بين جبال البرينيه الشامخة مع جزء من ليله وقبل أن يصل المدينة بمسافة فرسخين وجد عساكر الجندرمة مصطفة على جانبي الطريق وأهالى الجبال مجتمعون فى الاودية وعلى قمم الجبال ينتظرون قدوم الامير المصرى متزينين بأفخر لباسهم حاملين أسلحتهم كما هى العادة المعتادة عند سكان الجبال

وبمجرد ما أطلقت المدافع من قلعة (فيل فرانش) ايذانا بقدوم سموه أطلق الاهالى بنادقهم فى الهواء تعظيما للمقام زائرهم الافخم وبعد قليل أحاط بعربته جم غفير من الاهالى حاملين مشاعل متقدة ولم يزالوا مرافقين له ومتابعيه حتى وصل الى المدينة فتابعوا اطلاق البنادق مهللين بأصوات الفرح والبشر وكان بانتظاره عند تشريفه المدينة شيخ البلد وقسيسها فقابلاه وخطب كل منهما خطبة وجيزة هنأ بها سموه على سلامة الوصول واظهر فى خلالها ما نال بلادهم من الشرف بتشريف جنابه الاكرم وختم كل منهما عبارته بطلب البقاء له من بارئ النسمات ومبدع الكائنات وشافى العلل والآفات ثم مرت عربته من تحت قنطرة نصر أقيمت فى أول شارع احتفالا وتزيينا لجنابه وكان مكتوبا عليها هذه الكلمات الى المنصور فى قونية ونصيبين وعند باب الحمام أقيم له قنطرة أخرى عليها هذه الجمل الاربع الى نجل محمد على باشا الاكبر الى ممدن الشرق الى صديق فرانسا الى الشجاع المصرى

ولما وصل سموه الى الحمام توجه بلا توان الى المحل الذى كان معدا لجنابه الرفيع فى لوكاندة الحمام وأخذ الجمع فى الانصراف رويدا وقضى سموه فى مياه فرنيه أربعة أشهر طلبا للشفاء فكانت صحته تتحسن يوما عن يوم حيث ان الهواء وافقه سيما بملاحظة همة الدكتور لالمان طبيبه الخاص ولكنه سئم الاقامة فى هذه الجهة المنعزلة وفضل مبارحتها عن الاقامة بها لولا تشديد طبيبه عليه ثم كان يزوره أحيانا الجنرال كونت دى كستلان قائد أوردى برپنيان وبعض من موظفى الحكومة فى هذا الاقليم وما كانت هذه الزيارات القليلة تكفى لتسليته ففى أوائل شهر فبراير أذن له الدكتور لالمان بالتوجه الى برپنيان

لوأراد بشرط ان يكون انتقاله فى عربة تسير الهوينى فرضى سموه بهذا الشرط وسافر الى المدينة فى ٥ فبراير سنة ١٨٤٦ حتى وصلها فى الساعة الحادية عشرة بعد الظهر بدون أن يعلم الجنرال كونت (دى كستيلان) وكان بمعيته طبيبه الذى كان لا يفارقه أصلا وبعد أن قضى سموه يومين عاد الى الحمامات وفى ٤ مارث زار هذه المدينة مرة أخرى فقابله فيها الجنرال ورافقه عند عودته الى خارج المدينة وكان هنالك فرقة من جنوده وأركان الحرب تشتغل بوضع قنطرة من السفن على نهر ريم بالقرب من المدينة لمرور العساكر قصد التمرين فتم وضعه فى أقل من القليل ولم يحتج الى مضى وقت من الزمن ومر عليه الجيش بحضور سموه فسر من مهارتهم وسرعة حركتهم واتقان عملهم ثم عاد الى قرينة مصحوبا باليمن والاقبال ولما تم الشفاء لسموه فى أوائل ابريل عزم على السفر الى مدينتى باريس ولوندرة وأخبر والده بذلك فكتب سمو الوالى رحمه الله الى حكومتى فرنسا وانكلترا يخبرهما بقدوم ولده اليهما بقصد السياحة

فلما علم ابراهيم باشا بان والده كتب اليهما وتحقق من ذلك بادر بالسفر مع حاشيته من قرنيه فى النصف الثانى من شهر ابريل سنة ١٨٤٦ من طريق بوردو وفدينة تور حيث كان فى انتظار سموه قطار حديدى خاص به فوصل الى باريس الزاهرة فى الساعة الاولى بعد ظهر يوم ٢٥ منه ولا حاجة الى ذكر ما لقيه سموه أثناء الطريق فى المدن العظيمة التى مر عليها من الاحتفالات بل نكتفى بان نقول انه قوبل أحسن مقابلة واحتفل بمروره بنوع لم يسبق فى تاريخ الشرق من قبله

وكان فى انتظار سموه على رصيف المحطة الكولونيل (تيرى) أحد ياوران الدولة (دى مونبانسيه) من طرف جلالة الملك للاقاته ومرافقته أثناء اقامته فى عاصمة المملكة الفرنساوية وكانت المحطة جامعة من الداخل والخارج لجماهير الاهالى بين نساء ورجال ولم يتأخر أحد من التلامذة المصريين الموجودين هنالك بل أتى الكل للتشرف بمقابلة نجل مليكهم وولى عهد حكومتهم فنزل سموه من القطار وتبعته حاشيته والتلامذة المصريون وهنأه الكولونيل (تيرى) بسلامة الوصول نائبا عن جلالة الملك وكافة أعضاء العائلة

الملوكية وأخبرهم بان الملك يدعو سموه للاقامة فى سراى الاليزية بور بون (١) فقبل سموه ذلك وشكر الملك على ما كان منه من حسن القبول وما ظهر من باقى حكومته من سروره بمقابلتهم فى سائر الجهات التى مر بها ثم ركب سموه مع حاشيته العربات الملوكية التى أعدت لانتظارهم وساروا الى السراى بين صفوف الاهالى وكان كلما يمر على جماعة يصرخون بقولهم فلتحى مصر فليعش ابراهيم باشا فليحفظ الله سموه ولم يزالوا على هذه الحالة حتى وصل الى السراى وكان المحل الذى أعد لاقامة سموه من هذه السراى القديمة العهد هو الذى أقام فيه الامبراطور نابليون بعد عودته من جزيرة البه والسرير الذى أعد لنوم سموه هو الذى كان معدا لنوم الامبراطور

ولقد قضى سمو ابراهيم باشا يومى ٢٥ و ٢٦ قبل أن يقابله الملك مقابلة رسمية وكان سموه يطلع على مبانى المدينة متخفيا ثم فى يوم ٢٧ احتفل الملك وأولاده وزوجاتهم بمقابلته بحضور الملكة والبرنسيس اديلاييد فى سراى التويلرى (٢) فى قاعة المقابلات الاحتفالية وكان جلالة الملك متحليا بكسوة رئيس الجيوش وكذلك نجله الدوك دى نيمور وأما البرنس دى جوانفيل فكان لابسا ملابس قبس أميرال بحرى والدوك ديومبانسيه كسوة أميرالاى طوبجى

وكان حاضرا عند الاستقبال كل من المارشال سولت الملقب بدوك دلماسيا رئيس النظار والمسيو جيزو ناظر الخارجية وقبل مجىء ابراهيم باشا برهة حضر الى السراى الملوكية سفير الباب العالى المدعو سليمان باشا وكان حضوره فى الساعة الاولى بعد ظهر ذلك اليوم وعند قدومه أقبلت العربة الملوكية المقلة لسمو الامير ابراهيم باشا يتقدمها خيالة من

(١) هى سراية فاخرة بناها الكونت ورينه سنة ١٧٢٨ ميلادية ثم اشتراها لويس الخامس عشر ملك فرنسا وأهداها لعشيقته مادام دى بومبادور سنة ١٧٦٥ ثم اندرجت ضمن املاك الامة أثناء الجمهورية الاولى ثم أعطيت لنابليون الاول أربكة الامبراطورية سنة ١٨٠٤ وصارت من ذلك العهد تابعة لكل ملك يتولى وهى الآن معدة لسكن رئيس الجمهورية أثناء مدة تعيينه والذى يسكنها الآن هو المسيو سادى كارنو رئيس الجمهورية الفرنساوية حالا

(٢) ان البانى لهذه السراية هى كترين دى مديسيس سنة ١٥٦٤ ولم يتم بناؤها الا فى عهد الملك لويز الرابع عشر وقد سكنها ملوك فرنسا أو رؤساء جمهوريتها تبعا لتقلب الحكومات الى أن أحرقها ثائروا الكومون فى ٢٤ مايو سنة ١٨٧١ ولم تبن ثانية بعد

خيالى اسطبلات الملك ويتبعها ثلاث عربات أخر ملوكيـة وكان مع سموه الكولونيل تيبرى المعين لمرافقته وفى العربات الأخر سليمان باشا الفرنساوى وغيره من حاشية الامير ولما وصل سموه الى قاعة الاستقبال قدمه سفير الباب العالى الى جلالة الملك فصافحه وشكره على مالقيه نجله الدولة (دى مونبانسيه) من الاكرام وحسن المقابلة أثناء سياحته فى القطر المصرى وقد روى أن الملك قال أثناء مقابلة سليمان باشا الفرنساوى أجدك المركيز دى سيف فقال له الباشا لا بل انا والذى كان أحد ضباطى مدينة ليون فرد عليه الملك بقوله انذلك مما يزيدك شرفا ونبلا وبعد أن تكلم الملك قليلا مع ابراهيم باشا والحاضرين من حاشيته عاد سمو الامير الى السراية بنفس الاحتفال الذى جاء به

وفى مساء ذلك اليوم عاد سموه الى سراى الملك لتناول طعام المساء على مائدة جلالة الملك ولما حضر الامير والمدعوون قام الملك فى الساعة ٦ $\frac{١}{٢}$ الى قاعة الطعام وجلس ابراهيم باشا عن يمين جلالة الملكة أمام زوجها الافخم وكان المدعوون من أكبر رجال المملكة بين أمراء وقواد ووزراء ثم تجاذب الملك والحاضرون أطراف الحديث أثناء الاكل وكانت جلالة الملكة تلاطف ضيفها برقيق ألفاظها وتسأله عن حالات عمومية فى الشرق الى أن انقضى الطعام فى نحو الساعة ثمانية ونصف مساء وعاد سمو الامير ابراهيم باشا الى مقره بسراى الاليزيه بصحبة الكولونل تيبرى ومن كان معه من حاشيته

وفى صبيحة يوم ٢٨ منه توجه سموه الى سراى الانفاليد (١) لزيارة قبر الامبراطور نابليون الاول وصحبه فى هذه الزيارة الدوك دى مونبانسيه والكولونل تيبرى وسليمان باشا فقابل سموه على باب السراى الدوك دى ريجيو حاكمها والضباط من كهول الجيش الفرنساوى حاملين السلاح تعظيما لجنابه العالى فزار سموه السراى بجميع أركانها وأثنى على الحكومة الفرنساوية التى خصصت هذا البناء الشاهق لمن يعجز عن الكسب من شجعانها اما لتقدمه فى السن أو لاصابته بفقد أحد أعضائه فى الدفاع عنها وعن شرفها ثم نزل

(١) تأسست سراى الانفاليد سنة ١٦٧٠ فى عهد لويز الرابع عشر ملك فرنسا الذى بلغت مدة حكمه ثلاثا وسبعين سنة لانه ولد فى سنة ١٦٣٨ وتولى سنة ١٦٤٣ وعمره خمس سنوات وتوفى فى أول سبتمبر سنة ١٧١٥

بموكبها الحافل الى القاعة المبنية تحت السراى وبها محفوظة جثة الامبراطور التى احتفل بارجاعها من جزيرة سانت هيلان (وقد دفن بها) فى ١٥ دسمبر سنة ١٨٤٠ وبعد برهة خرج منها ابراهيم باشا وتوجه لزيارة المدرسة الحربية وبعد ذلك تنزه قليلا فى منتزه غابة بولونيا ثم قصد سراى الدوك دى مونبانسيه لتناول العشاء فى مأدبة خصوصية أعدها الدوك اكراما لزائره وقياما ببعض واجبه

وفى يوم الخميس الموافق ٣٠ ابريل سنة ١٨٤٦ ذهب سموه فى الساعة ٣ بعد الظهر الى سراى لوكسنبورج للتفرج فى دار التحف فسر مما رآه فيها من الصور الجميلة خصوصا اللوحة المشهورة التى رسم فيها المسيو هوراس فيرنيه مقتل المماليك بقلعة مصر المحروسة

وفى يوم الجمعة أول مايو توجه صباحا لمقابلة الملك الذى كان يستقبل أكابر الدولة لمناسبة عيد دولته الفخيمة فأهدى الملك اليه بعد المقابلة نيشان اللجيون دونور من درجة جران كوردون فشكره سمو الامير على هذه الهدية التى دلت على ما بين مصر وفرنسا من المحبة والوفاق الخالصين من كل شائبة ثم دخل سموه مع جلالة الملك الى قاعة الاستقبال العمومية وشهد مرور وفود المهنئين مع اختلاف ملابسهم بين ملكية وحربية على اختلاف أجناسهم وأشكالهم وكان بجانب سموه الدوك دى مونبانسيه فكان يعرفه اسم كل من مر من أمامهما ولما وقع نظره على المسيو تيرس الذى كان وزيرا لفرنسا فى سنة ١٨٤٠ ولم يقدر على مساعدة الحكومة المصرية على المقاومة وعدم قبول الشروط التى عرضتها عليه الدول كامر ذلك فى بابه تغير وجه سموه واستشاط غضبا وود أنه لم يوجد فى هذا الاحتفال حتى لم ير وجه هذا الرجل الذى بسوء سياسته أوجب الويل للأمة المصرية

وبعد انقضاء رسوم التشريفات الملوكية عاد سموه الى سرايته وفى المساء توجه سموه لتناول الطعام فى مأدبة أعدها له المارشال سولت وزير فرنسا الاول وبعد انتهاء الوليمة توجه سموه مع جناب الوزير وسائر المدعوين الى السراية الملوكية لسماع نغمة طقم الموسيقى الذى أعدته بلدية باريس احتفالا بعيد جلالة ملكهم وعند منتصف الليل شاهد سموه

بحضور الملك وسائر أعضاء العائلة الملوكية السواريخ وحرائق البارود التى أحرقت على شاطئ نهر السين كما هى العادة فى المواسم والاعياد فسر سموالاميرمن هذا المنظر البهيج الذى لم يسبق لسموه رؤيته فى الديار المصرية .

وفى يوم السبت الموافق ٢ منه زار سموه سراى محكمة الاستئناف العليا وحضر احدى جلساتها وكان مترجمه الخاص يترجم له ملخص أقوال الابوكاتية ويعبر لسموه عما تصدره القضاة من الاحكام ويشرح له كيفية ترتيب المحاكم فى فرنسا وكيفية سير الاحكام بها فشهد سموه بصلاحية هذا الترتيب للامم المتقدمة فى الحضارة ووعد من معه بادخاله فى الديار المصرية حينما ينتشر التعليم ولو قليلا بين أبنائها ليعلم كل ماله من الحقوق وما عليه من الواجبات (١) وبعد أن استراح سموه يومى الاحد والاثنين توجه فى يوم الثلاث ٥ مايو سنة ١٨٤٦ الى قلعة (فنسين) (٢) ليحضر المناورات العسكرية التى أمر الملك باجرائها احتفالا بسموزائره وكان فى انتظاره هناك الدولة (دى نمور) والدولة (دى مونبانسيه) أنجال الملك وأيضا خمسة عشر ألف جندى لاجراء مناورة تمثل واقعة نصيبين ولما وصل سموه صدحت الموسيقات العسكرية بأنغامها الحربية وتحركت العساكر بغاية الانتظام كأنهم شخص واحد وكان سموه متطيا فى هذه الحفلة بنيشان (اللبيون دونور) وراكبا جوادا عربيا فتوجه مع أنجال الملك وكل القواد المدعوين الى هضبة عالية كانت

(١) لقد حقق سمو خديوينا المعظم محمد توفيق الاول ما تمناه ووعد به جده الكريم قبل الآن نحو خمس وأربعين سنة بانشاء المحاكم الاهلية وتعميمها فى كل البلاد المصرية مما كان سببا فى أمن الانسان على ماله وروحه ومن أن لا تعبث بحقوقه أيدى الاعتساف وتتلاعب بها أهواء الاغراض ولذلك حق على كل مصرى ان يشكر سمو خديوينا الاعظم ومليكنا الاكرم على ما أولانا من المنن والمزايا التى لولا ما جبل عليه سموه من الخصال اللطيفة والسجايا الشريفة ما تخلصنا من ربقة الذل ولا حصلنا على المطلوب الا بعد مرور السنين والاجيال وهيهات هيهات فالحمد لله قد تساوى بين الجليل والحقير فى الاحكام بالدقة والاحكام فجزاه الله عن الرعية خيره ووقاه ضيرا ولا زال ممتعا بانجاله واشباله ورجاله وأحزابه

(٢) هى قلعة تبعد عن باريس نحو ستة كيلومترات بناها لويس أوجوست ملك فرنسا سنة ١١٨٣ وحوصرت غير مرة بدون أن يتمكن الاعداء من دخولها لمناعتها وكان يحبس فيها من يخشى هربه من اعداء المملكة وهى الآن مدرسة الطوبجية وصارت مستودع المدافع ومهماتها

تشخص مركز العثمانيين ليشاهد هجوم الفرقة المعينة للاستيلاء على هذه الهضبة وبعد أن هجمت هذه الفرقة مرتين تمكنت بمساعدة الطوبجية من احتلالها كما حصل فى واقعة نصيبين

فسر سموه من نظام العساكر الفرنساوية وتدريبهم على الحركات العسكرية وشهد بان هؤلاء الجند لو وجدوا من يحسن قيادتهم لا يهزمون أمام أى عدو كان لانهم مستوفون عدة وعدة ولما انتهت المناورة فى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر زار سموه قشلاقات العسكر وفى الساعة السادسة تناول الطعام فى مأدبة أعدها لسموه ضباط الجند وكانت قاعة الطعام مزينة بالسيوف والبنادق بين الهافليل من الازهار ولم يعد سموه الى باريس الا عند الساعة العاشرة يرافقه فى عربته الملوكية سليمان باشا الفرنساوى والكولونيل (تيبرى) ياورانه وفى اليوم السادس منه زار سموه المجمع العلمى (انستيتوت) والكتبخانة الملوكية وفى السابع شارف محل الضربخانة وفى الثامن زار الاسبتالية العسكرية وخصص اليوم التاسع منه للاطلاع على ما تحتوى به الكتبخانة من الكتب العربية فلما اطلع عليها اندهش مما وجده فيها من الكتب النفيسة التى ربما لا يوجد لبعضها نسخ أخرى فى غيرها من الدول سواء كان فى الشرق أو فى الغرب وتعجب من اهتمام الدول الاجنبية باللغة العربية أكثر من اهتمام أهلها بها وفى اليوم الحادى عشر منه حضر سموه الاحتفال بتوزيع الجوائز على التلامذة المصريين الموجودين اذذاك بباريز وكان بمعية سموه المارشال (سولت) رئيس الوزراء والدوك (دى مونبانسيه) فسر جنابه من تقدم التلامذة خصوصا نجله أحمد بيك لانه كان ماهرا فى المعارف واقرا وفى يوم أربعة عشر زار جناب الامير مدرسة الصنائع والفنون وتفقد كل ما بها من الآلات الميكانيكية وأبدى لاساتذتها بعض ملحوظات استدلوا بها على ما لسموه من توقد الفكر وشدة الذكاء الطبيعى ثم فى اليوم التالى شرف سموه مجلس الاعيان (سناتو) بهيئة احتفالية يتقدمه جمع من الفرسان وحضر الجلسة بتمامها واستحسن نظام الحكومة الشورية التى فيها تستمد القوة الحاكمة آراء الامة بواسطة مندوبين ينتخبون بالانتخاب العمومى لينوبوا عن الامة فى ابداء آرائها واقتراح ما تريده من الاصلاحات أو التغييرات فلما رأى ذلك ود أن يكون بمصر مجلس ينوب عن أهلها الا انه

حاكمها وارشادها لما يلزم للامة من الاصلاحات ولولا أنه حال دون ذلك عدم تقدم الأمة في معارج التمدن والتهذيب السياسي

وفي أحد وعشرين مايو سنة ١٨٤٦ شرف سموه محل الخواجات (كريستوفل) المشهورين باتقان صناعة البلور وكذلك شرف غيره من المحلات الصناعية مما دل على شغف جنابه بالاطلاع على المواد الصناعية والبحث عن أسباب تقدمها بين الامم الاجنبية وانحطاطها في الشرق مع انه لما كانت الدولة العربية في أوج تقدمها في سائر فروع الصناعة وامتيازها بانتشار العلوم بين أهليها كانت تلك الامم الغربية التي تدهشنا الآن باستيفائها الاشياء العلمية واختراعاتها الصناعية في حالة التوحش والخشونة البربرية

وفي يوم ٢٥ منه حضر سموه استعراض حامية مدينة باريس في ميدان (شان دي مارس) وكانت مؤلفة من خمسة وعشرين ألفا من المشاة وستة آلاف من الخيالة والالاي الخامس من الطوبجية وصحبه في هذا الاحتفال العسكري الدولة (دي نيمور) وسليمان باشا وغيره من الضباط المصريين الذين رافقوه ولازموه في هذه السياحة

(*سفر ابراهيم باشا الى انكلترا*) وبعد هذه الاحتفالات والمقابلات عزم سموه على السفر الى بلاد الانكليز قبل عودته الى الديار المصرية فأعدت له الحكومة الفرنساوية قطارا خاصا لركوبه الى مدينة (ديب) الواقعة على شاطئ بحر المانش الفاصل بين فرنسا وانكلترا وباخرة حربية لتنقله الى البر الانكليزي وفي أول يونيو ودع سموه جلالة الملك وجميع أعضاء عائلته

وفي صبيحة اليوم الثالث منه عزم سموه على مبارحة باريز فركب مع من معه العربات الملوكية وتوجه الى محطة (سانلازار) في موكب حافل بين صفوف الاهالي وصنوف المودعين حتى وصل المحطة باليمن والاقبال وكان هنالك في انتظاره فرقة من الجند مع الموسيقى لتأدية مراسم الوداع وودع سموه من قبل جلالة الملك اكبرياوراته وبعد قليل سار القطار قاصدا مدينة (ديب) على طريق روان (١) ولم تستوقفه هذه المدينة مع مالها

(١) هي مدينة عظيمة تبعد عن باريس بمسافة ١٣٧ كيلومترا وبها آثار قديمة أشهرها فيها كنيسة بنيت في القرن الثالث للمسيح عند ابتداء انتشار الديانة المسيحية بفرنسا ومما يجعل لها شهرة تاريخية لا تمحوها الدهور محاكمة الفتاة (جان دارك) وتنفيذ الحكم عليها بالاعدام حرقا سنة ١٤٣١ بمعرفة الانكليز الذين كانوا في هذه الاعصر الوسطى في حرب دائم مع فرنسا

من الشهرة التاريخية والآثار القديمة بل سارتوا الى مينا (دييب) فلم يجد الباخرة التى كانت بانتظاره لعدم تمكنها من الدخول الى المينا بسبب جزر البحر بل كانت فى فرضة صغيرة بالقرب من ميناديبب تدعى (تريبور) فتوجه اليها سموه وفى الساعة السادسة من يوم ٤ يونيو اطلق الربان البخار للسفينة فشقت عباب البحر بسرعة عجيبة ووصلت مينا (بورت سماوث) (١) فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى وقد احتفل الانكليز بابراهيم باشا عند نزوله الى البر احتفالا باهرا وكان فى انتظاره على المينا الاميرال (تشارلس أوجل) حكمدار المينا وجميع ضباط الحاميه ورئيس البلدية وقد عين الماجور (كولنو ودديكسن) من الطوبجية لمرافقته أثناء اقامته فى بلاد الانكليز وانما انتخب لتضلعه فى اللغة العربية وليستغنى سمو الامير به عن ترجمانه ثم توجه بصحبه الاميرال الى ديوان البحرية (أدميرالتى) وبعدان استراح برهة ركب سموه الى المنزل الذى أعد لاقامته وحاشيته

ولما وصل سموه حضر رئيس واعضاء البلدية بملابسهم الرسمية والتمسوا مقابلته فاذن لهم بذلك ولما استقر بهم الجلوس قام الرئيس وخطب خطبة هنأ بها جنابه بسلامة الوصول وشكر فيها والده على تسهيل التجارة بين انكلترا ومستعمراتها الهندية حتى فى أثناء الحرب بينها وبين مصر فتشكر له سموه بعبارة وجيزة عن هذه الزيارة وما قاله من المدح فى حق والده

وبعد أن أقام سموه يوما فى (بورت سماوث) سافر قاصدا مدينة (لندن) عاصمة بريطانيا العظمى فوصلها فى يوم ٨ يونيو سنة ١٨٤٦ قبل الظهر وتوجه توا الى (أوتيل ميفار) الذى كان استاجره سموه لاقامته مع حاشيته وفى الساعة الثانية بعد الظهر حضر اللورد (ابردين) وزير الخارجية وقابله مقابلة سرية استمرت مدة طويلة لم يعلم ما قيل فى خلالها ثم زار سموه الكولونيل (كلمبيل) الذى كان قنصلا فى مصر ثم حضر السير (روبرت بيل)

---

(١) هى أعظم مين انكلترا وواقعة على بحر المانش وبها ترسانات مهمة وحياض متسعة لتعمير المراكب الحربية ويقال ان مينها تسع كافة سفن انكلترا الحربية وبها مدرسة بحرية ويبلغ عدد سكان هذه المدينة زهاء مائة ألف أغلبهم من عائلات النوتية وكانت تعرف عند الرومانيين بالمينا الكبرى (بورتوس مجنوس)

الوزير الاول والدوك (دى ولنجتون) قاهر (نابليون الاول) فى واقعة (وترلو) والبرنس (جورج دى كامبردج) وأخيرا الكومودور (سيرتشارلس نابير) الذى اشتهر بضربه سواحل الشام كامر وقيد الكل اسماءهم فى دفتر المقابلات لان سمو الامير ابراهيم باشا لم يمكنه مقابلتهم نظرا لما تحمله من مشاق الاسفار

وفى اليوم التالى الموافق ٩ منه ذهب سموه وضباطه الى سراى (بوكنهام) لمقابلة البرنس البرت (١) زوج جلالة الملكة فيكتوريا وجريا على ماهو متبع فى المقابلات الانجليزية لم يؤذن بالدخول مع ابراهيم باشا لمقابلة البرنس البرت لاحد من الضباط المصريين لكن بطريق الاستثناء أذن لسليمان باشا بذلك فقابلهما البرنس بكل بشاشة وترحاب وهنأ سمو الامير ابراهيم باشا على وصوله وتمنى استمرار علائق المحبة والمودة بين الحكومتين الانكليزية والمصرية وبعد انتهاء المقابلة ذهب الاميران معا الى ميدان (سانت جمس بارك) لحضوره استعراض الجند فوجدا بالباب الدوك (ولنجتون) وأركان حربه فقدمهم البرنس البرت الى ابراهيم باشا وسليمان باشا ثم توجه الجميع بين صفوف الاهالى الى محل الاستعراض وكان الامير ابراهيم باشا يستجلب انظار الحاضرين بكسوته الارجوانية المزركشة بالذهب ونيشان (اللجيون دونور) وبعد انتهاء الاستعراض عاد الاميران الى سراى (بوكنهام) والمتفرجون يصفقون سرورا واحتفالا الى ان وصلا الى السراى فعاد ابراهيم باشا الى الفندق

وفى يوم ١١ منه توجه سموه لحضور الاحتفال المعد لتوزيع الجوائز على كل من حاز قصب السبق فى ميدان الفنون اللطيفة وبعد عودته قدم له سليمان باشا المسيو (أوكونلى)

(١) ولد هذا البرنس سنة ١٨١٩ وهو ابن البرنس ارنست دوك سكس كوبور وتهذب فى المانيا ثم تزوجته الملكة فكتوريا سنة ١٨٤٠ ورزقت منه ثمانية أولاد ولم تداخل قط فى الاعمال السياسية بل اجتهد فى استمالة الاهالى اليه بمساعدته كافة المشروعات الاهلية وحمايته لارباب الفنون والصنائع ثم منحه البرلمان الجنسية الانكليزية وتعين فلد مارشالا وعضوا فى المجلس المخصوصى وتوفى سنة ١٨٦١ مأسوفا عليه من أهله وذويه وجميع من عرفه

زعيم الارلانديين (١) وبعد أن زارا كثيرا من اللوردات ووزراء الدولة الانكليزية سافر من لندن فى الساعة الخامسة من ظهر ذلك اليوم قاصدا (برمنهام) و (منشستر) وغيرهما من المدن الصناعية أو التجارية للبحث عن أسباب ثروة الامة الانكليزية وادخال بعض هذه الصنائع لمصر خصوصا ماتوجد فيها مادته الاصلية مثل القطن والحرير وغيرهما

ولا حاجة لنا بذكر تطوافه سموه بالتطويل خوفا من الاطالة ويكفينا أن نقول انه ساح كافة بلاد بريطانيا واسكوتلاندا وارلاندا الشهيرة ثم عاد الى لوندرة فى اليوم الخامس من شهر يوليو سنة ١٨٤٦ وبعد أن قضى يومه وليلته فى الاستراحة خرج مع بعض حاشيته وطاف خفية فى أهم شوارع المدينة ثم الحارات التى يسكنها الفقراء وتعجب من وجود كثير من الفقراء فى ضنك شديد بين افراد هذه الامة التى بلغت أعلى الثروة وأعلى الغنى يسكنون أماكن لا تليق بسكنى البهائم مع وجود القصور الباذخة بجوارها مما يزيد فى اظهار حقارة هذه المساكن الرثة وعند عودته وجد العربات الملوكية فى انتظاره لتتوجه الى سراى بوكنهام لمقابلة جلالة الملكة فكتوريا فذهب توا الى السراى وقابل الملكة مقابلة خصوصية استمرت ساعتين من الزمن ثم عاد ثانيا الى السراى فى نحو الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم (٦ يوليو سنة ٤٦) لتناول العشاء على المائدة الملوكية فكانت الملكة تلاطفه فى أثناء الطعام وتسأله عن صحة والده وعن حالة بلاده وتشكره على مساعدة حكومته للتجارة الانكليزية وتمنت دوام المحبة بين حكومتها والحكومة المصرية

وفى صبيحة اليوم السابع سافر من طريق نهر التمس الذى يمر بمدينة لوندرة الى مدينة (جرينويتش) حيث زار المستشفى البحرى المقام هناك لاقامة من يصاب من البحارة

(١) ولد هذا الرجل الشهير سنة ١٧٧٥ من عائلة عظيمة وتعلم فن المحاماة وقبل محاميا سنة ١٧٩٨ فذاع صيته ودخل فى الجمعيات الساعية فى تحرير ارلاندة وطنه وفى سنة ١٨٢٨ انتخب عضوا فى مجلس العموم ولكنه لم يقبل لعدم قبوله أداء اليمين القانونى لمخالفته لمذهبه الكاثوليكى ولم يدخل مجلس العموم الا فى سنة ١٨٣٠ بعد ما تغيرت صورة اليمين واشتهر بعد ذلك بخطاباته وكتاباته طالبا الفصل ارلاندة من الحكومة الانجليزية وتوفى سنة ١٨٤٧

الانكليزية

الانكليزية بعاهات تمنعه عن الاكتساب وكان تأسيس هذا المستشفى فى سنة ١٦٩٦ وهو أشبه شئ بسراى الانفاليد بفرنسا التى مرت الاشارة اليها

وفى مساء ذلك اليوم أعدت له شركة الهند الشرقية (١) مأدبة فاخرة قام فى ختامها أحد أعضائها وشكر الحكومة المصرية على مساعدة هذه الشركة فى جميع أعمالها وفى يوم ١١ يوليو صنع حاكم مدينة لندن (اللورد مايور) مأدبة عظيمة لابراهيم باشا فى دار الحكومة (مانسن هوس) ودعا اليها نخبة رجال الحكومة وكان من جملتهم اللورد جون رسل فالقى فى ختام المأدبة خطابا مطولا أبان فيه ما يعود على مصر من مصافاة انكلترا واتخاذها خليلة

وفى يوم ١٣ أولم لسموه اللورد بالمرستون وكان المدعوون قليلين وقابل اللورد سموه من الباب كما قابله اللورد مايور وفى انتهاء الوليمة قال اللورد بالمرستون مقالة أنيقة لم يخرج فيها عن موضوع خطاب اللورد جون رسل

(عودة ابراهيم باشا الى مصر) وكانت هذه الوليمة خاتمة الاحتفالات التى أقيمت فى بلاد الانكليز اكراما للامير ابراهيم باشا وحاشيته ففى الساعة السابعة ونصف من صباح يوم ١٤ منه قصد سموه محطة السكة الحديدية بين صفوف المودعين وبعد أن قام له بواجب الوداع كل من حضر وخصوصا القائم بأشغال الدولة العلية المدعو اديب افندى سافر سموه على القطار البخارى الى فرضة (جسبرت) فوصلها فى نحو الساعة الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم ثم ركب الباخرة الانكليزية (الفنجز) وسافر توا الى بوغاز جبل طارق قاصدا العودة الى وطنه بحرا وكان معه كثير من العمال الانكليز الماهرين فى صناعة الاقمشة القطنية لاستخدامهم فى الفابريقات التى انشأها والده فى مصر ومقدار عظيم من الآلات

(١) أسس هذه الشركة بعض تجار لندن سنة ١٥٦٠ قصد تبادل التجارة مع البلاد الهندية وفى سنة ١٦٣٤ منحها البارلمان الانكليزى حق احتكار التجارة فى هذه البلاد ثم ابطله كلية فى سنة ١٨٣٣ وبعد ذلك استحالت هذه الشركة من تجارية الى سياسية واشتغلت بادارة البلاد الواسعة التى فتحتها ادارة مستقلة تحت حماية ومراقبة الحكومة الانكليزية واشتغلت من ثم فى فتح ما بقى من هذه البلاد ففتحتها حتى جبال (هملايا) وفتحت جزأ غير قليل من بلاد الهند الصينية ثم الغيت هذه الشركة سنة ١٨٥٨ عقب ثورة الجنود المؤلفة من سكان البلاد وصارت من ذلك العهد تابعة للحكومة الانكليزية كباقى المستعمرات

الميكانيكية وعدد وافر من الطيور الداجنة كان اشتراها من جمعية التمدن الحيوانية لاستكثارها فى القطر المصرى

ولما وصل سموه أمام مدينة لسبون (اشبونه) عاصمة البرتغال أراد أن ينزل الى البر لمشاهدة المدينة وزيارة ملكها وكان ذلك فى ٢٣ يوليو سنة ١٨٤٦ لكن لمناسبة وضع الملكة غلاما واقامة صلاة احتفالية فى كنيسة لسبون الكاتدرائية لم يتيسر للامير ابراهيم باشا مقابلته فى سرايته لانه كان توجه الى الكنيسة لحضور الاحتفال فتوجه الامير اليه هنالك للتفرج ثم ركب البحر وسار الى جبل طارق ورساقليلا امام كادكس (قادس) باسبانيا وبالبوغاز ثم استمر فى سيره الى أن وصل جزيرة مالطة (١) فحيته الحامية الانكليزية باطلاق مدافعها من قلاعها ومن سائر السفن الراسية فى المينا وفى الساعة التاسعة من صبح اليوم الخامس من شهر أغسطس سنة ١٨٤٦ رست السفينة المقلة لجنابه فى مينا الاسكندرية فقابله أخوه سعيد باشا الذى كان وقتئذ حاكم المدينة وجميع القناصل ومأمورو الحكومة وزينت المدينة اجلالا لجنابه السامى ثم فى اليوم التالى سافر الى القاهرة على طريق النيل فوصلها متمتعا بالصحة التامة متفكرا فيما رآه فى سياحته من عجائب الامور وفيما يمكن ادخاله فى مصر من الصنائع والفنون لاستغنائها عن واردات أوربا وزيادة ترفاهية سكانها

هذا ولم يكن والده محمد على باشا بمصر حين عودته بل كان قد توجه الى القسطنطينية فى شهر يوليو من هذه السنة ليقوم بواجب العبودية الى سدة الخلافة العظمى وليظهر لاوربا أنه مازال محافظا على الولاء لجلالة السلطان الاعظم أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وليزيل ما كمن فى صدور أكابر الدولة ووزرائها من الكراهة والبغض له

---

(١) هذه الجزيرة صغيرة لا يزيد طولها عن ٢٨ كيلومترا ويبلغ عرضها ١٦ كيلومترا وهى ذات أهمية عظيمة حربية من الدرجة القصوى لوقوعها فى منتصف البحر المتوسط بين جبل طارق والاسكندرية ولاهمية مركزها تنازعتها الامم من فينيقيين وقرطاجيين وعرب وغيرهم الى ان وهبها شارلكان امبراطور ألمانيا وملك اسبانيا فى القرن السادس عشر لاحدى طوائف الرهبان المعروفة بشفالية مالطة وبقيت معهم الى سنة ١٧٩٨ فاحتلها بونابرت اثناء مجيئه الى مصر ثم دخلها الانكليز سنة ١٨٠٠ وثبت تملكهم لها بمعاهدة فيينا سنة ١٨١٥ ولم تزل تابعة لهم الى الآن وقد حصنوها حتى صارت من أهم نقطهم الحربية الواقعة على طريق الهند

ثم عاد منها بالتصية والاقبال فى صبح ٤ أغسطس سنة ١٨٤٦ الى الاسكندرية وأطلق من قلاعها مائة مدفع وواحد ايذانا بوصول سمو أمير البلاد وممدن العباد

ولما عاد ابراهيم باشا الى مصر عاده المرض واشتد عليه وهو مرض الاسهال (الدوسنتاريا) فامره الاطباء بالسفر الى جزيرة مالطة ومنها الى شواطئ ايطاليا الشهيرة بجودة الهواء فسافر فى شهر اكتوبر سنة ١٨٤٧ وبارح الاسكندرية فى ٩ منه

(وفاة ابراهيم باشا ووالده) وفى أثناء هذه المدة ظهرت على محمد على باشا علامات الهرم وضعفت قواه الجسمية والعقلية فأشارت عليه الاطباء أيضا بالسفر خارج القطر لترويح النفس ولاستراحته من أتعاب الادارة وأوصاب الحكومة فأذعن لمشورتهم وسافر من الاسكندرية فى أوائل فبراير سنة ١٨٤٨ قاصدا جزيرة مالطة فأحسن الحاكم الانكليزى مقابلته وأكرم وفادته وسافر منها قاصدا مدينة نابولى حيث كان هنالك ولده ابراهيم باشا وفيها وصل اليه خبر ثورة أهالى فرنسا على ملكهم لويز فيليب وعزلهم اياه ومناداتهم بالجمهورية فحزن لذلك محمد على باشا لما كان بينهما من علائق المودة والمحبة وثقل عليه المرض وازدادت قواه العقلية ضعفا حتى التزم الاطباء المرافقون له بارجاعه الى الاسكندرية فوصلها فى أواخر شهر مارث سنة ١٨٤٨ وتبعه ولده ابراهيم باشا فاقام والده بسراى رأس التين ومعه أحذق الاطباء وعاد هو الى مصر وعقد ديوانا تحت رياسته لادارة أحوال الحكومة مدة مرض والده وأرسل بذلك الى دار الخلافة فورد فى منتصف شهر يوليو سنة ١٨٤٨ مندوب يدعى مظلوم بيك من قبل الخليفة الاعظم ومعه أمر بتولية ابراهيم باشا مكان والده الى ان يشفى فلم يحتفل احتفالا كليا بهذا المندوب لمرض أبيه وانتشار الوباء فى أنحاء القطر وفى أواخر شهر يوليو سنة ١٨٤٨ سافر ابراهيم باشا مع هذا المندوب الى القسطنطينية للمثول بين يدى الحضرة السلطانية واستلام فرمان التولية من يدها الشريفة وكان سفر سموه الى جزيرة رودس على احدى الدوارع المصرية تخفره الدونانمة المصرية بتمامها ومنها ركب سفينة عثمانية كانت فى انتظاره فوصل الى اسلامبول فى ٢٥ أغسطس وتشرف بالمثول لدى السدة العلية ونال منها كل رعاية والتفات لكنه لم يلبث أن عاوده المرض فأسرع بالرجوع الى مصر اتباعا لمشورة الاطباء فسافر من

القسطنطينية فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٤٨ على احدى السفن العثمانية فأوصلته الى جزيرة رودس وكان فى انتظاره السفينة المصرية (بنى سويف) فركبها ووصل ثغر الاسكندرية فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٤٨ وكانت قد خفت وطأة الوباء بعد أن أهلك عددا عظيما من الاهالى وبعد أن زار والده فى سراى رأس التين عاد الى القاهرة وجمع بالقلعة ديوانا عظيما من علماء البلاد وأعيانها وقناصل الدول وتلا الفرمان العلى الشان المؤذن بتوليته على أريكة الحكومة المصرية وأطلقت المدافع ايذانا بذلك واستبشارا بها هنالك واستمر سموه قابضا على أزمة الحكومة والاحكام الى أن اخترمته المنون فى ليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ وكانت ولادته فى مدينة قوله سنة ١٧٨٩ فتولى بعده عباس باشا ابن أخيه طوسون باشا وكانت وفاة محمد على باشا فى يوم ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ عن ثمانين سنة قضاها فى تحسين القطر المصرى وتخليصه من أعدائه المماليك وفتح الكثير من البلاد واجراء الاصلاحات مثل فتح المدارس وانشاء الترع والجسور وتأسيس الورش والفابريقات فمات رحمه الله مأسوفا عليه من كل مصرى حر النزعة وسنأتى فى الباب التالى على بيان مافعله من الاصلاحات بدون اختصار مخل ولا تطويل ممل ليطلع القراء على هذا الشهم العظيم من الايادى البيضاء على وطننا العزيز الذى كان مضغة فى أفواه المماليك يستنزفون ثروته ويضعفون قوته بفعلهم مالاخير فيه مما أتينا فى صدر هذا الكتاب على بعضه لان استقصاء ماارتكبوه فى مصر من المظالم والمحرمات يستلزم المجلدات الضخمة بل يتعسر حصره فعلى من يريد الوقوف على أعمالهم أن يطالع الكتب المطولة فى فن التاريخ فانها كثيرة لاتحصى وأسماؤها لاتستقصى

(خاتمة)

(فيما فعله محمد على باشا من الاصلاحات والتأسيسات)

ان أول ماشرع فيه محمد على باشا رحمه الله بمدّن مصر من الاصلاحات ليعيد اليها مجدها الاثيل تأسيس المدارس لبث العلوم والمعارف بين المصريين الذين هجر وطنهم العلم فأخذ العزيز فى احياء المدارس بعدأن كانت فيها دوارس وأعاد العلوم الى وطنها ومرباها لبستضاء بمسراها فأسس مدرسة الطب بأبى زعبل بناء على طلب الدكتور كلوت بيك الفرنساوى سنة ١٢٤٢ هجرية وأتى لها بالاساتذة من البلاد الاوربا وية وذلك ان كلوت بيك أظهر لمحمد على باشا احتياج البلاد لتأسيس هذه المدرسة لتستغنى عن الاطباء الاجانب ولو جدبمصر أطباء كافية للجيوش البرية والبحرية وقدم له بذلك تقريرا ضافيا قال فى آخره يجب أن يكون بمصر مدرسة طبية تكون تلامذتها من الوطنيين المخلصين الذين يغارون على بلادهم ويحبون تقدم وطنهم وارتقائه فى سلم التمدن والعمران ويتوصل لذلك بانشاء اسبتالية عمومية يتعلم فيها مائة وخمسون شابا ممن لهم المام بمعرفة اللغة العربية قراءة وكتابة ومبادى الحساب ويلزم ان تدرس لهم اللغة الفرنساوية وانواع الطب بفروعه سيما الجراحة وتكون مدة الدراسة أربع سنوات يختبر التلامذة فى آخر كل سنة منها فسر الباشا من هذا المشروع وأصدر أوامره بتأسيسه وجعلها تحت رياسة كلوت بيك

وجعل أيضا مدرسة للطب البيطرى وولى رياستها للموسيو هامون الفرنساوى ومدرسة المهندسخانة ورئيسها (لامبير بيك) الفرنساوى ومدرسة للموسيقى وأخرى لتعليم الصنائع والفنون وهذا كله غير المدارس الابتدائية والتجهيزية التى أنشئت فى أنحاء القطر المصرى ومدرسة الالسن بناء على طلب العالم الفاضل رفاعة بيك فقد جاء فى الخطط المصرية لعلى باشا مبارك فى ترجمة البيك المذكور مانصه

عرض رفاعة بيك للجناب العالى انه فى امكانه أن يؤسس مدرسة لتعلم اللغات الاوروباوية ويمكن ان ينتفع بها الوطن ويستغنى عن الدخيل فأجابه الى ذلك ووجهه الى مكاتب الاقاليم لينتخب منها من التلامذة ما يتم به المشروع فأسس المدرسة وفى المدة المعينة

امتحنت التلامذة فى اللغة الفرنساوية وغيرها من العلوم المدرسية فظهرت نجابة التلامذة ثم شكل بها قلم ترجمة ترجم فيه كثير من الكتب وكان بهذه المدرسة قسم تجهيزى خاص وهو أيضا تحت رياسته وكان معلموها من تلامذة مدرسة الالسن فنبغ منها رجال بارعون فى الانشاآت العربية نظما ونثرا وفى العلوم العربية كذلك ثم ألغيت هذه المدرسة مع غيرها من المدارس فى مدة المرحوم عباس باشا اه

وانشأ أيضا مدرسة لتعليم الزراعة العلمية والعملية ببلدة قديمة تدعى (نَبَرُوه) من مديرية الغربية وأتى لها من البلاد الاوروباوية بالمعلمين وآلات الفلاحة المستعملة فى بلادهم وجعل فيها من شبان المصريين ٤٠ تلميذا لدراسة فن الزراعة الذى عليه مدار الثروة فى سائر البلاد واتقان هذا الفن النفيس علما وعملا وكذا صناعة استخراج السمن والجبن من اللبن واعتنى العزيز بتلك المدرسة وذهب اليها بنفسه وكان يود نجاحها لكن الاهالى والحكام كانوا لا يرغبون فى هذه الاصلاحات وينسبون اليها عدم الفائدة وانها لا تساوى ما يصرف عليها ومع ذلك لم يحصل لهمته فتور حتى كثر اللغط بزيادة مصاريفها وعدم ظهور نتيجة منها ولما رأى ناظرها المسيو (جران جان) عدم رضا الاهالى عنها استقال من وظيفته وخلفه فيها شخص أرمنى تربى فى فرنسا فتبع أهواء الاهالى وعوائد المزارعين فاضمحلت المدرسة بالكلية وكان ذلك داعيا الى نقلها الى شبرى الخيمة لتكون تحت نظر الموسيو (هامون) ناظر المدرسة البيطرية فاجتهد فى ترتيبها واتقان التعليم فيها على أسلوب المدارس الفرنساوية لكن لم يمتنع المعارضون عن معارضته ولم ينتظروا حسن النتيجة فاضمحل حالها ودرس أمرها ولم تأت بالثمرة المطلوبة

وأسس أيضا المدارس الحربية منها مدرسة المشاة (بيادة) وكانت بمدينة دمياط ومدرسة الخيالة بسراى مراد بك الكبير ورئيسها المسيو (فاران) من ضباط الجيش الفرنساوى ومدرسة الطوبجية بمدينة (طره) بالقرب من القاهرة ومؤسسها الكولونيل (سيجيرا) الاسبانيولى

ولم يكتف العزيز بانشاء المدارس فى كافة انحاء القطر المصرى وتأسيس المدارس العلية بالعاصمة بل لعلمه أنه يكون بهذه الطريقة دائما محتاجا للمعلمين من الاجانب مادام لم يكن لديه

من

من المصريين من يقوم مقامهم في المستقبل فتكون مصر بسبب ذلك ملزمة باستخدام الاجانب في حكومتها اضطر الى ارسال عدد عظيم من شبان المصريين الى أوروبا عموما وباريس خصوصا لتلقى العلوم بها لما اشتهرت به مدارسها من اتساع المعارف ودقة التعليم ولا يخفى ما كان في ذلك من مخالفة عوائد الاهالى الذين لم يفقهوا ولم يعلموا ما ينجم عن هذا المشروع من تقدم وطنهم بالنفع العميم فأخذوا يندبون حظ أولادهم الذين ساعدهم الحظ الاوفر بدخولهم في جملة من اختير للسفر وصاروا يستعملون كل الوسائط لحرمان أولادهم من ثمرة التعلم والتعليم لكن لم يفد بكاؤهم ولا تصايحهم شيأ بل صمم العزيز على اخراج مشروعه من حيز الفكر الى حيز العمل مراعيا في ذلك منفعة البلاد والعباد متيقنا أنهم يكونون عونا له ولمن يسمو أريكة الولاية من بعده على الاصلاح والتقدم في سبل الفلاح بقلب ثابت وعزم شديد

فأرسل في أوائل سنة ١٨٢٦ أربعين تلميذا وفتحت لهم مدرسة خصوصية عهدت ادارتها الى المعلم الشهير الموسيو (جومار) فقام بما عهد اليه خير قيام ورتبها ونظم دروسها وعين لها مهرة الاساتذة وخص كل واحد من التلامذة بفن معلوم لشدة اتقانه فقد جاء في كتاب الموسيو (هامون) نقلا عن تقرير تقدم من الموسيو (جومار) الى محمد على باشا سنة ١٨٢٨ أنه خصص من التلامذة اثنين للعلوم السياسية وكان يدرس لهم قانون حقوق الملل والاقتصاد السياسى وأكثر اللغات الاوروباوية المستعملة في السياسة ويسوحون بلاد أوروبا للوقوف على عوائد أهلها ونظاماتها الداخلية والخارجية وحالتها الاقتصادية وأربعة للادارة العسكرية وثلاثة للبحرية يدرسون العلوم الهندسية للدخول في احدى المدارس الحربية أو البحرية وثلاثة أيضا للعلوم الميكانيكية يتعلمون الهندسة العملية ويتدربون في المعامل والفابريقات ويتعودون على بعض الاشغال اليدوية وكذلك فرقة لفن الطوبجية والاستحكامات وخص منهم عددا عظيما لدراسة الكيمياء الصناعية لاسيما ما يتعلق بالصباغة وعمل الزجاج والقيشانى وصناعة السكر ليكونوا مدربين على المعامل التى أنشئت بمصر كما خص فريقا لصناعة الطبع والرسم والحفر في الحجر والخشب لأعمال الخرط الجغرافية والرسومات اللازمة للكتب العلمية وبعضهم للزراعة العملية التى هى من أهم

العلوم والفنون بالنسبة لمصر واتساع أرضها وخصوبتها وكانوا يبحثون عما يمكن ادخاله في القطر المصري من الاشياء التي توافق تربتها من أنواع الثمار ويشتغلون أيضا بالتاريخ الطبيعي وقليل من علم البيطرة ومنهم من تخصص لدرس المعادن وكيفية استخراجها وذلك للبحث عما عساه يوجد بمصر من المعادن وخصوصا الفحم الحجري والحديد حيث كان محمد على باشا باذلا جهده في استكشافهما في مصر لعلمه أنهما روح الصناعة والتجارة والملاحة وبهما تقدمت الامة الانكليزية عن غيرها من الامم وصارت مالكة البحار

ثم في سنة ١٨٣٢ أرسل أيضا الى باريس ١٢ تلميذا من مدرسة الطب لاتمام دروسهم وأرسل غيرهم الى أن بلغ عدد من أرسل من المصريين الى سنة ١٨٤٢ مائة تلميذ

ثم أنشأ العزيز للوازم الخيالة وتحسين نوع الخيل في القطر المصري اصطبلات لتربية الخيول واستنتاجها وقد قال الموسيو (هامون) الذي كان ناظرا على مدرسة البيطرة والاصطبلات في زمن المغفور له محمد على باشا في كتابه الذي ألفه على مصر انه لما ولى العزيز على مصر لم يكن بها من الخيل الا القليل الغير الكافي بحاجات الزراعة والجند لكن لما اجتهد رحمه الله في شأن انماء الزراعة وتوسيع نطاقها والاخذ في تجنيد القدر العظيم من العساكر الخيالة جمع سعة عدة من جياد الخيل ذكورا واناثا وأنشأ لها اصطبلات بقرب القاهرة ثم نقلها بجوار سراية شبرى فلم تحصل الثمرة المقصودة بل كان نتاجها يموت أو يتعب من كثرة الامراض ولما كان المسيو (هامون) المذكور ناظرا على مدرسة البيطرة بابى زعبل أمره العزيز بالتوجه الى اصطبلات شبرى وتفقدها وتحرير تقرير عما يراه لازما لها من الاصلاحات حتى تأتى بالنتيجة التي أنشئت لاجلها فتفقدها وقدم للعزيز تقريرا بما رآه لازما لها من التحسينات فكلفه الباشا باجراء كل ما يجده موجبا لنجاحها فتولى ادارتها وبنى لها محلات جديدة مستكملة للشروط الصحية ورتب لها كافة ما يلزم لها من المآكل والمشارب فنجحت وكثر عدد خيولها وأنشأ اصطبلا آخر بقرب (نبروه) ثم لما رأى الاعيان والامراء وأعضاء عائلة الباشا رغبته في تكثير الخيل واعتنائه بامرها رغبوا فيها وأكثروا من اقتنائها وتنافسوا في تخيرها فمنهم ابراهيم باشا السرعسكر كان له اصطبلات بجوار قصر النيل وفيها أربعمائة فرس تقريبا جميعها من الصافنات الجياد وكذا كان لعباس باشا

اصطبلات بالقرب من المطرية أغلبها من كرائم خيل العرب وكذا كان عند كثير من الامراء والاعيان اصطبلات وفيها خيول جيدة فكان لاحد باشا يكن اصطبل فيه نحو ثلاثين فرسا وأيضا لما كان ابراهيم باشا ببلاد الشأم أرسل الى مصر العدد الكثير من اناث الخيل الشامية ففرقت في البلاد المصرية وكذلك انشأ للوازم الجيش عموما معامل لصناعة البارود والبنادق وسبك آلات المدافع وعمل الاحذية والملابس الضرورية للجيش حتى أصبح جميع لوازم الجندى من سلاح ولباس يصنع بالقطر المصرى على نفقة الحكومة تحت ملاحظة الاوروباويين الذين استخدموا لهذه الغاية الجليلة

ولم يكن اهتمام العزيز محمد على باشا بالبحرية أقل من اهتمامه بالعساكر البرية فانشأ بمينا الاسكندرية ترسانات لصناعة السفن التجارية والحربية وكان الرئيس عليها رجلا وطنيا يقال له الحاج عمر وكان من الحذاق النباهة على جانب عظيم لكن لما دمرت أغلب السفن المصرية في واقعة ناوارين الحربية شرع العزيز في عمل دونانمة أخرى استحضر من فرنسا المهندس الحاذق الماهر الموسيو سريزيك لتعميق الترسانة ليكون بها من المياه ما يكفى لحمل السفن الكبيرة المزمع على انشائها ثم أخذ في تأسيس ورش مخصوصة لفتل الحبال وصناعة الحديد وعمل الصوارى والقلوع وكافة ما يلزم للسفن وفي أثناء هذه الاعمال جمع من جهات الارياف العدد الكافى من شبان الاهالى لتعلم هذه الصنائع تحت مراقبة معلمين من البلاد الاجنبية فاختص كل فريق بفرع من فروع مصالح السفن حتى أتقنها

وكانت نتيجة ذلك اتمام عدة سفن في أقرب وقت بين حربية وتجارية مع الاتقان بحيث انها عادلت أحسن السفن الاوروباوية واستغنت الحكومة بذلك عن شراء سفن من الخارج ثم كانت الحكومة تشترى كافة ما يلزم لها من حديد وأخشاب من البلاد الاجنبية بأثمان فاحشة لعدم وجودها في بلاد مصر وشدة الاحتياج اليها

ولم يكن ذلك داعيا الفتور همة محمد على باشا بل استمر على انشاء السفن بمصر ولم يصغ لكلام التجار الذين كانوا دائما يثبطونه عن انشائها ويبدونه ما لا مزيد عليه من الصعوبات وكثرة المصاريف ويدخلون عليه بكل حيلة لينثني عزمه عن هذه الوجهة الشريفة المبدا

والغاية وصارت بذلك الدونانمة المصرية تعادل أو تفوق دونانمة الدولة العلية وأحسن السفن الحربية المصرية السفينة المسماة بالمحلة الكبرى والمنصورة والاسكندرية وكل منها يحمل مائة مدفع وأما مصر وعكا فانهما يحملان ٩٨ مدفعا هذا سوى السفن الصغيرة التي تقل حمولتها عن هذا المقدار وكان عدد من بها من الجند والبحرية نيفا وخمسة عشر ألفا بخلاف الصانعين بالترسانة وكان عددهم لا ينقص عن ٤٠٠٠ وبالجملة فقد بلغت مصر في مدة درجة لم تبلغها قط منذ ولاية الرومانيين عليها فكانت قوتها البرية والبحرية على ما جاء في كتاب كلوت بيك تزيد عن ٢٧٦ ألف جندي منها ١٣٠ ألفا من الجنود المنتظمة و ٤١ ألفا من الباشي بوزوق و ١٩ ألفا وخمسمائة من البحرية والباقي من عساكر الرديف وتلامذة المدارس الحربية

وغير ذلك كان له اعتناء كلي بانشاء الاستحكامات اللازمة لحفظ سواحل مصر من اغارة الاجانب عليها كما حصل في سنة ١٨٠٧ فأحضر لذلك المهندسين الحربيين من الاجانب وكلفهم باختيار المواقع المهمة من جميع السواحل المصرية اللازمة لانشاء استحكامات بها فأسست طبق رغبته العلية وأحضر لها المدافع اللازمة وعين لحفظها العساكر الكافية فتحصنت بذلك مصر وازدادت قوتها أضعافا حتى قاومت الدولة العلية وبذلك انتصرت مرارا على غيرها كما سبق ذكر ذلك في محله وزيادة على ذلك مال كثير من قواد الدولة العلية للانحياز الى مصر لما شاهدوا في عزيزها من الكفاءة والقدرة على أجل الاعمال وأنفعها وسلم أحمد باشا فوزي قبودان الدونانمة الشاهانية دونانمته اليه بما فيها من الجند وكانت مركبة من ٩ سفن كبيرة وستة عشر سفينة صغيرة تحمل ستة عشر ألفا من الجند البحريين و ٥ آلاف جندي بري فبذلك يظهر جليا أن الديار المصرية اكتسبت بحسن تدبير عزيزها قوة يمكنها بها أن تقاوم أكثر من دولة حتى اضطرت الدول ليأمنوا على أنفسهم من صولة الديار المصرية أن يتعاهد بعضهم مع بعض بارجاع مصر الى حدودها الاصلية كما رأيت في هذا الكتاب وفي ذلك أكبر شاهد على قوة فكر العزيز وسعة عقله وعلو همته ومكانة شهامته وحسن تدبيره

ومن انشاآت محمد علي أيضا فابريقات الغزل ونسيج القطن والحرير والكتان والصوف

فكان للقطن خاصة ١٨ فابريقة وكانت فى أهم مدن القطر كالمنصورة ودمياط ورشيد اذ كان ينسج فيها قلوع السفن والمحلة الكبرى وشبين الكوم وقليوب وزفتى وميت غمر فى الوجه البحرى وبنى سويف وأسيوط وبهما أكبر فابريقات الصعيد ثم فى المنيا وفرشوط وطهطا وجرجا وقنا بالوجه القبلى وأكبر الفوريقات فوريقة بولاق مصر التى كانت تسمى بفوريقة مالطة لكثرة وجود المالطية بها وكان رئيسها المسيو (جوميل) الفرنساوى الذى اجتهد فى نشر زراعة القطن فى القطر المصرى وأقدمها فوريقة الخورنفش بمصر التى أنشئت سنة ١٨١٦ م وأنشأ العزيز عدة فوريقات أخر لغزل الكتان وأنشأ أيضا المبيضة بين بولاق وشبرى لتبييض مقاطع الكتان وبصم أقمشة الشيت وكان يصنع بها أيضا المناديل فترغبها النساء كثيرا وفيها أيضا أنوال لنسيج الحرير وقد جعل بها ٣٠٠ نولا لنسيج المقصب وغيره وأحضر لها صناعا من اسلامبول فأتقنت صنعته وصار ما ينسج بمصر يضاهى فى الرقة وحسن الصنعة ما يصنع فى بلاد الهند ونحوها وانشأ بالقاهرة فوريقة لفتل حبال المراكب وغيرها من النيل وقد كان هذا النبات مفقودا من مصر فأوجده بها وأنشأ فى بولاق فوريقة الجوخ أحضر لها فى مبدا الامر رجالا فرنساويين لادارة وهامدة وتربى تحت أيديهم جماعة من شبان المصريين ولم يكتف محمد على باشا بذلك بل أرسل جملة من الشبان الى فوريقات سيدان وليون من أعمال فرنسا المشهورة بصناعة الجوخ فتعلموا تلك الصنعة وأتقنوها ثم عادوا الى مصر واستخدموا بفوريقة بولاق فحسن الجوخ وصار يستعمل فى ملبوس العساكر وكان ينسج بها أيضا أحزمة ومصاجيد للزوم العسكر ثم أنشئت فوريقة بمدينة فوه لعمل الطربوش تحت ادارة رجل مغربى وجلبت لها الشغالة من تونس فنجحت حتى صار المتحصل يوميا ستين دوزينة .

ومن انشا آته فوريقات السكر بالصعيد فأنشأ واحدة فى الريرمون وأخرى بساقية موسى وأخرى بالروضة ومن ذلك ادخال زراعة النيلة بالقطر المصرى فجلب لها عددا من مزارعى بلاد الهند لتعليم الاهالى وانتشرت زراعتها بالبلاد وكان أغلب محصولها يستعمل فى المصابغ التى أنشأها بشبرى وغيرها من بلاد الوجه البحرى والقبلى وأنشأ أيضا معاصر الزيت فكان منها فى الوجه البحرى مائة وعشرون معصرة لعصر زيت الكتان والسمسم وفى

القاهرة أربعون لزيت القرطم وعدد عظيم فى الوجه القبلى لاستخراج زيت الخس خصوصا فى مديرية اسنا وأخرى لزيت السلجم فى اخميم وماجاورها

ولشدة اعتنائه رحمه الله باصلاح أحوال مصر ورفاهية أهلها لم يكتف بانشاء المعامل والفوريقات بل وجه اهتمامه لايجاد المواد الاصلية لهذه الصنائع بالبلاد المصرية فأمر بالاكثار من زراعة القطن والنيل والنيلة وكافة النباتات التى لها دخل فى الصناعة ثم عن له أن يدخل تربية دود القز الى الديار المصرية حتى تستغنى به البلاد عما يأتى لها من الشأم وغيرها فأمر بانشاء عدة سواق ووابورات بالمحل المعروف برأس الوادى (شرقية) وأن يزرع شجر التوت اللازم لتغذية الدود وذهب بنفسه الى هذا الاقليم للاسراع بانشاء السواقى واقامة الابنية اللازمة لسكن المعينين من الفلاحين لتعهد الاشجار بالسقى والخدمة فلم يمض الاقليل من الزمن حتى كان بها ألف ساقية وغرست أشجار التوت لتربية دود القز والحرير كما هو حاصل فى بلاد الشأم وجبل الدروز ثم استحضر العزيز من هذه الجهات كثيرا ممن لهم المام ودراية بتربية دود القز وصناعة الحرير وجمع لهم عددا وافرا من أهالى الشرقية الخالين عن العقار لتعليمهم وسكنوا فى كفور بنيت لهم وزين هذا الوادى بالسواقى والاشجار حتى صار آهلا بالسكنى بعد أن كان قفرا وعرا وفضاء متسعا

وقال كلوت بك فى كتابه على مصر ان جميع ماغرس من شجر بجهة الوادى يبلغ ثلاثة ملايين شجرة فى جهات متعددة تبلغ مساحتها عشرة آلاف فدان وكان مقدار الحرير المتحصل سنة ١٨٣٣ تسعة آلاف وتسعمائة وخمسة وسبعين أوقة وكان لذلك أماكن وخدم أتى بهم العزيز من الخارج وتعلم منهم الاهالى وبلغت دواليب الحرير مائتى دولاب ثم اضمحل ذلك بعده حتى كأن لم يكن ولا يستعمله الآن الا القليل من الاهالى اهـ

ثم أحضر رحمه الله من بلاد أوروبا عددا وافرا من أغنام أوروبا المعروفة بالمرينوس وذلك لتحسين جنس الاغنام المصرية وتحسين صوفها فان صوف الغنم المصرية على ما جاء فى كتاب هامون الفرنساوى بسبب طوله وخشونته وصلابته كان غير جيد لعمل الجوخ والطرابيش والثياب الرفيعة فكان العزيز يشترى سنويا من صوف غنم أوروبا بقيمة ثمانمائة ألف فرنك

ووزعت

ووزعت الاغنام الاروبية فى مديرية البحيرة وجعل لها مدير خاص بها وعين لها رعاة من العرب ولكن لقلة المرعى بهذه المديرية ووجود أغلبها على حافات الترع وفى مواطئ الارض الرطبة تولدت فيها الامراض ومع ذلك لم يكن لها مايقيها حرّ الصيف وبرد الشتاء حتى مات منها كثير ثم ذهبوا بها الى الصحراء لكثرة مرعاها عن غيرها فكان يتعلق الرمل بأصوافها وجلودها فيضر بصحتها وجودة صوفها فلذلك لم تحصل منها الثمرة المقصودة ثم كلف العزيز الموسيو هامون بالنظر فى أحوالها وترتيب مايوجب صحتها وتحسين صوفها واكثار نتاجها وأمره بتوزيعها الى المديريات البحرية بحيث لم يبق فى مديرية البحيرة الا ألف وخمسمائة رأس منها وصدرت أوامر أيضا ببناء مراحات بسبرباى ومحلة روح والمنصورة وغيرها فنظر الموسيو هامون فى أمرها وسنّ لها لائحة تتبع فى كل جهة وأهم مافيها أن عدد المراح الواحد لا يزيد على ألف ويكون له ناظر أورباوى وكاتب ليقيد مايموت وما يولد وجنس الذكر والانثى وأن يميز البطون بعضها عن بعض بعلامات تعرف بها كنتاج أول بطن يعلم بخرقة فى الاذن اليمنى ونتاج البطن الثانية فى اليسرى الى غير ذلك من العلامات

ولرغبته فى تحسين الاغنام فى كافة انحاء القطر من تلك الاغنام اشترى من العرب أربعة آلاف رأس وقدرها من الاهالى ووزع فى الجهات جملة من ذكور الاغنام المرينوس واستمر الحال على هذا المنوال وقد قال الموسيو هامون فى كتابه انه وجد منها فى القطر المصرى سنة ١٨٣٧ ميلادية سنة ١٢٥٣ هجرية ٧٥٤٨ رأسا ومع بذل الاجتهاد والاهتمام لم يتم غرض العزيز من تلك المصلحة لعدم قيام المستخدمين بما عينوا له على الوجه المطلوب فانه لم يحصل من صوفها بعد عشر سنين من تجزئتها الا نحو ستمائة أوقة مع كثرتها وكثرة مصاريفها ولم يستغن عن شراء الصوف من البلاد الخارجة ثم لم يزل حال الاغنام فى الاضمحلال حتى لم يكن منها الآن الا آثار قليلة فى بعض جهات الوجه البحرى اهـ

وأما اهتمام محمد على باشا بأمور الرى الذى عليه مدار الزراعة فى القطر المصرى فانه كان عظيما جدا ولا شك انه أدرك بقريحته الوقادة وفطنته النقادة ان مدار سعادة مصر بالاصالة هى الزراعة ولا يسوغ لها أن تتوقع ثروة الا اذا كان من محصولها الزراعى وأن

حياتها متعلقة بنيلها الا ان أرض مصر أقرب للتلف من غيرها اذهى تابعة للنيل وجودا وعدما فاذا أمحض النيل عنها اعينه سنة من السنين أوحجب عنها فيضانه الممزوج بالطمى الخصب الذى هو بالنسبة لارض مصر بمثابة السماد كانت السنة سنة جدب كما أنه اذا أغرقها بمائه الزائد عن الحاجة كان الضرر أعم والخطب أدهى وأهم وحسبك فى ذلك ماجاء فى القرآن الشريف فى سورة يوسف عليه السلام من ذكر سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف فالآية قد جاءت فى وصف مصر على وجه التحقيق وقوله تعالى فما حصدتم فذروه فى سنبله يرشد الى الاحتياط والاحتراس ولذلك كان حكام ملوك مصر يحتاطون فى سنى الخصب فلا يخرجون الزائد عنهم لغيرها من البلاد ويعتنون كل الاعتناء بحفظ مجرى النيل وتنظيم القناطر والجسور والترع والخلجان واستمر الحال كذلك حتى وقعت مصر فى قبضة المماليك فكانوا لا ينظرون لعمارتها بل يأخذون كل ماطاب لهم وراج فى كل عام حتى صارت مصر خرابا وأهمل أمر النيل وترعه حتى كانت الاراضى تفسد فى كل عام فى كثير من الاقاليم الى أن هجمت جيوش رمال البرارى على وادى النيل ولو بقى حكم ابراهيم بيك ومراد بيك عشرين سنة لفسدت جميع أرض مصر الزراعية ومن فيها ولما قيض الله لمصر المرحوم محمد على باشا أدرك أهمية النيل بالنسبة لمصر وأخذ فى احياء مواتها فوجه اهتمامه أولا الى ايصال الماء الى مدينة الاسكندرية لرى ما بينها وبين فرع رشيد من الاراضى

وصدرت أوامره السنية سنة ١٢٣٣ هجرية الموافقة سنة ١٨١٩ ميلادية بحفر ترعة المحمودية وأن تعمق حتى تجرى صيفا وشتاء وأن توسع بحيث يسهل لجميع سفن النيل منها الوصول الى المدينة بأنواع المحصولات فى زمن قريب بلا كبير مصرف ولا مشقة مع حصول تمام النفع للاهالى وحيواناتهم ومزروعاتهم وكانت قبل ذلك تجارات القطر لا تصل الى الاسكندرية الا من ثغر رشيد أو دمياط وذلك مستوجب لكثرة المصرف وزيادة المشقة جدا فان سفر البحر المالح لا يخلو عن الخطر وكانت لا تخلو سنة عن غرق بعض السفن والبضائع والآدميين ولاهميتها جمع لها عدد عظيم من الاهالى من جميع مديريات القطر حتى تمت فى أقرب وقت مع الابنية اللازمة لها وقد بلغ ماصرف عليها الى تمامها ٣٠٠ ألف

جنيه

جنيه على مانقله كلوت بيك وهذا بالنسبة لما ترتب عليها من المنافع شئ يسير كما هو مشاهد وجعل فمها عند ناحية العطف وكان ذلك سببا فى اتساع عمارة تلك الناحية وكثرة خيراتها اذ كانت مرسى للسفن التجارية وجعل مصبها بالقرب من الاسكندرية وقد حصل منها منافع جمة وفوائد عديدة كاحياء غالب الاراضى التى بجوانبها من العطف الى الثغر بعد أن كانت ميتة غير صالحة للزراعة ولما اتسع نطاق الزراعة بسببها اتضح عدم كفاية مياه المحمودية بجميعها واحتيج الى تركيب وابورات العطف ثم انه عند تمام حفرها جعل فى فمها وفى مصبها قناطر كانت مانعة لسفن النيل والسفن الآتية من الخارج من الدخول فيها فكانت التجارة تنقل مرتين عند فمها وعند مصبها او بالعكس

ولما علم العزيز بأن وجود القناطر نشأ عنه المصاريف الباهظة التى توجب تأخير تجارة القطر المصرى فضلا عن المشقة وكان غرضه درء المضار وتذليل الصعوبات أمر جنابه العالى بازالة تلك القناطر وصنع هويسات على فمها ومصبها وذلك فى سنة ١٨٤٢ الموافقة سنة ١٢٥٨ هجرية وسميت هذه الترعة بالمحمودية نسبة الى السلطان محمود الثانى سلطان القسطنطينية

وقد شرع العزيز محمد على باشا فى انشاء كثير من الترع والجسور والقناطر لتعميم الرى وأتم أغلبها ومن أكثر هذه الاعمال فائدة وأكبرها عائدة اقامة القناطر على فرعى النيل المفترقين عند شلقان وذلك أن هذين الفرعين يتكون منهما مثلث وهو الجزيرة المسماة بالدلتا ومنهما تروى عدة مديريات وهى القليوبية والشرقية والدقهلية والمنوفية والغربية والبحيرة الا أن انتفاع تلك المديريات منهما لا تكون تاما الا فى زمن فيضان النيل أما فى زمن التحاريق فمياههما تنصب فى البحر المالح ولا تعود منهما على الزراعة أدنى فائدة ولذلك استصوب المرحوم محمد على باشا اقامة قنطرتين عليهما من أمام شلقان الى بر المناشى احداهما على البحر الشرقى والثانية على البحر الغربى وأن تكون القنطرتان على استقامة واحدة من البرين وأن يبنى رصيف على رأس الجزيرة يكون ابتداؤه من الشاطئ الغربى من فرع دمياط وانتهاؤه الى الشاطئ الشرقى من فرع رشيد وأن يكون هذا الرصيف عاليا جدا بحيث لا يرتفع اليه الماء فى زمن الفيضان وأن يعمل لهذه القناطر عيون بأبواب محكمة تقفل

وتفتح بحسب الاقتضاء لحبس المياه وارسالها عند اللزوم وأن يعمل أيضا المساعدة القناطر ثلاث ترع (رياحات) كبيرة تكون فوهاتها من فوق تلك القناطر واحدى هذه الترع تكون معدة لرى القليوبية والشرقية والدقهلية بغاية الراحة وفوهتها من الشاطئ الشرقى قبلى شلقان والترعة الثانية تكون فوهتها من وسط رأس الجزيرة أعنى من منتصف الرصيف وتكون معدة لرى المنوفية والغربية والترعة الثالثة يكون مأخذها من فوق القناطر الخيرية بير المناشى وتكون معدة لرى مديرية البحيرة وأن يعمل لهذه الترع الثلاثة قناطر وعيون بحسب ميزانية الارض وأن يعمل لها أبواب تقفل وتفتح عند اللزوم فاذا فتحت القناطر الخيرية والرياحات على هذه الكيفية ترتب منه أنه فى وقت فيضان النيل تفتح القناطر الخيرية وقناطر الترع الثلاث لتصريف ما زاد من مياه النيل عن لزوم الرى وفى أيام التحاريق تقفل الابواب المذكورة قفلا محكما فترتفع المياه أمام القناطر المذكورة فتنصب فى الرياحات وبذلك تزيد فيها المياه أيام التحاريق وتتسع بذلك نطاق الزراعة الصيفية

ولذلك أمر محمد على باشا ببناء هذه القناطر وعند وضع أول حجر من أساسها احتفل احتفالا رسميا وكان ذلك على ما جاء فى كتاب موسيو (وانترنيه) فى يوم ٩ ابريل سنة ١٨٤٧ بحضور جنتكان وقناصل الدول وجم غفير من أعيان الاهالى والتجار الوطنيين والاجانب وعند ما تنازل رحمه الله بوضع الطين على الحجر الاول بيده الطاهرة أطلقت المدافع ايذانا بالابتداء بهذا الفعل العظيم الذى يعود على مصر بما لا يقدر قدره من الفوائد وانتشر البشر والسرور فى أنحاء القطر بين الاهالى واستبشروا بالسعادة والرفاهية بسبب هذا البناء الذى لو لم يكن لمحمد على باشا الا هو لكفاه فخرا جيلا وبلا جيلا واستحق من المصريين الثناء عليه والاخلاص له ولعائلته الكريمة وحاشيته العظيمة

ومن منشآته رحمه الله تلغرافات الاشارات التى رتبه الموسيو (ابرو) بمساعدة الموسيو (كوست) بين مصر والاسكندرية فى سنة ١٨٢١ ميلادية بناء على أوامر عزيز مصر وذلك لتصل اليه أخبار جيوشه المشتغلة بقتال اليونان فى أقرب وقت وقد جعل لهذا التلغراف ثمانى عشرة محطة بنيت فيها الابراج العالية وأتى لها بالنظارات والآلات من بلاد أوروبا

وقد

وقد تم هذا المشروع حتى وردت الاخبار من الاسكندرية الى القاهرة وبالعكس فى مسافة لا تزيد عن أربعين دقيقة

وبالجملة أصبحت مصر ذات بهجة ونضارة وزهرة وغضارة بل أضحت مدينة السلام ودارة الاستسلام. ومنار العلم وعلم الحق فانتسق النظام واستتب المرام والتأمت الحال بعد أن استحال وأخصب القطر وأثرى فزالت فاقته وانتشرت افاقته واستوفر أسباب التقدم بعد أن أوشكت أركان التمدن أن تنهدم حيث العزيز (برد الله مضجعه) برد الغليل وشفى الغلة وآسى القطر بحكمته وأزال العلة فأسرع لمصر الصفاء وتراءف لها غب غيبة وجفاء وفنى فى فنائها الروع وأحييت بها السكينة فأمكنت الربوع وأبيد الظلم والميل ونشر لواء العدل الظليل وسوى بين الحقير والجليل والوضيع والاثيل والدخيل والاصيل وأحكمت بين مختلف الاقوام عرى التآلف وبث روح الاخاء والتحالف ومنحت المنح وأجزلت الجوائز وحفظ العزيز العرف لذويه وأغضب قلوب أهل الالحاد ومؤازريه وكان جميل صنعه وجليل مصطنعه سلما الى ملتمسه وبلاغا لمبتغاه فهادنته صروف الزمان وتحامته حوادث الحدثان ولوت عنه عوادى الملوان وغفر الدهر هفواته وعفى عنه من زلاته بعد أن انتهى بجنابه حل الامور وعقدها وفتقها ورتقها وعانى المشقات بعوالى الهمم وحمى وطيس الحروب واحتدم وطهرت البلاد من العائثين ووطد أركان الأمن باستئصال جراثيم المفسدين وملك المقسطين أزمة الاحكام وقد هامات الظالمين بصمصام الانتقام حيث كانت لهم سطوات وصولات ووقعات وبطشات فكانوا أحكموا أسباب الوقاحة وقطعوا أوصال السماحة ومدوا أطناب المظالم وأطنبوا فى بث المحارم وعمدوا الى استعباد المصرى فكان عبيدا وأثقلوا كاهله بالبلايا حتى صار سيره وئيدا ولجوا فى غلواتهم

واستمروا فى جهالاتهم وتماقتوا فى ضلالاتهم وجمحوا فى غواياتهم فكان تاريخهم نوادر مساآت وبوادر سوآت ولكن أبى الله الا أن مرضت أهواؤهم وتصرمت علاقاتهم وانبتت أواخيهم ورث عهد شوكتهم ووهن زمام صولاتهم بصاليت الجند وصناديد العزيز فى ذلك العهد اذ أعلوا عوامل الفتك وشحذوا أسنة البتك وانشئت فقل كانوا حماة الانسانية وذادتها ورعاة المروءة وكتيبتها كل ذلك بتدبير واشارات العزيز كوكب عصره وفريد دهره والأقوام ومنبعث العدالة والنظام ممدن مصرنا وعزيزها الاول وقد خلفه خلف أضاعوا بقية الفظائع وآثروا الحقائق فأودوا الشبهات بحججهم القواطع فأصبح الناس يحمدون غب السرى ويتناقلون صحف اليمن والامان بلا امترا حتى تبوأ أريكة الملك خير ملك على التحقيق ألا وهو خديوينا الداورى الاكرم (محمد باشا توفيق) فأتم للنظام معداته وشيد للعلم مناراته وأكمل للعدل منصاته وأسبغ للارتقاء لباناته حتى أجمعت القلوب على محبته وولائه بما أفعمها سرورا من عواطفه السنية وآلائه وأنعشها بابادة غواشى الدهور وبأسائه فقد بلغ بمصر من المنزلة غاية ليس وراءها مطلع لناظر حتى ساوت سواها من الامم المعجبة بالمدنية فى ميدان الرفاهة والتفاخر سيما فى عصر الوزارة الوطنية المحضة الرياضية أيات النفوس الصالحة حيث صرفت فى بلوغ القطر أمنيته عنايتها وبذلت فى تقدمه جهدها المستطاع ورعايتها وحفظت لابنائه حقوقا طالما طالها فم الدهر واتقت للهيئة الحاكمة رجالا ازدهى بما ترهم تاريخ هذا العصر غذوا بلبان الحكمة فآخاهم الاخاء وعنوا بالعدالة فصافاهم الصفاء فمتع اللهم مصرنا بشموس علا التوفيق وأنجاله الفخام وأمتعه بدوام وزارته الحالية وأيد مناصب رجالها البررة الكرام وأفض على قطرنا من قطرات فيوضاتك الالهية وامنحه جميل لحظات عنايتك الصمدانية ما يعضد آمالنا

وينجح أعمالنا لنحظى برضاك فى الحال ولنفوز بتنزل رحمتك فى المآل والى هنا أمسكت عنان اليراع واقتصرت من الجمل على القل بل على البعض من الكل وجعلت هذه العجالة سهلة المأخذ لمن رام الاطلاع على مناقب جمعت شتاتها من مفرقات الرقاع ما بين غربية وشرقية وعربية وأعجمية وتحاشيت فيها عما يغرب مبناه ويعزب مغزاه وليس قصدى أن يقال فلان ألف وصار له فى كتيبة الكتب مؤلف وانما هذه خدمة لوطنى الاعز الاغر حملنى على القيام بها حبيبه الصادق الابر ومع ذلك أرجو اقالة عثارى عند العثور فيها على السقط واذكر أيها المطلع (من ذا الذى ما ساء قط) أحسن الله لنا خواتيم الامور بجاه خاتم المرسلين وصلى وسلم عليه وعلى اخوانه النبيين وآله وصحابته الاكرمين والتابعين وتابعيهم الى يوم الدين ما جمع كاتب بين حرفين وبلغ الكمال المطهر من التشيع والمين آمين

﴿ يقول خادم تصحيح العلوم بدار الطباعة البهية ببولاق مصر المعزية الفقير الى الله تعالى محمد الحسينى أعانه الله على أداء واجبه الكفائى والعينى ﴾

سبحان من جعل حوادث الاولين عبرة للآخرين وأحوال الماضين عظة وارشادا للغابرين يتفكرون فيما كان لهم من معالى الامور فيأتسون ويتدبرون ما أخنت به عليهم الدهور فيتعظون لهذا كان علم التاريخ من أجل العلوم التى لها فى نفوس العقلاء أعظم وقع والفنون التى بها للانسان أكبر نفع فاعتنى به العقلاء ودون فيه النبلاء والفضلاء وكان ممن حذا هذا الحذو ونحا هذا النحو الشاب النبيه النبيل والفطن الاريب الجليل الفائق بذكائه على أقرانه الكامل فى أخلاقه وجميع شانه ذو الطالع السعيد حضرة محمد بيك فريد نجل ذى الكمالات التى لا تحصى والمزايا الحسنة التى لا تستقصى صاحب الهمة العلية والاخلاق البهية الذى زادت به روح الحكومة المصرية انتعاشا ذو السعادة ناظر الدائرة السنية الآن أحمد فريد باشا أدام الله مجده وأكمل سعده فان حضرة البيك حفظ الله طلعته وأزهر نبعته ألف هذا الكتاب الذى

كأنه الجوزاء والثريا حسنا وفاق غيره بلطفه الاسنى المسمى (البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة المحمدية العلوية) سفر أسفر لنا عن بعض آثار أصل هذه العائلة الشريفة المرحوم محمد على باشاذى المزايا البارعة المنيفة ونجله البطل الهمام ابراهيم باشا الاسد الضرغام ورجاله الفخام وكشف لنا عما قاسوه من المشاق المهولة والمصاعب الشديدة وقطعوه من كل عقبة كؤدفى حضرهم وأسفارهم البعيدة حتى ذللوا فى ملك مصر كل شامس وقيدوا كل شريد وقربوا ما لم ينله غيرهم فى اصلاح هذا القطر كل بعيد قصموا كل صنديد بسيف السطوة والجولة وقطعوا كل جبار عنيد بسهام الجبرية والصولة حتى غدت مصر بهم آمنة من صيال الصائل لا تخشى اختلاس لص ولا اغتيال الغائل فياله من كتاب ما أرق لفظه وأدق معناه وما ألطف تشييده وأمكن مبناه ولما بلغ من الحسن غايته ومن جودة التأليف نهايته انتهض مؤلفه حفظه الله لطبعه على ذمته رغبة فى عموم نفعه بالمطبعة الزاهية الزاهرة ببولاق مصر القاهرة فانتهى طبعه بحمد الله على هذا الوضع اللطيف والشكل الظريف فى ظل الحضرة الفخيمة الخديوية وعهد الطلعة المهيبة البهية التوفيقية حضرة من أجرى أمور رعيته على نهج السداد فبلغوا من الثروة والرفاهية غاية المراد وسلك فى اصلاح أحوالهم سبيل الرشاد أدام اللهم سدته ملثم الشفاه ومأمن كل خائف أواه وأطال بقاء حضرات أنجاله الكرام وأشباله الفخام ملحوظا هذا الطبع بنظر من عليه جميل أخلاقه بمزيد اللطف يثنى حضرة وكيل الاشغال الادبية محمد بك حسنى وكان تمام طبعه وكمال ينعه فى أواخر رجب الفرد من هجرة سيد الاولين والآخرين صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون

وقد قرظه الاستاذ الفاضل الشيخ طه محمود قطارية الدمياطى أحد فضلاء المصححين بهذه المطبعة مؤرخا عام طبعه فقال

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(اللهم) انا نحمدك على نعمك ما ظهر منها وما بطن لاسيما نعمتى الايمان والأمان فى الوطن
ونصلى ونسلم على سيدنا محمد أفصح الناس لهجة الذى جاء للعيون بالقرة وللوجوه بالبهجة
وعلى آله مفاتيح النعمة وأصحابه مصابيح الظلمة ﴿ أما بعد ﴾ فان أقوى دليل على رسوخ
قدم التمدن الآن بين المصريين وأن الله زادهم بسطة فى العلم وكساهم جلابيب السعادة
فى هذا العصر التوفيقى الذى أخذت فيه الارض زخرفها وازّينت ما نراه من اشتغال
الناس كافة بأسباب التقدم وإكبابهم على وظيفتى التعليم والتعلم وتدوينهم للكتب فى
جميع الفنون اتحد فى ذلك صنيعهم واستوى فى سلوك هذه السبيل شريفهم ووضيعهم
فكلهم على هذا المنوال ناسج ولهذا الباب والج بعد أن كان حى العلم بينهم مقبورا
وحمى الآداب عنهم حجرا محجورا وطالما أصبح الكاتب وهو فيهم شئ لايذكر والمؤرخ
أعز من الكبريت الاحمر أما اليوم فانك لاتشاء أن تمر فى طريق الا رأيته مزدحما بشيوخ
وشبان كلهم من ذوى العلم والعرفان وممن سلك من أبناء مصر فى هذا العصر هذه
السبيل مؤلف التاريخ الجليل المسمى (البهجة التوفيقية) وهو الامير ابن الامير
﴿ محمد بك فريد ﴾ جاء فى تاريخه هذا بما يشرح الصدور من أنباء عزيز مصر ومحيى
مواتها الحاج محمد على باشا روّح اللهم روحه واجعل من الرحيق المختوم غبوقه
وصبوحه واجزه عن المصريين خيرا جمع فيه محاسن أعماله التى أخرج بها مصر
وأهلها من ظلمات الجهالة والخوف الى نور العلم والأمن واستأصل برأيه السديد وبأسه
الشديد شأفة الطائفة العاسفة التى سلطها الله على مصر ماشاء أن يسلطها ثم جعل
حتفها على يد هذا الخديو الكبير الذى لم يسمع الزمان له بنظير وهذه الأعمال الخيرية
والهمة العلية العلوية هى التى بعثت هذا المؤلف الهمام لتأليف هذا التاريخ ونشره بين
الانام ليتدبر أولو الالباب اذا وقفوا على هذا الكتاب وليعرفوا نعمة الله عليهم فيقوموا
بشكرها اذا علموا أن مصر لم تكن لتصلح للسكنى قبل جد العائلة المحمدية كما يشهد بذلك
آباؤنا والكتب التاريخية ومما زادنى سرورا أن مؤلفه « حفظه الله » قام بطبعه
وتعميم نفعه فأخذت أصفه لمن لايعرفه فقلت

من رام طيب الحياة فى مصرا * فليقرَ تاريخ مصر فليقرا
يرى به حال مصر فى زمن * كانت به الغزُّ تهتك الستَرا
فأبدل الله أهل مصر بهم * أولى نُهى سادة علوا قدرا
لم تفتخر مصر قبل جدّهم * محمد وهى تصدق الفخرا
الابشمين أحسن اعتلا * أعنى ابن أيوب والرضا عمرا
لولاه لم يطلب الحياة بها * حىّ ولولاه أصبحت قبرا
كم للماليك قبل دولته * من بطشة فى ديارنا كبرى
كانت لهم مصر قبله جزرًا * هم حوله كالسباع بل أضرى
فجاءهم حتفهم على يده * وطهر الأرض منهم طهرا
واستنقذ القُطر من براثنهم * وقام بالامر مستقلا ظهرا
فلا تسل عن دم لهم هدر * أجراه منهم فأحرز الأجرا
يا أهل مصر احمدوا الاله على * توفيقه واخصوا له الشكرا
فكم لجد التوفيق من نعم * وكم له من صنائع تترى
جاءت بتاريخ كيّس فطن * خدن المعالى صب بها مغرى
محمد بن شعة الامير فريد * المجد من شاد للعلا قصرا
يا حبذا الفرع والاصول وهل * تضيف الا للباذر البذرا
لقد أتى فى كتابه عجبا * به غدا بهجة لمن يقرا
فانهض اليه فانه نبأ * أعمال أهل النهى به تدرى
واحرص على درسه لتعرف ما * قد جرّعت مصر ذلك العصرا
واسمع لقول الذى يؤرخه * لمصر عجبا بهجة بشرى

٥١٣ ١٧ ٤١٩ ٣٦٠

سنة ١٣٠٨

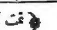
﴿قرظ هذا الكتاب اللبيب الماهر الناظم الناثر عبد الله أفندى الطوير فقال﴾

يا قطر آب اليك رونق بهجة * وسمابك التوفيق أسمى رفعة
هذى معارفك القديمة أصبحت * ملأى بها صحف وكانت قلت
كثرت وزادت وارتقت بعناية الـ * ملك المعزز عند كل عشيرة
أصبحت روضا يانعا فى عصره * حزت الفخار به وعينك قرت
من بحره كم يستمد جميعنا * أبدا ولم تنقص له من قطرة
فى عصره نبغت رجال معارف * وبهم تحلى القطر أحسن حلية
هذا فريد فى العلوم قد ارتقى * هو بيننا للدهر أعظم نخبة
جمع الذى فعل العلى محمد * فى بهجة صيغت بثاقب فكرة
سيرلمن أسدى البلاد مكارما * كانت لمصر بها نضارة نشأة
حتى رأينا من جميل صنيعه * ياقوم كم من حكمة فى حكمة
فاليكمو تاريخه ياقومنا * تم الهناء وتم طبع البهجة

٢٠٨ ٤٤٠ ٨٧ ٤٤٦ ٨١ ٤٦

سنة ١٣٠٨

(فهرست كتاب البهجة التوفيقية)


تمت

(بيان الخطا والصواب الواقع فى هذا الكتاب)

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٣	١٨	١٨٦٩	١٧٦٩
١٣	٢٣	٣٨٢	٣٣٢
١٣	٢٥	١٨	٢٠
[illegible]	١٦	من قدوم	بقدوم
٣٩	١٩	١٨١٣	١٨١٨
٦١	٤	يزدهم	لم يزدهم
٦٢	٤	لتسكون	الالتكون
٧٦	آخر سطر	١٨٢٤	١٨٢٦
٨٤	٢١	حدث	احدث
٨٧	١	نسارور	نبسارود
١٢٤	١	منها	اليها
١٣٠	٢١	يوليو	يونيو
١٣٣	١	مايو	يونيو
١٣٥	٢٢	عنها	عن بعضها
١٤١	١	الدولة	الدول
١٤٢	٣٠	على	ادى
١٥٢	١١	الخيول	خيول
١٤٦	٥	والد	والده
١٦٤	١٩	ودخلها	دخلها
١٧٨	١	زارا	زار
١٧٩	١٧	اقنجز	اقنجر
١٨١	١	٤ أغسطس	١٤ أغسطس
١٨٥	٢٢	مدرين	مدريين
١٩٠	١٥	شجر	شجر التوت